

AL ADAB 2005

العدد ٦/٧ حزيران (يونيو) - تموز (يوليو) ٢٠٠٥ - السنة ٥٣

Al-Adab vol. 53 # 6-7/2005

www.adabmag.com

«محرّرو» لبنان الجدد

رفضًا للتمويل الاجنبي . السّلاميون العرب . إرث ياسر عرفات . حوار مع هادي دانيال . الحركة الشيوعية العربية (٥)

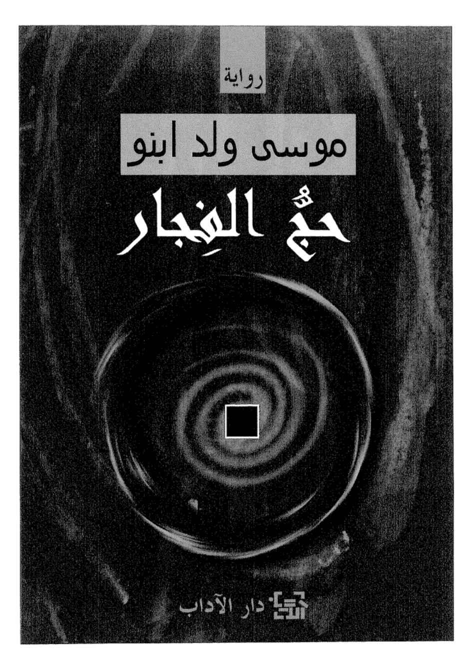
كفاية



وآفاق التغيير في مصر

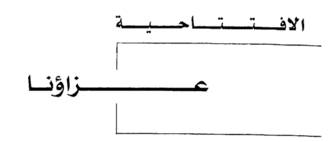


مربّع نور: المثليون في لبنان حملوا علمهم!



هذه الرواية، التي تدور أحداثُها في موسم الحجّ من سنة ثلاث وخمسين بعد عام الفيل، هي الأولى من ثلاثية تتناول موضوعَ الحج عبر العصور، بدءًا من العصر الجاهلي وحتى سنة ثلاث وخمسين بعد الحادي عشر من سبتمبر. ومن بين شخوص هذا الجزء الأول الشاعر لبيد، والمومس مَهْدَد، وهاذر شيطان النابغة، وأسماء العدوية ـ أجمل امرأة في العالم...

د. موسى ولد ابنو من مواليد موريتانيا عام ١٩٥٦، حاصل على دكتوراه فلسفة من جامعة السوربون، وأستاذ فلسفة في جامعة نواكشوط. صدرتْ له روايتان عن دار الآداب: مدينة الرياح، والحب المستحيل.



عزاؤنا

ليس لزامًا أن يحبَّ المرءُ سمير قصير أو جورج حاوي، أو أن يكون عضواً في «حركة اليسار الديموقراطي» أو الحزب الشيوعي، لكي يَذْرِف الدمعَ أمام سيّارتيْهما المتفجّرتيْن في الأشرفية ووطى المصيطبة.

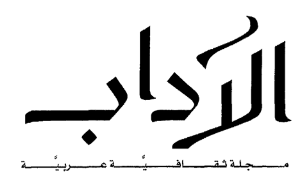
لو سألني أحدٌ لأجبْتُ بأنّني لم أكن أحبُّ كثيراً ما كان يكتبه الشهيد سمير قصير في جريدة النهار، ولكنّني كنتُ معجبًا بجرأته غير العادية. ومع ذلك، فقد كان يُغيظني أن تقتصرَ جرأتُه على انتقاد البعث في سورية والعراق، وعلى انتقاد بعض أطراف الحكم والمعارضة في لبنان دون غيرهم ممّن يستحقّ الانتقادَ بل والتقريعَ. فالحال أنّ جرأة قصير غيرَ العادية لم تطاولْ، للأسف، أو لم تطاولْ بالحدّة نفسها في أحسن الأحوال، قامعين عربًا آخرين أمثالَ المتربّعين على أنظمة الخليج، ولا أصحابَ التسويات المخادعة كقادة أوسلو، ولا الشخصيات اللبنانيةَ العامّةَ المعجونةَ بالعنصرية والطائفية والتفوُّقية كبعض «زملائه» في جريدة النهار. هناك أولويات، يقول البعضُ؟ حسنًا، ولكنْ لِمَ تكونُ الأولويةُ لنقد مهدي دخل اللّه وفاروق الشرع وبعثِ العراق وحزب اللّه وحماس والنائبِ السابقِ ناصر قنديل، ولا تكون لنقد قرنة شهوان وياسر عرفات وجورج بوش الصغير وخادمِ الحرميْن والسياسة الحريرية و«الاشتراكية» الجنبلاطية والنائب المنتخب جبران تويني؟ ولماذا، أصلاً، يرتضي المثقفون منطقَ «الأولويات» إنْ كان ثمةَ أكثرُ من طرفٍ يَسْتبيح كراماتنا ويتناوب على هزيمتنا وتهميشنا إلى الأبد؟

غير أنّي، رغم ذلك، كنتُ أنتظر يومَ الجمعة لأقرأ النهار، وغالبًا لأقرأ زاويتَه فقط. كنتُ أَسْتمتع بأناقته في التعبير التي تُشْبه أناقةَ مظهره، وأَسْتمتع بسخريته المرّة، وبتمييزه القاطع دومًا بين النظام المنتقَد والشعبِ الخاضعِ له. أستمتع بذلك كلّه، ثم أغضب لأنّ سمير قصير لا يرى، أو لا يريد أن يرى، الخطايا التي يرتكبها آخرون، حتى صارَ يَهْجس بالبعثِ وحزبِ اللّه. أستمتع ثم أغضب، فأعِدُ نفسي ـ كلَّ جمعة ـ بألاّ أزعجَها بعدَ اليوم بقراءة مقالاته. لكنْ حين يحلُّ الجمعةُ، أتسلّل إلى رفِّ الجرائد في المقهى أو النادي الرياضي، فأقرأهُ خفيةً عن نفسي مخافةَ أن أَضْبِطَها «متلبِّسةً» بأفكاره المغْرية... لكنْ غيرِ الكاملة.

واليومَ، اليومَ فقط، أُدرك أنّ جزءاً من مشروعنا، الذي أَسْمَيْناه «العروبةَ الجديدةَ» قبل أعوام، لا بدّ أن يكون قد تأثّر ـ ولو عن غير وعيٍ منّا ـ بكتاباتِ وأحاديثِ وخطبِ سمير قصير، وإنْ باتجاهاتٍ مغايرةٍ بعضَ الشيء: أكثرَ يساريةً (أيْ أقلَّ «ليبراليةً»)، وأعمقَ اهتمامًا بـ«الإثنيات» داخل الوطن العربي، وأشدَّ انشغالاً بهمومِ دولِ المغرب العربي (كتّابُ جريدة النهار الأساسيون، بالمناسبة، وعلى رأسهم المطران جورج خضر، يؤْثرون التركيزَ على «المشرق العربي»)، وأوسعَ ارتباطًا بالحركات الجذرية المناهضة للعولمة الرأسمالية، وأقوى إصراراً على توسيعِ النقد ليَشْمل جميعَ الأنظمة العربية؛ كلُّ ذلك دون التخلّي عن هدف تحرير كاملِ فلسطين، من النهر إلى البحر، مهما طال الزمان، أو بدا ذلك غيرَ «واقعيّ» اليومَ.

أما جورج حاوي فكانَ (كانَ؟) يَبْهرنا بحضوره القويّ، واطّلاعه الواسع؛ وقد لا يكون من المبالغة القولُ إنّه ـ مع عزمي بشارة ـ أوسعُ سياسيي الوطن العربي ثقافةً. «مدرَعةٌ فكريةٌ» هو أبو أنيس، بالمعنى النبيل الراقي: دبّابةٌ من الشواهد التاريخية والاستشهادات الشعرية، وجيشٌ من الفلاسفة والقادة والأدباء، يُرَفْرفُ عليهم بيْرقٌ من الذُكاء وسرعةِ البديهة والنكتة الحاضرة. مكتزاً كان أبو أنيس بالشّحم واللّحم والعلم والخبرة والقيادة والظَرف والديالكتيك. وآه من الديالكتيك الذي كثيراً ما كان يَسْتخدمه الشهيد أبو أنيس ليُطابقَ بين أمريْن لا يُمْكن أن «يَرْكَبا» على قوسِ قُزَح! (التتمة ص ١١٢)

سماح إدريس



AL ADAB 2005

صاحباها: سهيل إدريس وسماح إدريس

العدد ٦/٧ حزيران (يونيو) - تموز (يوليو) ٢٠٠٥ - السنة ٥٣

Al - Adab vol. 53 # 6-7/2005

Editor: Samah Idriss

Subscription Manager: Kirsten Scheid Idriss

Owners: Souheil Idriss & Samah Idriss

لا تنشر المجلة أيّ مادة سبق نشرها، ولا تكافئ ماليًا إلاّ مَنْ كُلّفَ بإعداد مادّة ما. الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير. لا تعاد المواد إلى أصحابها. تحتفظ المجلة بحقّ حذف كل قدح شخصي أو إطالة. تُكتب المواد بخط واضح، أو تُطبع. التوثيق (بذكر اسم المؤلف وكتابه وتاريخ النشر ومكانه) ضروري. يرجى إرسال غلاف الكتاب المنقود أو صورة شخصية عن الكاتب موضوع البحث أو عن الباحث نفسه. على الأبحاث ألا تتجاوز ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ كلمة، وعلى مراجعات الكتب الا تتجاوز ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ كلمة.

الاشتراك السنوي لعام ٢٠٠٥

لبنان: ٣٠ دولارًا أمريكيًا (للأفراد) و ٦٠ دولارًا (للمؤسسات). البلدان العربية (باستثناء دول المغرب العربي): ٤٥ دولارًا (للأفراد)، و٩٠ دولارًا (للمؤسسات). أوروبا وافريقيا وبلدان المغرب العربي: ٥٥ دولارًا (للأفراد)، و٩٥ دولارًا (للمؤسسات). بقية الدول: ٧٠ دولارًا (للأفراد)، و١١٠ دولارات (للمؤسسات).

تُرسل اشتراكات المؤسسات بالبريد المضمون لا غير، وأمّا اشتراكات الأفراد فبالبريد العادي (وتُضاف عليها ١٥ دولارًا عند الرغبة في البريد المضمون).

تُدفع الاشتراكات مقدمًا: (أ) إمّا بشك لأمر مجلة الآداب مسحوب على احد المصارف العربية، وإمّا (ب) بتحويل مالي لحساب دار الآداب رقم ٣ - ٨١٠ - ٧٦٣٧٠٦ - ٣٣٨٠ بالدولار، البنك العربي.

ملاحظة: هذه النسخة صالحة للبيع للأفراد فقط، وعلى المؤسسات العلمية اللبنانية والعربية الراغبة في اقتنائها الاشتراكُ السنوي المباشر من «دار الآداب». الأسعار أدناه مخصّصة للأفراد، وفي البلدان العربية وحدها، وعند زمن عرضها في الأكشاك. ولا يحقُّ إلاّ لدار الآداب بيع هذا العدد بعد سحبه من الأسواق العربية، وبالسعر الذي ترتئيه.

Subscription rates 2005

Lebanon: 30 USD (ind.), 60 USD (inst.). Arab Countries (except Morocco, Libya, Algeria & Tunis): 45 USD (ind.) & 90 USD (inst.). Europe & Africa (including Morocco, Libya...): 55 USD (ind.) & 95 USD (inst.). All Other Countries: 70 USD (ind.) & 110 USD (inst.)

Note: All institutional subscriptions include registered air mail fees. All individual ones include regular mail fees; please add 15 USD to get your individual subscription through registered mail.

Payment can be made by money order or check made out to Dar al-Adab, credit card, or bank transfer (Arab Bank, Verdun Branch, Beirut, Lebanon, #338 - 763706 - 810 - 3).

Note: Institutions may subscribe to al-Adab only through Dar al-Adab or an authorized dealer (Otto Harrassowitz, Swets, Blackwell's, Faxon, or Ebsco). The prices listed below are discounted prices valid only for individuals in listed Arab countries, and at the time of stand display. This copy may not be sold as a back issue by any seller but Dar al-Adab. After display time expires, price is subject to change without notice.

ثمن النسخة من هذا العدد (الأسعار صالحة لسنة ٢٠٠٥ فقط)

لبنان ٥٠٠٠ ل.ل. - سوريا ١٠٠ ل.س. - مصر ٧ جنيهات - المغرب ٢٥ درهمًا - تونس ٣٠٠٠ مليم - الأردن ٢٥٠٠ فلس - البحرين ٢٠٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١٥٠٠ فلس.

رئيس التحرير

سماح إدريس

المراسلون

عبد الحق لبيض (المغرب)

محمد جمال باروت (سوريا)

أحمد الخميسي (مصر)

مديرة الاشتراكات والأرشيف

كيرستن شايد

المديرة المسؤولة

عايدة مطرجي إدريس

مصمم الغلاف الأول والأخير

حاتم إمام

مصمم الغلاف الثاني والثالث

ريم الجندي

لوغو الغلاف

ندين شاهين

إخراج

ميشلين خوري

حاتم إمام

الطباعة

Dar Al Kotob

العنوان: ص.ب ٤١٢٣، بيروت، لبنان.

تلفون/فاكس: ٨٦١٦٣٣ (١) (٠٠٩٦١)

٧٩٥١٣٥ (١)

Address: P.O.Box: 11-4123, 1107 2150, Beirut, Lebanon.

Tel: 00961 -1 -795 135

Fax: 00961 - 1 - 861 633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

kidriss@cyberia.net.lb

الفهـــــــرس

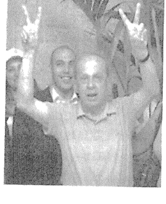
الافتتاحية

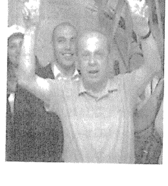
الأبحاث

الحدث

حوار

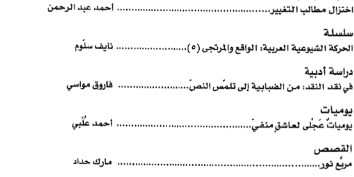
القصائد





الملف





سلسلة

دراسة أدبية

يوميات

القصص

مناقشات

دفاعاً عن النقد

نداء إلى النقّاد العرب

. ناصر الرباط * .

في ضرورة النقد

ضمن نقاش كتاب جديد للكاتبة المصرية الرائعة أهداف سويف (قناة الجزيرة، ٢٠ شباط ٢٠٠٥)، لفت نظري رأيُها في حدود النقد أمام المفكّر العربي في هذه الأيام، وبخاصةٍ ذاك الذي يعيش ويُنتج في الغرب. فعلى عكس الوضع السائد في الثقافات الغربية حيث يُمكن نقدُ أكثر المظاهر الاجتماعية سلبيةً (مثل استغلالِ الأطفال جنسيًا) من دون أن يؤدّي ذلك إلى إدانة شاملة للثقافة، فإنّ أيّ نقد لمظاهر سلبية في الثقافة العربية اليوم سيُستَخدم، كما قالت سويف، من قِبل المتربّصين بهذه الثقافة من المعلِّقين الغربيين من أجل نعت الثقافة العربية ككلّ بالتخلّف والوحشية. وعليه، فقد قرّرتْ سويف، بطريقةٍ فيها الكثيرُ من الواقعية والبراغماتية، الابتعادَ عن نقد الوضعيْن السياسي والاجتماعي في العالم العربي، وركّزتْ في كتابها الأخير Mezzaterra: Fragments from the Common Ground على ما هو أكثرُ جرأةً ومخاطرةً بالنسبة إلى المفكّرة العربية المغتربة، ولاسيّما التي تكْتب باللغات الغربية كسويف نفسِها: نقد المواقف الغربية من القضية الفلسطينية واللامبالية بمعاناة الشعب الفلسطيني منذ أكثر من نصف قرن.

وهي مواقف تُخالِفُ أبسطَ قواعد حقوق الإنسان والعدل التي يركّز عليها كافةُ المعلِّقين الغربيين عند تناولهم أوضاعَ العالم العربي بالنقد الشديد ويتناسوْنها عندما يصل تعليقُهم إلى إسرائيل وسوءِ معاملتها للمواطنين الفلسطينيين الواقعين تحت احتلالها العسكري أو ضربها عرضَ الحائط بكلِّ قرارات الشرعية الدولية ومحكمة العدل الدولية.

سويف بالتأكيد محقّةٌ في ما قالته عن المواقف الغربية من العرب عمومًا والفلسطينيين خصوصًا. وهي بالتأكيد لم تَنْءِ عن نقد أوضاع العالم العربي خوفًا أو مداراةً. وكلُّنا يَعْرف مدى لذاعة نقدها الجنسي والاجتماعي من خلال رواياتها، ولاسيّما روايتها الأولى In the Eye of the Sun التي تَنْضح بالتفاصيل الحميمة إلى درجةِ الاشتباه بكونها سيرةً ذاتيةً. ولكنّ ما قالته سويف في البرنامج، وتأييدَ كلٍّ من مقدِّم البرنامج خالد الحروب والمشارك أمجد ناصر لفحواه، يدفعاني إلى الإدلاء بدلوي في هذه المشكلة العويصة التي تواجه المفكّرين العربَ اليومَ، وبخاصةٍ أولئك الذين يعيشون خارج الوطن العربي، وإنْ كان كثيرون منهم يَحْملون في قلوبهم وعقولهم محبّةَ وطن النشأة والتماهي معه في أفراحه وأتراحه.

الحياة العربية المعاصرة، في رأيي، بحاجةٍ ماسّةٍ إلى النقد في كلّ مناحيها. والمجتمعات العربية المعاصرة بحاجة إلى الخروج من أزمة الخوف من النقد التي وَسَمت الحياةَ الثقافيةَ والسياسيةَ بميسم خانقٍ جَعَل من كلّ نقدٍ مُروقًا، ومن كُلّ ناقدٍ خائنًا أو متاجرًا أو عابثًا أو كافرًا يستحقّ الهجاءَ من على المنابر وما هو أشدّ منه: من قَطْع عيش، أو تشريدٍ، أو سجن، أو اغتيال. لكنّ النقد، بدايةً، ليس معادلاً للذمّ والتجريح والرفض فقط. ولا هو بالردّ السهل والانفعالي على مواقفَ وتصريحات وكتابات، أو عاداتٍ وتقاليدَ وتصرّفاتٍ، خَدَشَتْ حساسيةَ الناقد أو صَدَمتْ معتقداتِه وآراءه. بل هو، أولاً وقبل كلّ شيء، محاولةٌ للغوص بالفهم إلى أعمق من السطح ومن التفسير المبتسر والمتاح أو المقصودِ والمبطَّن. إنّه استشفافٌ للمقاصد والأغراض وراء أيّ نوع من أنواع التعبير؛ استشفافٌ لا يقف عند حدود مرسومة بل يذهب في سعيه للشرح أو التفنيد في كلّ اتجاه، ويجنِّد في سبيل الوصولِ إلى فهمٍ أفضلَ كلَّ أداةٍ من أدوات المعرفة. وهو، في هذا السعي، لا بدّ من أن يَصطدِم أحيانًا بالحدود التي تحظّر حريةَ الفكر والتفكير، مع ما لبعض هذه الحدود من هالةٍ رَسَمَتْها مصالحُ أطرافٍ شتّى أو

* ـ أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.).

الخطر المحدق بشعوبنا هو في الاستكانة للفكر الشمولي السائد، لا في الصراعات الفكرية

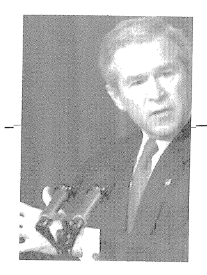
تراكمُ اعتقاداتٍ وعاداتٍ اجتماعيةٍ اكتسبتْ أحيانًا قوةَ الثبات والبقاء. وعلى الرغم من أنّ النقد بطبيعته يَكْره المحظورات ويحاولُ تخطّيَها، فإنّه لا يَفْعل ذلك غيًا أو استعلاءً أو استجلابًا للعداوة والنقمة، بل يحاول سبرَ كلّ التفسيرات المتاحة من أجل اختيار أقربها إلى المنطق وأكثرها استجابةً لمعطيات الوضع قَيْدِ الدراسة والتحليل كما يَفْهمها الناقد الذي يقرّ بالضرورة بأنّ نقدَه مفتوحٌ للنقد بدوره، على ما يُنْسب إلى الإمام الشافعي الذي وازى بين رأيه والرأي الآخــر من حــيث قابليتُهما كليْهما للصوابِ والخطإ.

درجاتُ النقد

للنقــد درجــاتٌ تتــراوح بين الآنيّ والمحدود، إلى المتعمّق والشامل. فالنقد قد يكون على شكل ردّ فعل مباشر، وأحيانًا انفعاليّ، على ما يجابهه المرءُ في حياته. وكلُّنا في هذه الدرجة ناقد. فـمَنْ منّا لم يعلّق على ما يراه خطأً بحقّه أو حقِّ غيره: كأنْ يعلّق على رداءةِ خدمةٍ عامةٍ، أو يستجيبَ استحسانًا أو استهجانًا لخطابٍ سَمِعَه أو كتابٍ قرأه أو برنامجٍ تلفزيونيٍ أو فيلمٍ شاهده. ولا أظنّ أنّ أيّ عاقلٍ سيضنّ على الفرد بهذا الحقّ في النقد؛ فهو مفْصلٌ من مفاصل الانتماء، حيث يشارك الفردُ في ما يجري من حوله وفي الفضاءات الإذاعية والتلفزيونية والافتراضية التي تغزو فضاءه وتحاول الاستحواذَ على انتباهه لأغراض شتّى ـ بعضُها بريءٌ وبعضُها أقلُّ براءةً. وهذا النقد أيضًا لحمةٌ إنسانيةٌ جامعةٌ إذ يتبادل المرءُ مع مَنْ حولَه الرأيَ، ويَنْسج خيوطًا من القبول والرفض أو المشاركة والمخالفة مع محيطه الاجتماعي: من أصغرِ دوائره، أي العلاقات الفردية والأُسرية، كأنْ يُعْجَبَ بأغنيةٍ يستمعُ إليها مع صديق أو حبيب ويقرِّظها، إلى أوسعِها وأقلِّها حميميةً، كأن يتذمَّر مِنْ تأخّر الباص أمام الغرباء الذين يشاركونه الانتظارَ. كل هذه الأمثلة تُبيِّن أنّ النقد بطبيعته جزءٌ من الحياة اليومية العادية، وأنّنا نمارسه باستمرارٍ من دون كثيرِ تكلُّفٍ واحتسابٍ للعواقب ـ إنْ كانت هناك عواقبُ أصلاً.

الدرجتان الأُخريان في النقد أكثرُ تخصّصًا وأقلُّ عفويةً من النقد المباشر. وهما متداخلتان في بعض الأحيان لتطلّبهما إعمالَ النظر والتروّي قبل الاستجابة وإبداء الرأي، ولكنّ الفصل بينهما ضروري ومهمّ جدًا.

النوع الأول من النقد المتروّي يَنْبع من حقّ كلّ فرد في النقد الخاصّ والعامّ، للأوضاع من حوله. ذلك أنّ إبداء الرأي دليلٌ على انتماء هذا الفرد وتفاعله مع ما يجري حوله من جهة، وحقٌّ له بحكم انتمائه إلى ذلك المحيط الأوسع ـ سواء أكان أسرةً أمْ قبيلةً أمْ حيّاً أمْ دولة أمْ الجنسَ البشري بتمامه من جهة أخرى. ولكنّ هذا الحق ليس مكتسبًا بشكل غريزي أو طبيعي، وإنّما يجب على المجتمعات الحيّة أن تكافحَ وتضحّي في سبيل الحصول عليه. وعليها كذلك صونُهُ بعد الحصول عليه، وذلك من خلال دمجه في الدساتير والقوانين وإدراجه في مختلف المقرَّرات الدراسية، لكي يَنْشأ الفردُ على معرفته والاعتزازِ به والدفاع عنه في مواجهة القوى التي تَرُوم القضاءَ عليه. هذه القوى المعادية للنقد كثيرةٌ ومتنوِّعة ولكنّها طبقيةُ الأصل، أيْ أنّها تنشأ عادةً بحكم اختلال التوازن الاقتصادي بين الأفراد أو الطبقات في كلّ مجتمع. وهذه القوى هي السائدة في غالبية الفترات التاريخية لكلّ المجتمعات الإنسانية، ومازالت للأسف هي الغالبةَ في العديد من دول العالم، كما هو الحال في المجتمعات العربية من دون استثناءٍ يُذْكر. بل إنّها على صعود في مجتمعات أخرى ظنّت أنّها وَجَدَتْ حلولاً للنزاعات الطبقية وعدم التكافؤ الاقتصادي، عن طريق إقامة أنظمة الضمان الاجتماعي للمحافظة على الحدود الدنيا من الدخل المقبول لكل أفراد المجتمع، فإذا بنا الآن ـ حتى في الولايات المتحدة ـ في خضمّ صراعٍ يَهْدف إلى تفكيك أسس نظام الضمان الاجتماعي نفسه، يقوده الجمهوريون المحافظون مستغلين غطاءَ «مكافحة الإرهاب.»



لو كانت القوى العالمية تَرْغب فعلاً في مساعدة شعوبنا على اكتساب حرياتها، فَلِمَ انتظرتْ كلَّ هذه السنين؟

أما النوع الثاني من النقد المترويّ فهو النقد المتخصّص على مختلف أنواعه: النقد الفني، النقد الأدبي، النقد السياسي وهلمّ جرًا. هذه الدرجة من النقد حِرَفيّة، مع كل ما تتطلّبه هذه التسميةُ من أسس مهنية وسلوكية تحدِّد مَنْ ينتمي إلى المهنة ووفق أية شروط وضِمْن أيّ أطر، وما تتطلّبه أيضًا من تنظيم جماعي يَحْمي المهنةَ وحقوقَ ممارسيها ويمثِّلهم في أروقة السلطة وأمام غيرهم من المهنيين. وليس النقدُ، كحرفة، جديدًا في التاريخ الإنساني بشكل عامّ أو التاريخ العربي بشكل خاصّ. فهناك أفراد تميّزوا على مدى التاريخ العربي بأنّهم، أولاً وقبل كل شيء، نقّاد اجتماعيون متعددو المواهب كما هي حالُ الجاحظ مثلاً، أو نقّادٌ أدبيون كابن المعتزّ، أو نقّاد وجوديون كأبي العلاء المعرّي، أو نقّاد سياسيون جابهوا الأنظمةَ السائدةَ وانتقدوها مثل مفكّري الخوارج أو المشكّكين من أمثال الراوندي والفارابي أو حتى المتشددين دينيًا من أمثال ابن تيمية.

ولكنّ تنظيم النقد، كمهنةٍ لها متطلباتُها العلمية وقواعدُها المهنية، حديثُ العهد. وهو، قبل كل شيء، نتاجُ التخصص المهني الذي شَهِدَه عالمُ الحداثة، كما هي حالُ المهن الأخرى التي شَهِدتْ قواعدَ وشروطًا جديدةً نَظَّمتها وحَدَّدتْ شروطَ الانتماء إليها ابتداءً من نهاية القرن الثامن عشر. ولكنّ هذا التخصص لا يُمْكن أن يكون احتكاريًا أو متشددًا في حالة النقد كما في الطبّ والهندسة مثلاً، لأسباب ثلاثة على الأقل. **الأول** هو أنّ النقد حالة إنسانية مشتركة، وكلُّنا ـ كما أسلفنا ـ ناقد. **الثاني** هو أنّ تعلُّم النقد مازال على الغالب فرديًا، على الرغم من نشوء بعض الفروع الجامعية التي تُدرِّس بعضًا من أنواع النقد وتضع لها قواعدَ منهجيةً. **والثالث**، والأهمّ، هو أنّ للنقد وظائفَ سياسيةً واجتماعيةً ومعرفيةً، بل ومِفْصليةً في إذكاء الخطاب الثقافي في أيّ مجتمع، وفي الإبقاء على الحوار وسيلةً أُولى للتواصل في المجتمع بين الأفراد الذين يَحْملون آراءً مختلفةً وأحيانًا متعارضة. ومن ثم فإنّ حدود النقد المتخصص، خلافًا لحدود مهنية أخرى، بحاجة إلى أن تبقى في أغلب الأحوال حدودًا مفتوحةً، الأمرُ الذي يؤدّي أحيانًا إلى اختراقها من قِبل بعضِ مدّعي النقد. ومع ذلك فإنّ الضرر الذي يسبِّبه هؤلاء الجهلاءُ أقلُّ خطرًا بكثير من السكوت والجمود والانكماش الناشئة جرّاء أيّ محاولة تعسفية لتشديد حدود التخصص في النقد وحصره بمن حاز مؤهّلاتٍ معينةً فقط.

النقد في العالم العربي

كيف يُمْكننا تقييمُ وضع النقد في العالم العربي المعاصر على ضوء هذه الملاحظات العامة؟ وكيف يُمْكننا أن نفسِّر تقاعُسَ النقد أو إقصاءَهُ عن أداء دوره الريادي في المجتمع، وهما تقاعُسٌ وإقصاءٌ تزداد حدّتُهُما على الرغم من كلّ الجعجعة عن ضرورة دمقرطة العالم العربي؟

لعلّ الجواب الأعمّ هو سيطرةُ الفكر الشمولي على المنظومات الفكرية والدينية والسياسية المتصارعة في العالم العربي اليوم، والتي تتشارك في عدم تقبّلها للنقد. فمن ضمن إطار المرجعية المعرفية لذلك الفكر، لا مجال لمساءلةِ وتحدّي أنظمةِ المجتمع السائد، أو لتخيُّلِ بدائلَ لها والسعيِ إلى تحقيق هذه البدائل والتعبيرِ عن ذلك بكافة الوسائل التعبيرية المتاحة ـ من فنّ وعلْم وأدب وفكر وعقيدة وسياسة وغيرها. وهذا هو خلاصةُ ما يَحْدث اليوم في العالم العربي. فالأنظمة العربية الحالية ديكتاتوريةٌ بمجملها. وهي، على الرغم من حداثتها الظاهرية أحيانًا، لا يُمْكنها الاعترافُ بحقّ النقد، لا لأنّه قد يتحدّى ادّعاءات شرعيّتها فقط، بل لأنّه يعارض أُطُرَها الإيديولوجية التي تعتمدها في تبرير وجودها وقراراتها أصلاً. ولو أنّها أرادت إدراجَ النقد ضمن منظومتها الفكرية فإنّها ستُضْطَرّ إلى تغيير أسسها المعرفية واليقينية تغييرًا جذريًا، والتخلّي من ثم عن امتيازاتها المكتَسَبة

مازالت حقوقُ المجتمع فوق حقوق الفرد بالمطلق في كلّ الدول العربية

والمغتَصَبة والموروثة، وإعادة النظر في تقييمها لإنجازاتها الفعلية والموهومة.

ولا ينحصر رفضُ النقد بالأنظمة الحاكمة، بل يتجاوزها إلى غالبية التيارات الفكرية الفاعلة في العالم العربي، التي وإن طالبتْ بحرية النقد فهي تطالب بتطبيقها على نفسها وعلى مماثليها فقط ولكنّها تَحْجبها عن غيرها ممن تصنِّفهم بالمتعصبين أو المنحلّين أو المتغرّبين، مع أنّ الأرضية المعرفية الفعلية لحقّ النقد هي سريانُه على كلّ الأفراد والمجموعات ضمن أيّ مجتمع. ولا أظنّ أنّ وضع أيّ شرط اجتماعي أو قانوني لتنظيم أو تكبيل حقّ النقد، كما تَفْعل غالبيةُ الخطابات العربية المعاصرة، مفيدٌ أو مبرَّر. فأيُّ تحديدٍ لحقّ النقد ينفيه نفيًا تامًا، ويجعلنا أسرى منظومة معرفية سلطوية ليس لديها كبيرُ تقبُّلٍ لأيِّ رأي أو فعلٍ يغايران أسسَ معرفتها بنفسها.

هذا هو، في نهاية المطاف، الشرخُ المعرفيُّ العميق الذي تواجهه السياسةُ والثقافةُ العربيتان المعاصرتان. فهما تَصْدران عن تيارات فكرية وقواعد اجتماعية وخطابات إيديولوجية متناقضة فلسفيًا وحضاريًا وتاريخيًا، تتراوح بين المطالبة بالمحافظة على الخصائص المحلية، والعودةِ إلى السلف الصالح، إلى تحديثٍ أو نهضةٍ أو بعثٍ أو إصلاح وغير ذلك من المسمَّيات المتداولة منذُ بداية القرن العشرين. ومع تعدُّد المحاولات، لم يتمكن الفكرُ العربي المعاصر من الموافقة بين تناقضات مصادره وصَهْرها في إطارات ثقافية وقانونية ناضجة وقادرة على الاستمرار. فما زالت حقوقُ المجتمع فوق حقوق الفرد بالمطلق في كل الدول العربية. وما زال التفكيرُ السائدُ محصورًا ضمن إطار المنظومة المعرفية ما قبل الحداثية، التي ترى الفردَ دومًا من خلال المجتمع وأمنه ونظامه وعقيدته وأهدافه السياسية المنشودة (التي غالبًا ما يقرِّرها مستبدّوه). ومازالت طموحاتُ الأفراد إلى ممارسة حقّهم في التعبير عن آرائهم تُقْمع بحجّة الأمن حينًا، أو المروق والتحجّر حينًا، أو الارتباط بجهات أجنبية أو فكر خارجي أحيانًا أُخَر.

ولا فرق رئيسًا حقًا بين ادّعاءٍ وآخر في نهاية الأمر: فالمنظومة المعرفية الغائية مازالت هي الأساسَ الناظمَ لكلّ المؤسسات الفاعلة في العالم العربي اليوم، والمحرِّكَ المستَتِرَ لمعظم الإنتاج الفكري العربي الذي يلتزم حدودَ الجماعة على الغالب، بغضّ النظر عن الكلام الكثير على الديموقراطية والحرية واحترام الرأي الآخر، والذي لا يعدو كونَه محاولاتٍ مسرحيةً للظهور بمظهر حداثي ولماشاة الاتجاه العالمي نحو المزيد من الحرية للأفراد، من دون كبيرِ سبرٍ للتناقضات البنيوية التي تَجْعل تحقيقَ هذه الحرية والإبقاءَ على الأنظمة السائدة سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا في آنٍ واحدٍ أمرًا مستحيلاً.

فيا نقّادَ العالم العربي، مواطنين ومتخصّصين، ومقيمين ومغتربين، مارسوا حَقَّكم في النقد إنْ كنتم فعلاً تريدون لمجتمعاتكم أن تَنْهض من كبوتها التي طالت! ولا تُعِيروا كثيرَ انتباهٍ لمن يحذِّركم من مغبّة جرّ الأمة في صراعات فكرية «هي في غنًى عنها اليوم بسبب الأخطار الخارجية المحدقة بها.» فالخطر الحقيقي المحدق بأممنا وشعوبنا هو في الاستكانةِ للفكر الشمولي السائد وأدواته القمعية، وهي أدوات لا تحدق بها أيُّ أخطار خارجية من مروِّجي «ضرورة الديموقراطية» في أوساط الإدارة الأميركية أو السلطات الأوروبية المختلفة. فلو كانت هذه القوى العالميةُ تَرْغب فعلاً في مساعدة شعوبنا على اكتساب حرياتها، رغم أنف الأنظمة الشمولية التي ساستها منذ نهاية الستينيات على الأقل، فَلِمَ انتظرتْ كلَّ هذه السنين؟!

كامبردج، ماساتشوسس

في أبجدية الرموز الثقافية

من أجل تفسيرٍ أدقّ للقضايا الهامّة

. محمود الذوادي * .

مشروعية البحث في الرموز الثقافية

بدأ اهتمامُنا بدراسة مفهوم الرموز الثقافية في بداية عام ١٩٩٠. وكان الأمر استجابةً لرغبة ملحّة تطالبنا بالعثور على مرجعية رئيسية تكون ذاتَ مصداقية عالية في فهم وتفسير سلوك الناس، أفرادًا وجماعات. فوَجَدْنا أنفسَنا نبحث عمّا يسميه عديدُ العلماء اليوم الرجوعَ إلى أساسيات الأشياء. ذلك أنّ الرموزَ الثقافية أو الثقافة أو المنظومة الثقافية (اللغة والفكر والدين والمعرفة والقيم والأعراف الثقافية والقوانين والأساطير) هي أكبرُ صفةٍ مميّزةٍ للجنس البشري عن سواه من الأجناس الحية الأخرى؛ وهي أيضًا العناصرُ الحاسمةُ التي أهّلت الجنسَ البشري وحده للفوز بمقاليد السيادة والخلافة في هذا الكون. ومن هذه المعالم الأبجدية للرموز الثقافية ودورها في دنيا الإنسان، تأتي المشروعيةُ القويّةُ لفرضية الرجوع إلى الرموز الثقافية باعتبارها أهمَّ الأساسيات التي تحتاج إليها العلومُ الإنسانيةُ والاجتماعيةُ في كسبِ رهانٍ متينٍ وأكثر مصداقيةً في فهمِ السلوكات البشرية وتفسيرِها.

تفيد الملاحظةُ البسيطةُ بأنّ أفراد الجنس البشري ينفردون بحقيقتين رئيسيتين: ١- بطء كبير في النموّ والنضج البيولوجي مقارنةً بسرعة النموّ والنضج البيولوجي عند الكائنات الحية الأخرى. ٢ - التمتع بمدى حياة أطول من مدى حياة الأغلبية الساحقة للأجناس الأخرى. ولتفسير ذلك يتطلب الأمرُ طرحَ فرضيةٍ واقعيةٍ ثم التحققَ من مدى مشروعية مصداقيتها. وأولُ فرضية واقعية تتبادر إلى الذهن في هذا الصدد هي أنّ الرموز الثقافية تشكّل العاملَ الحاسمَ في كلٍّ من بطءِ النمو البيولوجي الفيزيولوجي، وإطالةِ مدى الحياة عند أفراد الجنس البشري. فعلماءُ البيولوجيا والفيزيولوجيا يؤكّدون أنّ أفراد الجنس البشري يَبْلغون أوجَ نضجهم البيولوجي والفيزيولوجي في سنّ الخامسة والعشرين؛ أما اكتمالُ النموّ في عالم الرموز الثقافية فلا يتمّ إلاّ في سنّ متأخّرة من حياة الإنسان. وهكذا يتّضح أنّ إطالة مدى حياة الإنسان هي التي تعطي الفرصةَ لكسب رهان النموّ والنضج في أثمن ما يَمْلكه البشر وفي أكثر ما يميِّزهم عن الأجناس الأخرى ويُشْعرهم بإنسانيّتهم - ألاَ وهي الرموزُ الثقافية. ويمكن القول بأنّ تميُّزَ المخّ البشري باحتضان منظومة الرموز الثقافية أثّر في هندسة جينات وبيولوجيا الإنسان، والمتمثلة في بطء نموّه البيولوجي. ولا شكّ في أنّ مثل هذا الوزن الكبير لتأثير الرموز الثقافية يعزّز مصداقيةَ قولنا سابقًا بأنّ الكائن البشري هو كائن ثقافي بالطبع. وهذه حيثياتٌ رئيسيةٌ يجب على الباحث في شؤون الثقافة أن يكون ملمّاً بها لكي تزيده بصيرةً في قراءته لأبجدية الرموز الثقافية.

المعالم الخمسة للرموز الثقافية

بالنظر المتعمّق إلى جوهر طبيعة الرموز الثقافية عند الجنس البشري تَبيَّن أنها تتسم بلمسات غير مادية/متعالية/ميتافيزيقية تجعلها تختلف عن صفات مكوّنات الجسم البشري وعالم المادة. ولشرح ما نعنيه باللمسات المتعالية/الميتافيزَيقية للرموز الثقافية، نقتصر هنا على ذكر خمسٍ منها نعتبرها رئيسيةً:

١ - ليس للرموز الثقافية وزنٌ وحجمٌ كما هو الأمرُ في المكوّنات البيولوجية الفيزيولوجية للكائنات الحية وعالمِ المادة الجامدة.

٢ - تتمتع الرموزُ الثقافيةُ بسهولةِ وسرعةِ انتقالها عبر المكان والزمان. يَنْطبق هذا بصورة كاملة على استعمال الفاكس اليوم؛ كما ينطبق على الكلمة المنطوقة والمرسَلة عبر صوت الإنسان أو عَبْر الهاتف والمذياع والتلفزيون والأنترنت. ويَرجع ذلك في المقام الأول إلى ما ورد أعلاه، أيْ نزع عاملَي الحجم والوزن من الكلمة المنطوقة والمرسلة.

٣ - لا تتأثّر الرموزُ الثقافيةُ بعملية النقصان عندما نعطي منها للآخرين، كما هو الأمرُ في عناصر عالم المادة. فإعطاءُ

❖ - عالم اجتماع، جامعة تونس.

الرموز الثقافية تشكّل العاملَ الحاسمَ في بطء النمو البيولوجي وإطالةِ مدى الحياة عند البشر

الآخرين خمسين دينارًا من رأس مالنا وقنطارًا من قمحنا وعمارةً من عماراتنا تُنقص ممّا هو عندنا من ممتلكات مادية؛ أما إذا مَنَحنا الآخرين شيئًا من معرفتنا وقيمنا الثقافية ولغتنا فإنّ ذلك لا يُنقص شيئًا من رموزنا الثقافية هذه.

٤ ـ للرموز الثقافية قدرةٌ كبيرةٌ على البقاء طويلاً عبر الزمان. فاللغة، وهي أمُّ الرموز الثقافية، لها قدرةٌ فائقةٌ على تخليدِ ما يُكتب بها بغضّ النظر عن محتوى المكتوب. أما على مستوى التراث الجماعي للمجموعات البشرية، فإنّ اللغات المكتوبة على الخصوص تمكّنها من تسجيل ذاكرتها الجماعية والمحافظةِ عليها رغم اندثار تلك المجموعات العضوي والبيولوجي ورغم تغييرها للمكان. ولا تقتصر هذه الأبعادُ المتعالية/المتافيزيقية على اللغة المكتوبة فقط، بل إنّ الاستعمال الشفوي للغة يقترن هو الآخر بدلالات مماثلة. أفلا يلجأ البشرُ إلى استعمال الكلمة المنطوقة في تأملاتهم الكونية وتضرّعاتهم وابتهالاتهم إلى آلهاتهم أو إلى أيِّ شيء آخر يعتقدون في أزليته أو قدسيته؟ فبانفرادهم بنوعية اللغة البشرية عن بقية الكائنات الحية الأخرى يستطيعون أن يحرِّروا أنفسَهم من العراقيل المادية لهذا العالم ويقيموا علاقاتٍ وروابطَ مع العالم المتعالي/الميتافيزيقي.

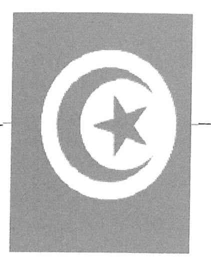
٥ ـ تَمْلك الرموزُ الثقافيةُ قوةً هائلةً تمكّن أصحابَها من الانتصار على أكبر التحدّيات. فعلى سبيل المثال، أَثبتتْ قيمُ الحرية والعدالة والمساواة أنّها رموزٌ ثقافيةٌ قادرةٌ على شحن الأفراد والمجموعات بطاقات هادرة جبّارة. وهذا ما يوحي به قولُ الشاعر العربي التونسي أبي القاسم الشابي: «إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة/فلا بد أن يستجيب القَدَرْ.» فمصدرُ إرادة الشعوب الحقة يَكْمن في عالم الرموز الثقافية؛ أيْ عندما يجْمع الناسُ أمرَهم للدفاع عن الحرية والمساواة والعدل وعن حقهم في الاستقلال واحترام الذات، يصبح ردُّ فعلهم كردِّ فعل القَدَر الذي لا يُبْقي ولا يَذَر. وهذا ما يفسِّر لجوءَ الناس إلى الحديث عن المعجزات في بعض الأحداث الفردية أو الجماعية التي تَدْخل سجلَّ التاريخ بالرغم من عدم توفُّر المعطيات المادية لذلك: إنّها تجلّياتٌ لأثر الرموز الثقافية الحاسم في ميلادِ وتفعيلِ حركية السلوكات البشرية في المجتمعات والحضارات الإنسانية على مرّ العصور.

أمثلة ميدانية

يساعد منظورُنا للرموز الثقافية على طرح يتمتع بدقةٍ أكثر في فهم وتفسير العديد من الظواهر والقضايا ذات العلاقة بالمسألة الثقافية. فدعنا الآن نناقشْ ثلاثَ قضايا تتجلّى فيها معالمُ منظورنا المختلف.

١ ـ التبعية: الكتابات حول مسألة التبعية رَكّزت اهتمامَها على خطر التبعية الاقتصادية وهَمَّشتْ خطرَ التبعية الثقافية على المجتمعات النامية. ويَبْرز هذا التوجه الفكري خاصةً عند المفكرين الماركسيين؛ وما مدرسة «نظرية التبعية» التي نادى بها جوندر فرنك وأتباعُه إلاّ أشهرُ مثالٍ على ذلك. أما منظورنا للرموز الثقافية فهو يرى أنّ تبعية مجتمعات العالم الثالث للمجتمعات الغربية على مستوى المنظومة الثقافية أكثرُ خطورةً من التبعية الاقتصادية لأنّها تُضرّ بأعزِّ ما يَمْلكه الجنسُ البشري وما يميِّزه عن سواه من الأجناس الأخرى. وإذا كانت المنظومة الثقافية هي بيتَ القصيد في تحديد هوية الجنس البشري، وبالتالي في تحديد هوية المجتمعات البشرية، فإنّ تبعيةَ البعض منها ثقافيًا للآخر تُعتبر مُصابًا جَلَلاً لأنّها تَضْرب صميمَ الركائز التي تُقام عليها هويةُ الأفراد ومجتمعاتها، ولأنّ مدة بقاء الرموز الثقافية للمستعمِر القديم طويلةُ العمر في المجتمعات المستعمَرة؛ ومن ثم فإنّ استقلالها اللغوي الثقافي الحقّ أصعبُ بكثيرٍ من استقلالها عن الاحتلال العسكري والهيمنة الاقتصادية.

تشير الملاحظاتُ في دنيا التثاقف بين الأمم والمجتمعات إلى أنّ عنصرَي اللغة والدين يَلْعبان دورًا حاسمًا في تحديد مدى خطر التبعية الثقافية. فتثاقُفُ مجتمعات الوطن العربي مع الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين أفرز



في حين يحتفل التونسيون سنويًا بالجلاء العسكري الفرنسي، لا يكاد يُذكر الجلاء اللغوي الثقافي

نوعين من التبعية الثقافية. فمن جهة، نجح الاستعمارُ الفرنسي ـ المعروفُ بتركيزه على الجانب اللغوي الثقافي ـ في بثّ لغته وثقافتها في بلاد المغرب العربي لا بين النخب وحدها وإنما أيضًا بين عامة الناس؛ فأصبحت الفرنسيةُ لغةَ أغلبية المؤسسات في ظل الاحتلال الفرنسي، بل لغةَ العديد من المؤسسات الوطنية بعد الاستقلال. ونظرًا لأنّ اللغة هي أمُّ الرموز الثقافية جميعًا، فإنّه يجوز وصفُ التبعية الثقافية لمجتمعات المغرب العربي الأربعة (الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا) لفرنسا بأنّها تبعية خطيرة لأنّها تَحْرِم اللغاتِ الوطنيةَ (العربية والبربرية...) من النموّ والاستقلال الكامليْن. ولا يقتصر خطرُ التبعية الثقافية على ذلك، وإنما يمسّ أيضًا قضايا الشعور بالاغتراب الثقافي والتذبذب على مستوى الهوية الثقافية عند الأفراد ومجتمعاتهم. ومن جهة أخرى، كان الاستعمارُ الانجليزي أقلّ اهتمامًا بجوانب الاستعمار اللغوي الثقافي لبلاد المشرق العربي التي سَقَطتْ تحت هيمنته، فلم يبلغْ تعلُّمُ وانتشارُ واستعمالُ اللغة الإنجليزية في مجتمعات المشرق العربي الدرجةَ التي بَلَغتْها اللغةُ الفرنسيةُ في مجتمعات المغرب العربي. ومن هنا الحضورُ البارزُ والتواصلُ لما يسمى بظاهرة «الكتّاب الفرنكوفونيين المغاربيين،» والغيابُ شبهُ الكامل ـ في المقابل ـ لمثل هذه الظاهرة باللغة الإنجليزية بين الكتّاب المشرقيين الذين احتلّتْ بريطانيا بلادَهم. أيْ أنّ اللغة العربية المكتوبة واللهجات العربية المتعددة (القليلةَ الاستعمالِ للكلمات الإنجليزية) حافظتْ على هيمنتها في الاستعمال في مؤسسات تلك المجتمعات المشرقية وفي التواصل بين أفرادها في الحياة اليومية. وهذا يعطي شرعيةً للقول بأنّ التبعية الثقافية لمجتمعات المشرق العربي أقلُّ حدةً وخطورةً من تلك التي تعيشها مجتمعاتُ المغرب العربي.

في ضوءِ ما سَبَقَ يَسْهل فهمُ مشروعية قولنا «إنّ الغزو اللغوي الثقافي هو أخطرُ أنواع الغزو جميعًا.» فالهجوم الشامل على المنظومة الثقافية لشعبٍ ما هو أخطرُ ما يصيبه لأنّه يَضْرب الأركانَ الأساسيةَ الأولى لكيان المجتمع البشري، والتي بدونها تَضْعف قدرتُه على التماسك، ناهيك عن المقاومة، ويَصْعب عليه ـ ويَطُول بالتأكيد ـ التحررُ اللغويُّ الثقافي، وذلك حتى في غياب الآخر الغازي. ذلك أنّ رموز الغازي الثقافية ذاتُ أمدِ بقاءٍ طويلٍ من جهة، وذاتُ حضورٍ شبهِ ميتافزيقي، من جهة أخرى، في المجتمعات المتأثرة كثيرًا على الخصوص بالانتشار الواسع لتلك الرموز الثقافية. أيْ أنّ الحضور المادي، مثلاً، للمستعمِر الفرنسي في مجتمعات المغرب العربي لم يَعُدْ ضروريًا لاستمرار تأثير اللغة الفرنسية وثقافتها في تلك المجتمعات، إذ تنوب عنه النخبُ السياسيةُ والفكرية والشرائحُ الاجتماعية المتعلمة التي لا يزال يهيمن عليها مركّبُ «سموّ» اللغة الفرنسية وثقافتها بعد حوالى نصف قرن من الاستقلال.

ينطبق هذا كثيرًا على حال المجتمع التونسي الحديث. فالنخب السياسية والفكرية والمسؤولون ذوو المراكز الحساسة وأغلبيةُ الشرائح الاجتماعية المتعلمة لفترةٍ ما بعد الاستقلال هي فئاتٌ يَغْلب عليها التعاطفُ مع لغةِ وثقافةِ وإيديولوجيا المستعمِر الفرنسي، أو الغرب عمومًا، أكثرَ من تعاطفها مع اللغة العربية وثقافتها ورؤيتها للحياة. وهذا ما أَطلقنا عليه «ظاهرة التخلّف الآخر.» تُعزِّز هذا القولَ ملاحظتان رئيسيتان:

ـ غيابٌ شبهُ كامل منذ الاستقلال (١٩٥٦) لمصطلح «التحرر/الاستقلال اللغوي الثقافي» من قاموس السياسيين، ومن نقاشِ المفكّرين والعلماء والمسؤولين التونسيين، وحديثِ معظم الفئات التونسية الأخرى. ففي حين يحتفل التونسيون سنويًا بعيدَي الجلاء العسكري والفلاحي للاستعمار الفرنسي من الأراضي التونسية، لا يكاد يُذْكر الجلاءُ اللغويُّ الثقافي، ناهيك عن المناداة به بصوتٍ عالٍ، خاصةً من طرف النُّخَب وأصحاب القرار.

ـ غيابٌ كاملٌ بعد الاستقلال لحملات وطنية توعوية لصالح اللغة العربية (اللغة الوطنية). والحال أنّ علاقة التونسيين المتعلمين بلغتهم الوطنية ليست بخيرٍ بعدَ ما يَقْرب من نصف قرن من الاستقلال.

المنظومة الثقافية السلبية إزاء الآخر مرشّحة لأن تستمرّ إلى أجل غير مسمّى

فَهُمْ لا يستعملونها بالكامل شفويًا أو كتابيًا، ولا يعارضون استعمالَ لغة أجنبية بينهم، ولا يُبْدون اعتزازًا باللغة العربية أو غيرةً عليها، ولا يوجد لديهم شعورٌ عفوي قوي إزاء أولوية استعمالها بينهم، ولا حسٌّ لمراقبة استعمال الكلمات والجمل الفرنسية. وأخيرًا فالتونسيون المتعلمون اليوم يَنْدر أن يعرِّفوا بتلقائيةٍ هويتَهم بلغتهم الوطنية (اللغة العربية)، كما يَفْعل مثلاً الألمانُ والإيطاليون والفرنسيون والإسبان.

تفيد كلُّ تلك المؤشرات اليوم إلى وجود موقف جماعي سلبي لدى الأغلبية الساحقة من التونسيين المتعلمين بالنسبة إلى علاقتهم مع اللغة العربية. ويعود ذلك إلى عاملين أساسيين مترابطين. يتمثل الأول في تأثير الاستعمار الفرنسي في إقصاء اللغة العربية قَدْرَ المستطاع من الاستعمال في المجتمع التونسي، وتعويضِها باللغة الفرنسية، ثم غَرْسِ عقليةِ الاحتقار للغة العربية بين التونسيين المتعلمين وغير المتعلمين. أما العامل الثاني الحاسم فيمثّله التونسيون المزدوجو اللغة والثقافة، أو المفرنَسون، الذين أخذوا زمامَ الأمور في تسيير شؤون البلاد بعد الاستقلال، ولم يستطيعوا في غالبيّتهم ـ نظرًا إلى تعاطفهم الكبير، عن وعي أو عن غير وعي، مع لغة المستعمِر وثقافته ـ التحررَ من مركّب الاستعمار اللغوي الثقافي بحيث يُعْطُون الأولويةَ للغة الوطنية وثقافتها، وذلك بتمكينهما ـ عبر سلسلة من الإصلاحات اللغوية والثقافية والنفسية ـ من كسب رهان عقول التونسيين وعطف قلوبهم. وبعبارة بيار بورديو، فإنّ الموقف التحقيري الذي تَلْقاه اللغةُ العربيةُ بين المتعلّمين التونسين اليوم هو انعكاسٌ في المقام الأول لموقف النخب والمسؤولين ونظام التعليم والمجتمع بصفة عامة من اللغة العربية؛ إنه عبارة عن عمليةِ إعادةِ إنتاج (reproduction).

٢ ـ الازدواجية اللغوية والثقافية: أما الازدواجية اللغوية والثقافية فيُنْظر إليها في العديد من المجتمعات المتخلفة على أنّها عنصرٌ أساسي لنجاح عملية التنمية. ومن ثم يرى المسؤولون في هذه المجتمعات وجوبَ تبنّي نُظُم التعليم عندهم سياساتِ تكوينِ أجيالٍ مزدوجةِ اللغة والثقافة. ولكنْ، على مستوى أول، ليست هناك علاقةٌ ضروريةٌ بين كسب رهان التنمية من ناحية، والازدواجية اللغوية والثقافية من ناحية أخرى. وإنّ إنجاز المجتمع الياباني منذ الحرب العالمية الثانية لمستوًى عالٍ من التنمية والتحديث خيرُ مثالٍ على ذلك. وعلى مستوى ثانٍ، فمن السذاجة الاعتقادُ بأنّ في الازدواجية اللغوية والثقافية بكلّ أصنافها خيرًا كبيرًا كما ترى الأغلبيةُ من النخب وأصحاب القرار والرأي العامّ في عدد كبير من المجتمعات المتخلفة. إنّ مفهومنا للرموز الثقافية يحذِّر بكلّ شدة، مثلاً، من مخاطر الازدواجية اللغوية الثقافية التي تَكُون فيها اللغةُ الأجنبيةُ وثقافتُها صاحبةَ المكانة الأولى في نفوس وعقول وسلوكات مواطني ومؤسسات المجتمعات النامية لأنّ ذلك يهدِّد أمَّ الرموز الثقافية للمجتمع النامي ـ ألا وهي اللغة/اللغات الوطنية ومنظومتها الثقافية. وفي المقابل ترحِّب رؤيتُنا إلى الرموز الثقافية بالازدواجية اللغوية والثقافية التي تحافِظُ فيها اللغةُ الوطنيةُ وثقافتُها على الأولوية والصدارة في قلوب وعقول وسلوكات مواطني ومؤسسات المجتمعات النامية، كما هو الأمرُ في «المجتمعات المتقدمة.» ذلك أنّ تعلم اللغات الأجنبية وثقافتها في هذه المجتمعات يمثِّل فقط وسيلةَ انفتاح على الآخر، لا يُرْبك ولا يَنْسف مناعةَ اللغة الوطنية وثقافتِها، ولا يَخْلق أعراضَ مركّب النقص والتحقير للذات بين المواطنين.

٣ ـ حوار وصدام الثقافات[1]: ما من شك في أنّ قضية حوار/صدام الثقافات هي اليوم من مواضيع الساعة، ويساعد مفهومُنا للرموز الثقافية على المساهمة في فهم وتفسيرِ حيثيات هذا الموضوع. فالاشتراك أو التشابه بين التجمعات البشرية في الرموز الثقافية (أعزّ شيء

١ ـ نفضِّلُ استعمالَ كلمة «الثقافات» بدل «الحضارات» في تحليل مسألة الحوار أو الصدام بين الأمم والمجتمعات؛ إذ إنّ الثقافات هي المؤسِّسة للحضارات وتجلّياتها، بما فيها القدرةُ على الحوار والصدام مع «الآخر.»



سياسة بوش مع عالمنا خيرُ مثالٍ تتجلّى فيه مشروعيةُ تأهُّل أميركا للصدام معنا

يَمْلكه الجنسُ البشري) يعزِّز بالتأكيد من الاستعداد والتحمس والقدرة على الحوار والتفاعل بين تلك التجمعات. واللغة هي أهمُّ عناصر المنظومة الثقافية لفتح أبواب الحوار والتواصل بين الأفراد والمجموعات البشرية. ومن ثم يمكن القول بأنّ حوار الثقافات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي يتطلب من الطرفين معرفةَ لغات بعضهم البعض. وهذا مفقود عند الطرف الغربي نخبويًا وشعبيًا؛ وينطبق هذا أكثر ما يَنْطبق على المجتمع الأميركي، لا في جهله لغاتِ العالم الإسلامي فحسب، بل أيضًا في عدم معرفته اللغاتِ الأجنبيةَ بصفة عامة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ لنخب العالم الإسلامي معرفةً واسعةً ومتمكنةً بلغات المجتمعات الغربية المتقدمة، وفي طليعتها اللغتان الإنجليزية والفرنسية. وبازدياد نسبة التمدرس منذ استقلال المجتمعات الإسلامية، فإنّ انتشار تعلُّم إحدى تلك اللغتين أو هما معًا وغيرهما من اللغات الغربية أصبح واقعًا اجتماعيًا شعبيًا لكثير من فئات تلك المجتمعات. إنّ هذا الواقع اللغوي الشعبي يعزِّز عند المجتمعات الإسلامية هاجسَ التفتح والحوار مع المجتمعات الغربية، وخاصةً الأكثر تقدُّمًا. أما هذه الأخيرة فليس لها ما يحفِّزها على نطاق شعبي واسع على تعلّم ولو لغةٍ واحدةٍ من لغات العالم الإسلامي، ويَقْتصر الأمرُ في أغلب الأحيان على تعلم بعض لغات العالم الإسلامي من قبل عددٍ محدودٍ جدًا من العلماء والمستشرقين والدبلوماسيين ورجال الأعمال.

في ضوء هذه المعطيات، لا يُمْكن الحديثُ عن المساواة في رغبة الطرفين الغربي والإسلامي في الحوار. فالهيمنة الغربية الحالية، وتاريخُ الغرب الاستعماري للشعوب الإسلامية، وجهلُ سواد المجتمعات الغربية لإحدى لغات العالم الإسلامي الكبرى على الأقل، تُضعف كثيرًا من استعداد وقدرة تلك المجتمعات على الحوار التلقائي والتحمس والواعد مع المجتمعات الإسلامية. ومما يزيد الطينَ بلةً هو أنّ هيمنة الغرب العالمية ومصالحه الكبيرة والمتنوعة في العالم العربي والإسلامي تشجِّع الغرب على الهجوم على العالم العربي والإسلامي بدلاً من الحوار معه. وإنّ السياسة الخارجية الأميركية الصِّدامية لإدارة بوش الصغير مع العالم العربي والإسلامي اليوم خيرُ مثال ميداني تتجلّى فيه مشروعيةُ تأهُّل أميركا للصدام مع عالمنا، وتأتي المنظومة الثقافية لإدارته بمثابة عاملٍ حاسم في الصدام لا مع هذا العالم فحسب بل مع المجموعة الدولية قاطبةً.

كما أنّ الحديث عن علاقة العرب المسلمين بالغرب المسيحي يحتاج إلى الإشارة إلى الخلفية التاريخية التي رَبطتْ بينهما. فمن جهة، غزا العربُ المسلمون ما يسمَّى اليوم إسبانيا والبرتغال، حيث أقاموا حُكْمهم وهيمنتَهم قرونًا عديدة، وحاولوا التوسعَ أكثر في أوروبا. ولا شكّ في أنّ المخيال الغربي (منظومته الثقافية) أصبح منذ ذلك التاريخ متوجِّسًا وخائفًا وعدائيًا تجاه العرب المسلمين لكونهم القوة الوحيدة في العالم التي هدّدتْهم في عقر دارهم. ومن جهة ثانية، فقد هُزم العربُ المسلمون في الأندلس وطُردوا منها شرّ طرد، فسجّلوا في مؤلَّفاتهم هيامَهم بالأندلس ولوعتَهم عليها وغضبَهم ممّا تعرّضوا له على أيدي المنتصرين الإسبان المسيحيين، فولَّد ذلك عندهم مخيالاً حاقدًا على الإسبان وعلى الغرب بصفة عامة نتيجةً للحروب الصليبية والاستعمار الغربي لهم في العصور اللاحقة والحديثة.

وعليه، فإنّ المنظومة الثقافية السلبية إزاء «الآخر» عند مخيالي الطرفين (الغرب والعرب المسلمين) مرشَّحةٌ لأن تستمرّ إلى أجل غير مسمّى. ذلك أنّ الرموز الثقافية ذاتُ مدى حياة طويل قد يصل إلى الأبدية، كما أكّدنا في منظورنا أعلاه. ومن ثمّ، فإنّ المعطيات المبيَّنة سابقًا لا تسمح بالتفاؤل للحديث عن توفّر الشروط اللازمة لحوار حقيقي متكافئ فعلاً بين الغرب والعالم العربي الإسلامي، إذ الطرف الغربي هو الأقل تأهلاً اليوم للدخول بطيب نيةٍ ونزاهةٍ وتحمّسٍ في مثل ذلك الحوار.

تونس

الانقلاب الثقافي والسياسي

الصحّ والخطأ في المواقف الجديدة

. منير شفيق * .

نتفهّم!

يستطيع المرءُ أن يتفهّم ما حدث من انقلاب في مواقف النخب اليسارية، عمومًا، في تقويم التجربة الماضية.

ـ فنظام دكتاتورية البروليتاريا أثبتَ فشلَه وتهاوى في معقله الأول، الاتحادِ السوفياتي.

ـ وتغيَّر الموقفُ منه جذريًا في قلعته الثانية، الصين.

ـ ولم يكن حالُ التجارب التي اعتَمَدتْ نظامَ الحزب الواحد، أو أعطت الدولةَ سلطاتٍ استثنائيةً في الاقتصاد والتنمية، كما في السياسة والثقافة، مختلفًا من حيث نتائجه وتقويمه.

ويُمْكن المرءَ أن يتفهّم ذلك الانقلابَ في اعتبار الديموقراطية الدواءَ الشافي لكلّ ما تَشْكو منه مجتمعاتُنا من تخلّفٍ وسلبياتٍ وانتهاكاتٍ لحقوق الإنسان والحريات السياسية، وغيرُ ذلك كثير. ثم قد يتفهّم التخلّي عن «أوهام المجتمع الفاضل،» بمختلف تسمياته، للالتصاق أكثر بالواقع والممكن.

ولكنْ...

لكنّ ثمة وجهًا آخرَ للصورة، أكان في تجربة الماضي أم الحاضر، لا يُمْكن فَهمُ الانقلاب عليه بالموازاةِ مع الانقلابات أعلاه. وهو، أولاً، تقويمُ الدور الذي لعبه الاستعمارُ القديمُ والإمبرياليةُ الأميركية في حياة الشعوب أو في نهب ثرواتها وفرض التبعية عليها، بل وتقسيم بلدانها وتركِ ما لا يُحصى من المشاكلَ الحدودية في ما بين دولها.

فكيف يُمْكن أن يصبح الموقفُ السابقُ من إبادة الهنود الحمر في الأميركيتين، أو من استعباد الأفارقة وتحويلهم إلى رقيق في العالم الجديد، أو من التمييز العنصري، خاطئًا؟

وكيف يُمْكن أن يغدو الموقفُ من حروب الاستعمار والسيطرة على الشعوب، وما صحب ذلك من إباداتٍ وكوارثَ وتدميرٍ لحضارات وثقافات ومن نهبٍ للثروات، خاطئًا أو قابلاً للمراجعة؟!

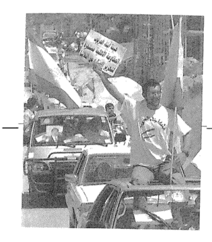
والسؤال يصبح أكثرَ وجاهةً وقوةً عندما يُفتحُ ملفُّ الاجتياح الاستعماري ـ الصهيوني لفلسطين وتشريدِ أكثرية أهلها واغتصابِ أغلبية أرضها ومدنها وقراها وإقامة دولة إسرائيل، وما قُدِّم لها من دعم أميركي بعد ذلك لتكريسها في موقع المهيمِن عسكريًا على الدول العربية مجتمعةً، وما تبع ذلك من توسيع واحتلالات وضربٍ للنهوض القومي التحرري الذي مثّلته الناصريةُ.

فكيف يصبح الموقفُ من كل هذا خاطئًا ويوضَعُ تحت المراجعة، ليس من زاوية الأخطاء في إدارة الصراع، وإنّما من زاوية جوهر الموقف الأساسي وصحّته؟

ثم كيف يمكن أن تُجرى مراجعةُ لاستراتيجية المشروع الإسرائيلي، والمحوّل إلى استراتيجية أميركية أيضًا، تحت مقولات «الاعتراف بالآخر» و«الانفتاح» و«العقلانية» وما شابَهَ؟

وبكلمة، إنّ انقلاب الموقف هنا يمثّل صِدامًا مع حقائق لا يُمْكن دحضُها لا علميًا ومعرفيًا، ولا مبدئيًا وأخلاقيًا، ولا واقعيًا أو تقديرًا لمصلحة عليا أو احتسابًا صحيحًا لمستقبل شعوبنا. فإذا كانت المواقف السابقة على خطإٍ في فهمها للاشتراكية والعدالة الاجتماعية، أو التجربة السوفياتية والشيوعية، أو تجربة دول الاستقلال، أو حتى تجربة الاشتراكية الأوروبية (الأممية الثانية)، أو في دفاعها عن الدكتاتورية أو الشمولية، أو في سكوتها عن قضايا تمسّ الحريةَ وحقوقَ الإنسان... فإنّها لم تكن على خطإٍ في موقفها من الاستعمار القديم، أو الإمبريالية، أو من الصهيونية في فلسطين وفي العالم، أو من الرأسمالية العالمية المتوحّشة، أو ممّا كان يسودُ وما يزال من نظام عالمي ظالم في السياسة والتجارة والاقتصاد والثقافة واحتكار التقدّم الصناعي والعلمي

* ـ كاتب فلسطيني.



الذين قالوا بـ «نهاية التاريخ» فوجئوا حين رأوا الجيش الإسرائيلي ينسحب مكسوراً في جنوب لبنان

والتكنولوجي وفُرَص التخلّف (لا يغيِّر من هذه الحقيقة بعضُ الاختراقات).

كما أنّ المواقف السابقة لم تكن على خطإٍ من حيث المبدأ في انحيازها إلى الفقراء والعدالة الاجتماعية وحرية الشعوب وسيادتها واستقلالها والسعي إلى إقامة نظام عالمي أكثر عدالةً وديموقراطيةً ويحترم حضارات الشعوب وهوياتها وثقافاتها وخياراتها الحرّةَ بعيدًا عن معادلة «الهيمنة التبعية» أو «المركز والأطراف.» ناهيك عن صحة الموقف من سباق التسلّح المجنون ووضع العالم على حافة الدمار، بعد أن زُرعتْ تحته أسلحةٌ فوق تقليدية تكفي لإبادته عشراتِ المرات.

هذا، وأُضيفَ اليومَ إلى كل ذلك سببٌ آخرُ لا يقلّ وجاهةً عن كلّ ما تقدّم، ألا وهو قضايا البيئة والانحباس الحراري واستهلاك الطبيعة الذي تعدّى الخطوطَ الحمرَ للاحتمال والتجدّد. أما أصابع الاتّهام في تحمّل المسؤولية الأولى عن كل هذه الإشكاليات فقد بقيتْ موجَّهةً في الاتجاه نفسه، حيث الاستعمارُ والإمبرياليةُ وقوى الهيمنة في النظام العالمي السائد. فالرأسمالية المتوحّشة لم تَعُدْ خطرًا على شعوب العالم الثالث ولا على الطبقات العاملة في بلدانها أو على التقدّم الإنساني فحسب، وإنّما أصبحتْ أشدَّ خطرًا على الكرة الأرضية، بمصادرها وهوائها، بما في ذلك على البشر والحياة بمختلف تلاوينها.

مراجعة الأشكال... لا الجوهر

وعليه، فإنّ كل ما شُنَّ النضالُ ضدّه كان صحيحًا من حيث الأساس والجوهر، وإنْ وَجبت المراجعةُ في **أشكال** هذا النضال لا من ناحية الانحياز إلى المظلومين والفقراء والشعوب المضطهَدة والعدالة الاجتماعية والإنصاف العالمي، ولا من ناحية الانحياز إلى الطبيعة والبيئة والوجود الإنساني. فالتخلّي عن هذيْن الانحيازيْن وما يَصْحبه من بلادةِ ضمير يشكّل كارثةً أخلاقيةً بالنسبة إلى الفرد.

ولهذا أخطأ الذين خَلَطوا ما كان صحيحًا وعادلاً وحقًّا في نضالهم، بما كان وهمًا أو خللاً في ما كانوا يؤيِّدون أو يريدون الوصولَ إليه. وهذا ما قاد بعضَهم إلى الانتقال إلى الجانب الآخر من الجبهة ـ وهو ما يقتضي في ذاته ضرورةَ التصدّي له والنضال ضدّه، لا كما كان في السابق فحسب، وإنّما بصورة أفضل وأكثر جدةً وإبداعًا أيضًا. فالتاريخ لا ينتهي بانتهاء أحلام هؤلاء البعض، أو بانتهاء المعسكر الاشتراكي أو دول تجربة الاستقلال. ذلك لأنّ أسباب الصراع والتدافع التي وَلّدتْ تلك التجاربَ بنجاحاتها وإخفاقاتها ما زالت قائمة، بل أشدّ مما كانت عليه في السابق. وقد أُضيف إليها ـ كما ذكرنا ـ الخطرُ على الوجود الإنساني، لا بسبب الأسلحة فوق التقليدية فحسب وإنّما أيضًا، وبصورة أشدّ إلحاحًا، بسبب ما يَرْتكبه النظامُ الرأسمالي العالمي، لاسيّما في عهد العولمة، من جرائم بحقّ الأرض والبيئة، عناصرَ ومناخًا وتجدُّدًا.

ولهذا فإنّ الذين قالوا بنهاية التاريخ كما قالها فوكاياما، أو كما قالوها هُمْ حين وقفوا ضدّ كل ما كانوا عليه بلا تمييزٍ بين ما كان خاطئًا وما كان صحيحًا ولم يزل، منحازين إلى الجانب الآخر من الجبهة، أقول إنّ هؤلاء فوجئوا حين رأوا الجيشَ الإسرائيلي ينسحب مكسورًا من جنوب لبنان، أو وهم يَرَوْن أطفالَ فلسطين وشبابَها وفتياتِها ينتفضون ويقاومون أكثر من أربع سنواتٍ متواصلة، أو يَشْهدون التظاهراتِ المليونية في العواصم الأوروبية والعالمية ضدّ العدوان على العراق، أو الحركات الجديدةَ المناهضةَ للعولمة والمدافعة عن البيئة، أو نتائجَ الانتخابات المنحازة إلى الفقراء في عدد من بلدان أميركا اللاتينية (تغطّي ثلاثةَ أرباع سكّانها)، أو ما يَشْهده العالمُ الإسلامي من نموٍّ للحركات المعتدلة ومن صحوةٍ شبابية وروحٍ جهاديةٍ ضدّ الاحتلال (ودعك من ظاهرةِ التطرّفِ والمغالاةِ والإرهاب ـ

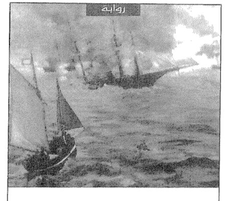
كلّ ما شَنَّ النضالُ ضدّه
كان صحيحاً من حيث الجوهر،
وإن وجبتْ مراجعةُ أشكاله

فهي متخبّطةٌ ومعزولةٌ وآفلةٌ وغيرُ قابلةٍ للاستمرار).

أما من الجهة الأخرى فلا بدّ لهم من أن يتفاجأوا أيضًا وهم يروْن اتساعَ وتفاقُمَ التناقضات ما بين الدول الكبرى، وما راحت تعانيه الولاياتُ المتحدة والدولةُ الإسرائيلية من عزلةٍ دوليةٍ لاسيّما من جانب الرأي العامّ الغربي نفسه. ولعلّ إمساك القوى الأكثر تطرّفًا وعدوانيةً بخناق الولايات المتحدة الأميركية لَيشكّلُ دليلاً على أنّ الرأسمالية الأميركية الأشدَّ توحُّشًا في مرحلة العولمة لجأتْ إلى القوى الأكثر عسكريةً وفاشيةً وصهيونيةً لضبط إفلات العالم من بين يديها بعد أن حَسبتْ أن أصبح طوْعَ بنانها معلنةً «نهايةَ التاريخ.»

على أنّ التاريخ فتَحَ صفحةً جديدة بعد انتهاء الحرب الباردة وعالمِها، كُتبتْ سطورُها الأولى على غيرِ ما تشتهي الرأسماليةُ الأميركية المتوحّشة. فجاء المحافظون الجدد لإنقاذ موقفٍ غيرِ قابل للإنقاذ. وهذا يفسِّر لماذا عادوا، في ولاية بوش الثانية، يَخْطبون ودَّ «أوروبا القديمة،» ويبعثون الحياةَ في حلف الناتو. وهذا كلّه يشكّل شهادةً على فشل الاستراتيجية السابقة أو محاولة لتعديلها عبثًا. لكنّها شهادةٌ على أنّ نضالات المرحلة السابقة لم تكن كلُّها خاطئةً، ولا رمي أعلام الكفاح ضدّ الهيمنة الأميركية عالميًا وضدّ مشروعها الصهيوني في بلادنا يُمْكن أن يسوَّغ أو يدافَع عنه... ولو خلَط نفسَه بالديموقراطية والليبرالية والحداثة!

عمّان



سيرة تحوُّلات مدينة بيروت بعد خروج الاحتلال المصري سنة ١٨٤٠.

ماذا يجري لعائلة عبد الجواد أحمد البارودي؟ ماذا تصنع الأعوام بصاحب الذراع الواحدة وبأبنائه الثلاثة وبناته السبع وزوجاته؟

سيرة عائلة مندثرة وسيرة مدينة غريبة الحظوظ. ماذا تكون بيروت؟ ملاذَ نازحين ولاجئين، أم برجَ بابل على حافة البحر، أم جنّة عساكر، أم سدوم وعمورة؟ وماذا يُخفي المستقبل؟

الجزء الثاني من الملحمة.

السَّلاميُّون العرب الجُدُد

مُغَفَّلون أَمْ يَسْتَغفلون؟

. فيصل القاسم * .

أحيِّيكم!

لعلّ أكثرَ الشعارات بروزًا لدى مَنْ يسمَّوْن بـ «الليبراليين العرب الجدد» هو شعار «نبذ العنف والقوة،» والتشهيرُ بالإرهاب والإرهابيين واللاجئين إلى الحديد والنار. فقلّما تخلو مقالةٌ لليبراليٍّ عربيٍّ جديد من إدانة الجماعات الإسلامية والمقاومة في العراق وفلسطين، كما لو أنّ مناهضةَ العنف والدعوةَ إلى الاستسلام الكامل أصبحتا مقرّرًا صحفيًا مفروضًا في الكتابات الليبرالية العربية الجديدة لا تكتمل مقالاتُهم من دونه. والويل كلّ الويل لمن لا يشنّع بالعنف والداعين إليه في مقدِّمة أيِّ مقالة «ليبرالية» يكْتبها، حتى وإنْ كان موضوعَها زراعةُ قصب السكّر في كوبا أو صناعةُ الفخّار في جنوب غرب اليابان أو حتى ترويضُ الأُسود في غابات الأمازون.

إنّني أحيِّي هذه الإنسانية المفرطة لدى زملائنا الليبراليين، لا بل أقف إجلالاً وإكبارًا لهذه «الغاندية» العربية الجديدة وهذا الحرص العظيم على أرواح الحيوانات والطيور الأليفة والناس وممتلكاتهم وحلِّ النزاعات بالطرق السلمية الحضارية ومخاطبةِ الآخر بالحوار والكلام الجميل بدل الرصاص والبارود والسيارات المفخَّخة. لا أستطيع أن أثني بما يكفي على هذه الروح المسالمة والرومانسية الإنسانية العالية لدى أصحاب البيانات العالمية المطالبة بمكافحة الإرهاب وملاحقةِ مروِّجيه، خاصة وأنّنا شهِدْنا في الآونة الأخيرة إسهالاً منقطعَ النظير من البيانات الليبرالية الداعية إلى تعميم ثقافة السِّلْم والسلام وإدانةِ العنف ومطاردةِ كلِّ مَنْ يتفوّه بكلمةٍ يتيمةٍ من كتّابٍ وفقهاءَ لصالح المقاومة بأشكالها كافةً.

ولعلّنا قرأنا ذلك البيانَ الشهيرَ الموجَّه إلى الأمم المتحدة الذي وَقّع عليه الآلافُ من زملائنا المُتَلَبْرِلين يطالبون فيه المنظمةَ الدولية بتشكيل محكمةٍ خاصةٍ لمحاكمة بعض رجال الدين الذين تجرّأوا وطالبوا بمقاومة المحتلّين في العراق وغيره. لا أدري لماذا يحاول هذا الرهطُ من المثقفين «الطُّهُوريين» تغطيةَ عين الشمس بغربال. فإمَّا أنهم سذَّج، وإمّا أنّهم يَعْرفون البئرَ وغطاءها لكنّه مطلوبٌ منهم أن ينزعوا ما تبقّى من نخوةٍ وحميّةٍ لدى هذا الشعب العربي وحكوماته التي بات مطلوبًا منها التخلّي حتى عن سكاكين مطابخها... ناهيك عن أسلحتها الخفيفة.

لا غبار أبدًا على ضرورة تخليص هذا العالم من الإرهاب والعنف والدموية وجعلِهِ «جمهوريةَ أفلاطون» وادعةً مسالمةً. لكنْ، باللّه عليكم، لماذا تدينون الضحيةَ التي تحاول يائسةً الذودَ عن نفسها، وتُغْضّون الطرفَ عن سادة العنف والقوة في هذا العالم؟ مَن الذي يَمْتلك ترساناتٍ تقليديةً ونوويةً خياليةً ووسائلَ إرهاب عَزّ نظيرُها في التاريخ: «الإرهابيون العرب،» أم القوى التي تروِّع العالمَ من أقصاه إلى أقصاه بما تَوَفَّر لها من أدوات السيطرة والهيمنة والإخضاع والترويع والترهيب؟ لماذا تكرِّرون قصةَ الذئب والحَمَل الشهيرة، حيث يقوم الذئبُ بتعكير مياه النبع من أعلاها ثم يَتّهم الحَمَلَ المسكينَ القابعَ في أسفل النبع؟

الصورة الكاملة

لا أريد طبعًا أن يُفْهم من كلامي أنّ كل الجماعات العربية هي حملانٌ وديعة؛ على العكس من ذلك: هناك جماعاتٌ إرهابيةٌ شنيعة لا يُمْكن أيَّ عاقلٍ أن يباركَ أفعالَها. لكنْ بدلاً من التركيز فقط على كلّ ما هو إرهابي عربي لا بدّ من توضيح الحقيقة للشعوب حتى تكتملَ الصورةُ والتوقف عن دعوتها إلى الاستسلام المجاني.

هل قرأ إخوتُنا الليبراليون العربُ الجدد التاريخَ؟ بالطبع. لماذا يتجاهلون، إذن، أنّ التاريخ منذ بدْءِ الخليقة لم يكن سوى سلسلة فظيعة من الحروب والمجازر والاقتتال والتصادم والعنف والقوة؟ وقد أَظْهرتْ دراسةٌ أجراها أحدُ معاهد حقوق الإنسان أنّ ١٥٪ فقط من التاريخ

* - إعلامي عربي. مُعِدّ ومُقدِّم برنامج «الاتجاه المعاكس» في قناة الجزيرة.

القوة هي مصدر كل السلطات، فلا مفرّ من إعادة البناء وشحن كياناتٍ بشريةٍ قادرةٍ على المواجهة

الإنساني شَهِدَ سلامًا وهدوءًا، بينما اتسمت فترةُ الـ ٨٥٪ الباقية بالصراعات العنيفة والحروب المدمِّرة. ولو كان هناك حوار فعلاً بين الأمم والشعوب لما شَهِدَ التاريخُ أنهارًا من الدماء. جميل أن ندعو إلى الحوار وأن ندين الداعين إلى العنف، لكنْ متى كان الحوارُ سيِّدَ الموقف عبر تاريخ البشرية؟ وهل تقدَّمَ العالَمُ أصلاً إلا بالقوة والعنف؟

يقول المفكر المصري أحمد عبّاس صالح: «ما إنْ تقرأ كتابًا في التاريخ حتى تجد أنّ محوره هو الحروبُ وفرضُ الرأي أو المصلحةِ بالقوة، حتى لو كان الكِتابُ عن تاريخ العِلْم أو تاريخ الاقتصاد وربما الفنون أيضًا. ولم تَعِش المجتمعاتُ البشرية حتى اليوم على ما تُنْتِجه أو تبتكره من منجزات الحياة من طعام وشراب وضروريات، بل على ما تتطلّع اليه في أيدي الآخرين. وما من نقلةٍ تاريخيةٍ من نظام إلى آخر، أو تقدُّم في هذا الجانب او ذاك، إلا وتجد أنّه كان مصحوبًا بالقوة. والتجارة، والاقتصاد بشكل عام، لم يتطوّرا أو يتقدما في أيّ بلد إلاّ وهما مصحوبان بالجيوش والسفن الحربية التي تَجُوب البحارَ لقمع الآخرين وفرضِ التجارة عليهم أو سلبَ الثروات التي يمتلكونها.»

إنّ تاريخ الغرب «الليبرالي» الحديث هو تاريخُ الحروب الصغرى والكبرى، وأوروبا هي القارةُ الوحيدةُ التي أشعلتْ حربيْن عالميتيْن في قرن واحد راح ضحيتَهما مئاتُ الملايين من البشر. فلماذا يتناسى زملاؤنا من الليبراليين العرب الجدد أنّ العنف عنصر أساسي في التاريخ؟ لقد عبّر الكتّابُ والفنانون طوال نصف القرن الماضي عن أحلام بالسلام والتضامن الانساني، مع أنّ الدول الكبرى كانت تَخُوض سباقًا رهيبًا من أجل التسلح، بما في ذلك الأسلحةُ الفائقةُ الدمار، حتى أصبحت الدولتان العظميان ـ وهما في ذلك الوقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ـ قادرتيْن على تدمير الكرة الأرضية أكثرَ من مرة.

ولا يُمْكننا إلاّ أن نتفق مع أحمد عباّس صالح عندما يقول: «لو استعرضنا ظروفَنا في العالم الثالث نجد أنّه طوال قرن تقريبًا ـ خاصةً في الشرق الأوسط ـ أُجهِضت الروحُ الحربية. فعندما صُفِّيتْ دولةُ محمد علي في مصر، وانكسرتْ بعد ذلك بقليل ثورةُ الجيش المصري التي قادها أحمد عرابي، لم يُقلَّص عددُ الجيش وأسلحته فحسب بل قُلِّصت النزعةُ الحربيةُ [أيضًا]. وربما نستطيع القولَ بأنّ النخوة أيضًا قد انتُزعت انتزاعًا بسبب إرهاب القوة وأساليب الإذلال المختلفة. وصار الذي تَمْلكه شعوبُ المنطقة هو التظاهرات المدنية المجرَّدة من أيّ سلاح. وكم استُشْهِد شبابٌ هذه المناطق في المظاهرات، ومضى وقتٌ طويل لم يَدْخل فيه جيشٌ من هذه الجيوش أيَّ معركة حربية.»

لماذا يُطْلَبُ منّا، نحن العربَ والمسلمين، أن نستكينَ وننزويَ كالرهبان أو أن نصبحَ قطعانًا من الحملان الخانعة، بينما يواصلُ المجتمعُ «المتقدِّم» ـ الذي يروِّج الليبراليون العرب الجدد قيمَه وعقائده ـ شَحْذَ الميول العدوانية لدى أبنائه والعنايةَ ببنائهم الجسدي وقواهم العضلية وتنميةَ نزعات الفضول وحبِّ المغامرة والاندفاع إلى المخاطر؟ وكم من حوادثَ مميتةٍ في سباق السيارات أو ألعاب القوى العنيفة والرحلات المحفوفة بالمخاطر، ولكنّ هذا لم يَجْعل المجتمعَ «الليبراليَّ المتقدم» يوقف هذه الألعابَ والنشاطات أو يحدّ من هذه الميول. وإلى اليوم يَصْعب أن يتجمّع جمهورٌ من هذه الدول المحاربة في أيّ مكان من دون أن تَحْدث مصادماتٌ تؤدِّي في أحيان كثيرة إلى الجراح المميتة، ويتجلّى فيها العنفُ بأقصى درجاته، كما شهدنا في جماهير مشجِّعي كرة القدم في بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية المحاربة الأخرى.

لقد كانت الديانةُ المسيحيةُ التي تشكّل الخلفيةَ الثقافيةَ للمجتمعات الليبرالية المتقدمة تدعو إلى التسامح والغفران والسلام («مَنْ ضَرَبَكَ على خَدِّك الأيمن...»). ولكنْ في فورات الإيمان القديمة التي عاشتها بعضُ الدول الأوروبية كان القتلُ والحرقُ والتعذيبُ والإبادةُ العرقيةُ أحيانًا جزءًا من الإيمان العميق باعتباره جهادًا ضد الكَفَرَة المخالفين للدين، أو المارقين من



من الذي يَمْلك ترسانات خيالية: «الإرهابيون العرب» أم القوى التي تروّع العالم من أقصاه إلى أقصاه؟

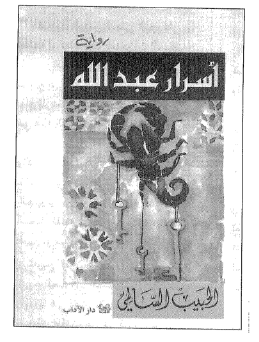
أبناء الديانة المسيحية نفسها. أما عن الحروب باسم «ديانة السلام والمحبة» فحدِّثْ ولا حَرَج.

نعم لم يكن الأمرُ مقصورًا على المسيحيين الأوروبيين أو الغربيين؛ فقد شارك الجنسُ البشريُّ كلُّه بمختلف عقائده في تلك النزعة العدوانية بغرض التوسع في الثروة أو السلطة. ذلك أنّ خصالَ العنف أو غرائزَ التسلط هي الأصلُ الفطريّ الذي قد يَبْحث عن مبرِّر عقلاني او أخلاقي عندما تُعْوزه الحاجةُ إلى ذلك. فهل ثمة خطأٌ في الثقافة السائدة في مجتمعات العالم الثالث وفي المنطقة العربية بصفة خاصة؟ وما الذي يجب عملُه؟ بالطبع من حقنا أن نتساءل: هل القوة بأشكالها المختلفة، هي القانون الأساسي الذي يَحْكم مسيرةَ الجنس البشري إلى اليوم؟ واذا كان الأمرُ كذلك، فماذا على شعوب العالم الثالث أن تفعل؟ هل عليها أن تعيدَ تربيةَ أبنائها على أساس مبدإ القوة والعنف، كما يتساءل صالح؟

لا مفرّا

إنّ شواهد عديدة هذه الأيام تبيِّن لنا أنّ القوة هي مصدرُ كلّ السلطات، وأنّ العنف هو العنصرُ الملازمُ لكل حركة في التاريخ البشري. وإذا كان الأمر كذلك فلا مفرّ من إعادة البناء وشحذِ كياناتٍ بشريةٍ قادرةٍ على المواجهة والتصدي، بدلاً من الدعوة إلى مطاردة المقاومين وتقليم أظافر المتململين وإخصاءِ ما تبقّى لنا منَ فحول. وعندما يصبح العالمُ قريةً وادعةً تَنْعم بالهدوء والسكينة والخير والسلم وتختفي العقبانُ والكواسر، فلا ضيْرَ عندها من مطالبة الأمم المتحدة بتشكيل محكمة خاصة، لا بل محاكم قراقوشية في كل قريةٍ لملاحقةِ ومحاكمةِ حتى المعلِّمين والمعلِّمات الذين يَضْربون التلاميذَ على مؤخِّراتهم!

قطر



الحبيب السالمي روائي تونسي. صدرت له ستُّ روايات ومجموعتان قصصيتان. حاز جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٨ عن مجموعته، مدن الرجل المهاجر. كما فازت روايته، عشاق بيّة، الصادرة عن دار الآداب بجائزة لجنة التحكيم لـ «كومار» للرواية في تونس عام ٢٠٠٢. تُرجمتْ بعضُ رواياته إلى اللغتين الفرنسية والألمانية.

رفضاً للتمويل الأجنبي للنشاط الأهلي

موقف جمعية أنصار حقوق الإنسان بالإسكندرية

. عمر السباخي
وأشرف البيومي * .

تساؤلات عن التمويل الأجنبي

أصبحتْ قضيةُ التمويل الأجنبي للجمعيات الأهلية، ولاسيما منظّماتُ حقوق الإنسان في مصر والعالم العربي بل وفي العديد من دول الجنوب، موضوعًا ساخنًا للحوار. وتَبْرز أهميةُ الموضوع عندما يتّضح لنا كيف تستغلّ الإدارةُ الأميركية وحلفاؤها شعاراتِ «حقوق الإنسان» و«نشر الديموقراطية» لممارسة المزيد من الضغوط على حكوماتٍ «معتدلة»، مستغلّةً اعوجاجَها لمزيدٍ من الابتزاز ولفرض مواقفَ مذلّةٍ أمام شعوبها، أو لإزالة حكوماتٍ وقياداتٍ منتخَبةٍ ديموقراطيًا. والأمثلة على الممارسة الأخيرة كثيرة، ومنها:

ـ المحاولاتُ الفاشلةُ لإزالة حكومة هوجو شافيز الشعبية في فنزويلا عن طريق الانقلابات العسكرية أو تشجيع وتمويلِ قوًى داخليةٍ لاستغلال الدستورِ من أجل عزله.

ـ احتلالُ العراق عامَ ٢٠٠٣ ومحاولةُ إخضاع شعبه بارتكاب أبشع الجرائم وأكثرها انتهاكًا لحقوق الإنسان.

ـ إسقاط القوات الأميركية حاكمَ هايتي المنتخَبَ ديموقراطيًا أرستيد عامَ ٢٠٠٤، بالتعاون مع فرنسا وكندا، وباستخدام قوًى محلية مناهضة للديموقراطية، بل وأفرادٍ معروفين بانتهاكهم الصارخ لحقوق الإنسان، وبالتضامن مع رجال أعمال أميركيين...

وكلّ ذلك يتمّ تحت شعارات التحرير والبناء ونشر الديموقراطية.

كيف يُمْكن إذًا أن يصدِّق عاقلٌ أنّ الإدارة الأميركية يمكن أن تموِّل منظماتٍ من أجل الديموقراطية وحماية حقوق الإنسان؟ وكيف يمكن أنْ نتصوّر أنّ الاتحاد الأوروبي صادقٌ في دفاعه عن هذه الحقوق، حين يَصْمت إزاء الجرائم البشعة التي ترتكبها حليفتُه إسرائيل كلَّ يوم؟ أليس من المنطق أن يكون هناك موقف فعّال وواضح إزاء هذه الجرائم قبل التشدّق بنشر الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان؟ وكيف نفسِّر التمويلَ الأوروبي لهذه الأهداف النبيلة إلاّ بكونه توزيعَ أدوارٍ لتحقيق الأهداف نفسها، وإنْ بأسلوبٍ أكثرَ ذكاءً وأقلَّ فجاجةً؟

لقد تعرَّضتْ جمعيّتُنا لإغراء التمويل الأجنبي في فترة مبكّرة من نشأتها في منتصف السبعينيات، لكنّها رفضتْه في حسم وإصرار. وكلّما طُرح الموضوعُ أعاد مجلسُ إدارة الجمعية نقاشَه بموضوعية وجدّية، وانتهى دائمًا إلى رفض التمويل الأجنبي أيًا كانت مصادره. والأمرُ بالنسبة إلينا ليس مسألةَ انغلاقٍ فكري، خصوصًا أنّ الذين يحذِّرون من مغبّة التمويل الأجنبي ويرفضونه هم في الوقت نفسه من دعاةِ التحالفِ مع كل القوى الشعبية العربية والدولية المناهضة للهيمنة والعنصرية والداعية إلى احترام حقوق الإنسان في فلسطين والعراق ومصر وأمريكا ذاتها وفي كل مكان. كما أن المسألة ليست مجردَ التشبُّث بموقف مبدئي، رغم أهمية ذلك.

لقد استند رفضُنا للتمويل (رغم حاجتنا الملحّة إلى الدعم المالي) إلى أسباب منطقية في بداية الأمر، ثم دَعَمتْه حقائقُ موضوعيةٌ ونتائجُ عمليةٌ متراكمة. وكلّ ذلك أكّد صحّةَ موقف الجمعية الرافض للتمويل الأجنبي، والإصرار على الطريق الصعب والصحيح في الاعتماد على التمويل الأهلي (رغم محدوديّته بسبب حصار أجهزة الأمن). وقبل أن نوجز حيثيات رفضنا للتمويل الأجنبي نرى من الضروري أن نبحث قليلاً في منهج معالجة القضية التي نحن بصددها.

فعلى سبيل المثال، هل نتناول المسألةَ جزئيًا بأن نشيرَ إلى عنت الحكومات التي تضع كافةَ العقبات أمام عمل أهليّ حقيقي، لكي نَخْرج بنتيجة مريحة وهي أنّه لا سبيل إلاّ التمويل

* ـ رئيس الجمعية المذكورة، ونائبُ رئيسها، على التوالي.

كيف يمكن أن يُصدِّق عاقل أنّ الإدارة الأميركية، التي تنتهك حقوق الإنسان في العراق وغيره، يمكن أن تموّل منظمات من أجل حقوق الإنسان؟

الأجنبي؟ وهل يكون هدفُنا قاصرًا على بعض الإنجازات هنا أو هناك، دون مراعاة للوسيلة التي نَسْلكها؟ ألا يشكّل هذا الأسلوبُ إهمالاً كبيرًا لما يَخْلقه التمويلُ الأجنبي من ديناميكية تؤدّي إلى التبعية للقوى المموِّلة الآن أو لاحقًا، ناهيك عن الخضوع لبرنامج أولوياتها الذي قد يتناقض مع أهدافنا تمامًا، حتى وإنْ تلاقت الأهدافُ الجزئيةُ شكليًا؟ أليس من المهمّ الأخذُ في الحسبان دورَ المنظمات المموِّلة في احتواء بعض المثقفين الوطنيين، وما يؤدّي ذلك من تفتيتٍ لأيِّ نواة تَجْمعهم؟ أليس جليّاً أنّ القيادات التي تَبْرز على الساحة من خلال التمويل الأجنبي تَخْتلف في نوعيتها عن تلك التي تَظْهر من خلال العمل الأهلي التطوعي؟ ألا يمثِّل هذا اختراقًا حقيقيًا للمجتمع وقلبًا للأوضاع الصحيحة، حيث تَبْرز القياداتُ الملتصقةُ بالجماهير من خلال العمل التطوعي الأهلي لا العمل المدفوع الأجر أجنبيًا؟ ومَن الذي يقيِّم فائدةَ ومساوئَ التمويل الأجنبي لمنظمةٍ ما؟ وهل يُمْكن قادةَ هذه المنظمات أن يقوموا بذلك، أم أنّ هناك تناقضًا صارخًا في المصلحة؟ وهل صحيح أنّ هناك تباينًا أساسيًا بين أهداف الجهات المموِّلة المختلفة ، مثلاً بين التمويل الأميركي والأوروبي؟

أسباب موضوعية للرفض!

إنّه من السهل أن يُتَّهم مَنْ يثير مثلَ هذه التساؤلات بالفكر التآمري، وذلك لتتفيه المواقف ونبذِها وللهروبِ من البحث في هذه التساؤلات. القضية ليست مسألةً متعلقةً بأمانةِ الذين يحصلون على التمويل، ولا بمدى نفوذ ونوعية قيادات المنظمات المموِّلة، ولا حتى ببعض الفوائد الظاهرة والمباشرة المتعلِّقة بنشاط هذه المنظمات، ولا أيضًا بمقارنة الجهات المموِّلة بعضها ببعض من أجل تفضيل هذه على تلك. إنّها مسألة مرتبطة بمدى الإضرار بالمجتمع من قِبل قوًى تسعى إلى الهيمنة عليه من خلال تبنّي منظّماتٍ تابعةٍ لها (على الأقلّ من حيث التمويل والبرامج) وعن طريق إضعاف العمل الأهلي الوطني المستقلّ. وهنا تلتقي القوى المهيمنةُ المحليةُ مع قوى الهيمنة الأجنبية في هذا الهدف، ولكنّها تختلف بشدة مع الأخيرة في محاولاتها إضعافَ الدولة وإرغامَها على قبول هذه المنظمات. وفي المقابل لا تكفّ الحكوماتُ المحلية عن محاولاتها احتواءَ هذه المنظمات، كما حدث مؤخّرًا مع إشراك بعضها في المجلس القومي لحقوق للإنسان الذي شكّلته الحكومةُ المصريةُ.

إنّ تبنّي قضايا هامّة وجذّابة مثل حقوق الإنسان، والتمييز الطائفي، وحماية حقوق مجموعات عرقية مثل النوبيين، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل،... من أجل النفوذ إلى المجتمعات لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، قد أثْبت نجاحَه وفعاليتَه. ولطالما استخدمه المستعمِرُ سابقًا، ويستخدمه الإمبرياليون الجدد بكفاءة عالية، بالتعاون مع الليبراليين المحليين الذين يُطْلق عليهم أحيانًا «المارينز العرب.» ويستطيع القارئ أن يراجع على سبيل المثال تاريخَ الصندوق القومي (الأميركي) للديمقراطية كما جاء على موقع الصندوق نفسه: www.NED.org والذي سننقل منه ترجمةً لبعض المقتطفات في آخر هذا المقال.

إنّ الأسباب الموضوعية لرفضنا التمويلَ الأجنبي هي الأسبابُ عينُها التي جَعَلَتْنا نحذِّر من مغبّةِ ما يسمّى بـ «المعونة الأميركية» الملتصقة باتفاقات كامب دايفيد منذ ربع قرن، وها نحن نجني ثمار هذه السياسة الحمقاء: تراجعًا شديدًا لاستقلالنا الاقتصادي والسياسي والأمني، ومعاناةً معيشيةً للسواد الأعظم من الشعب المصري في حين جَنَتْ قلّةٌ ثرواتٍ طائلةً وهَرَّبت أموالاً كبيرةً إلى الخارج. ومن المستغرَب أن يسوِّق دعاةُ التمويل الأجنبي اعتمادَ الدولة على المعونة الأجنبية لتبرير حصولهم على التمويل الأجنبي. فمن البدهيات أنّ مَنْ له

• عـــمـــر الســـبـــاخي
وأشـــرف البـــيـــومي •

الجمعيات المموَّلة أجنبيًا تُقْحم قضايا تعتبرها المجتمعاتُ المموِّلة مهمةً، بعكس مجتمعاتنا

السيطرةُ المالية واليدُ العليا في تمويل المنظمة **هو** الذي سيَفْرض أولويّاته وأجندتَه على نشاطها، مهما كان دهاءُ وحسنُ نوايا القائمين على تلك المنظمة. وقد لا يكون ذلك بصورة مباشرةٍ آنيةٍ أو بدرجةٍ كاملة، وإنما سيجيء الوقتُ الذي تصبح فيه أجندةُ الطرف المموِّل في قائمة نشاط المنظمة. وبذلك تَضيعُ القضايا الملحّةُ التي ينبغي أن يدور حولها نشاطُ المنظمة، وتتصدّرُ النشاطَ أولوياتٌ هامشيةٌ ـ بل ربما يتحوّل النشاطُ إسقاطًا من مجتمعات أخرى ذاتِ ظروفٍ أو خصوصياتٍ مختلفة.

وقد ظَهَرَ هذا الخطرُ جليًا في نشاطِ بعض جمعيات حقوق الإنسان المموَّلة أجنبيًا، إذ أَقْحمتْ على المجتمع قضايا تَعْتبرها المجتمعاتُ المموِّلةُ مهمةً، بعكس مجتمعاتنا، مثلَ حقوق المثليين. كما أنّها تناولتْ قضايا أخرى لا شكّ في أهميتها مثلَ حقوق المرأة، ولكنْ من منظور ضيّق اختزاليّ، بدلاً من اعتبارها جزءًا من قضية مجتمعٍ يعاني **كلُّ** أفراده من انتهاكات خطيرة لحقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. إنّ خطورة هذا المنهج تَكْمن في تفتيت قضايا المجتمع بعيدًا عن المعالجة الشاملة، وبذلك تغيب جوانب أساسية مثل المسار الاقتصادي أو نهج التبعية لقوى الهيمنة الأجنبية. كما تَكْمن في تشتيتِ جهودِ المهتمّين بالعمل العامّ، ومنع بلورة الكتلة الحرجة اللازمة لقيادةِ تغييرٍ حقيقي.

والأخطر من ذلك أنّ بعض المنظمات المموَّلة أجنبيًا انصاع إلى توجيهات أجنبية، فشَجَبَ العمليات الاستشهادية واعتَبَرَها انتهاكًا لحقّ من حقوق الإنسان. بل وحاولتْ بعضُ هذه المنظمات تعويقَ مساواة الصهيونية بالعنصرية في مؤتمر ديربان عامَ ٢٠٠٢. وهذا يَفْضح بعضَ أهداف هذه المنظمات وأولوياتها. كما أنّ بعض قادة المنظمات المموَّلة أجنبيًا سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا أداةً دعائيةً في يد مسؤولين في الإدارة الأميركية التي تَنْتهك حقوقَ الإنسان في العراق كلَّ يوم ـ وفضائحُ أبو غريب ما زالت ماثلةً في الأذهان.

ولا بد أن نشير أيضًا إلى أنّ التمويل الأجنبي الذي لا يتميز بالشفافية أو المحاسبة المالية الجادة يَفْتح المجالَ للانحراف المالي. فضلاً عن أنّه يتيح الفرصةَ للاجتذاب المالي لشخصياتٍ معروفةٍ بوصفهم مستشارين وغيرَ ذلك، وإلى دعوة أعداد أكبر لحضور مؤتمرات عامة يسعى إليها البعضُ بدعوى الوجود «على الساحة» ـ وبذلك يُعطي التمويلُ الأجنبيُّ مصداقيةً زائفةً لهذه المنظّمات.

ثم إنّ أحد أهداف العمل الأهلي هو بناءُ القدرة **الذاتية** للجمعيات، وأن تكون قوةُ هذه الجمعيات مستمدّةً من أعضائها ومن مصداقيتها ومواقفها المبدئية. هكذا يعتاد الناسُ العملَ الجماعيَّ الأهليَّ الذي يؤدّي إلى توليد ثقة الناس بأنفسهم، فيتواصل عطاؤهم وتتراكم خبراتُهم ويصبحون قوةً فعالةً في المجتمع، فيعتدل الميزانُ ولا تَجُور السلطةُ على حقوق الشعب. إنّ جوهر الديمقراطية الحقيقية هو المشاركة في القرارات، والشفافية، والتوازن بين كافة القوى، والمراقبة الشعبية، وضمان حرية وحقوق الجميع دون أيّ استثناء، واختيار الشعب قياداتِه بحريةٍ وعلى كافة المستويات. إنّ من نتائج الديموقراطية الأصيلة وأهدافِها التفعيلَ الأقصى لكلّ قوى المجتمع وكافة طاقاته. ومن ثمّ فإنّ أحدَ التساؤلات الهامة هو: هل يحقِّق التمويلُ الأجنبي هذه الأهدافَ أمْ يعوِّقها أو يساهم في إجهاضها؟ إنّنا نرى أنّ التمويل الجاهز من جهات أجنبية يَجْعل المشاركةَ الأهليةَ غيرَ ضرورية، بل تصبح الأولويةُ للعمل الدعائي والنشاطات الشكلية بهدف ملء التقارير لضمان استمرار التمويل. وهذا لا يعني أنّ المنظّمات التي تتلقى التمويلَ ليست لها بعضُ الإيجابيات، ولكنّ هذه الإيجابيات تتضاءل أمام السلبيات والمخاطر التي أشرنا إليها.



حاولتْ بعضُ المنظّمات المموَّلة أجنبيًا تعويقَ مساواة الصهيونية بالعنصرية في مؤتمر ديربان

الصندوق القومي للديموقراطية: مقتطفات

والآن نعطي بعضَ المقتطفات من موقع «الصندوق القومي (الأميركي) للديموقراطية» NED دون أيّ تعليق، علمًا بأنّ هناك معلوماتٍ بدأتْ تتراكم في هذا الصدد سنحاول جَمْعَها حتى تكون مزيدًا من الحقائق في متناول الجميع.

«... بعد الحرب العالمية الثانية، واجَهْنا تهديداتٍ لحلفائنا من الدول الديموقراطية، فلجأْنا إلى طرق مقنَّعة وذلك بأن أَرْسلنا ـ سرًا ـ مستشارين وأجهزةً وتمويلاً لدعم صحف وأحزاب تحت الحصار في أوروبا. وعندما عُرِف في الستينيات أنّ بعض المنظَّمات الخاصة الأميركية تَحْصل على تمويل سرّيّ من المخابرات المركزية الأميركية لشنّ حملات فكرية في المحافل الدولية، قَرّرتْ إدارةُ الرئيس جونسون إنهاءَ هذا التمويل، وأوصتْ بإنشاء آليةٍ خاصةٍ وعلنية لتمويلِ نشاطاتٍ ما وراء البحار... وفي عهد الرئيس كارتر أصبح الاهتمامُ بحقوق الإنسان محوريًا في السياسة الخارجية الأميركية... وفي نهاية السبعينيات اقترح... إنشاء منظمة غير حكومية شبه مستقلة هدفُها نشرُ حقوق الإنسان، وإنشاء مؤسسة حقوق الإنسان والحرية لتقديم المعونة المالية والتقنية للمنظّمات غير الحكومية في الخارج ، مثل مؤسسات الـstiftungen المُلْحَقة بالأحزاب الألمانية... وفي عام ١٩٧٩، في عهد الرئيس ريجان، أُنشئت المؤسسة الأميركية السياسية لنشر الديمقراطية في العالم... واقتُرِحَ إنشاء الـ NED لتمويل ونشر الديموقراطية في العالم ورُصِدَ حوالى ٣١ مليون دولار لهذا الغرض، وكان التنسيق مع وزارة الخارجية والوكالة الأميركية للتنمية البشرية ـ ومن أهدافها تشجيعُ تنمية الديمقراطية بالتناسق مع مصالح أميركا والمجموعات التي تَحْصل على المعونة. وقد زَوَّد الكونجرسُ الأميركي تمويلاً خاصًا للـ NED للقيام بمبادرات ديموقراطية، بما في ذلك في بولندا عن طريق منظمة التضامن العمالية Trade Union Solidarity وشيلي ونيكاراجوا... وشرق أوروبا للمساعدة في المرحلة الانتقالية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وفي بورما وجنوب أفريقيا والصين والتيبت وشمال كوريا والبلقان... وبعد ذلك قامت الـ NED بمعونة عدد من المجموعات المدنية، بما في ذلك تلك التي لَعِبَتْ دورًا أساسيًا في الانقلاب الانتخابي في خريف ٢٠٠٠. ومؤخَّرًا، بعد سبتمبر ١١، رُصِدَ تمويلٌ خاصٌ للدول التي تحتوي كثافةً سكانيةً مسلمة في الشرق الأوسط و أفريقيا وآسيا...»

خاتمة: دور الحكومة

لكلّ هذه الأسباب مجتمعةً، فإنّ «جمعية أنصار حقوق الإنسان بالإسكندرية» تَرْفض أيَّ تمويل أجنبي، وتضع العبءَ الأكبرَ في هذا الموضوع على الحكومة لا على المتلقّين للتمويل الأجنبي وحدهم. فوزارةُ الشؤون الاجتماعية تستطيع بسهولة منحَ إعانات مناسبة للجمعيات الأهلية من ميزانية الدولة التي يساهم في إيراداتها دافعو الضرائب من الشعب، دون أيّ شروط أو قيود سوى المراقبة المالية لضمان الشفافية والأمانة.

الإسكندرية

مأزق الحركة الناصرية السورية

من أجل قاعدة تفكير وعمل جديدة

. علي العبد الله * .

التأسيس باقٍ

ما تزال الحركةُ الناصرية السورية تَحْمل سمةَ التأسيس. فقد وُلدتْ ونَمَتْ بالانحياز إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في خلافه مع حزب البعث العربي الاشتراكي أواخرَ أيام وحدة ١٩٥٨، ومع نظام البعث في مفاوضات ١٩٦٣، وبقيتْ عند تلك المرحلة، ولم تضِفْ شيئًا ذا بال. وهذا ما جعلها، بعد غياب المُلْهِم (عبد الناصر)، عرضةً للضعف والتآكل والتلاشي؛ فالذي لا يزيد ـ كما يقال ـ يَنْقص. وقد ترتَّب على ذلك أنّ الحركة الناصرية السورية تواجه مأزقًا فكريًا وسياسيًا.

فقد صَدَرت الناصريةُ عن اجتماع ثلاثة عناصر: الرجل (عبد الناصر الذي يَمْتلك، إلى جانب الصفات الشخصية، موقفًا صلبًا من قضايا وطنه وعصره)، والبلد (مصر، أكبر قطر عربي، ويقع في قلب الوطن العربي)، والحرب الباردة (صراع الكتلتين الرأسمالية والشيوعية، وما وفّرته الكتلةُ الشيوعية لعبد الناصر من غطاء وإمكانات ساعدتْه على التخلّص من مشكلات كبيرة واجهتْه). وقد أحدثت الناصرية تأثيرًا كبيرًا في المحيط العربي، وكان من مترتِّبات ذلك التأثير ظهورُ التيار الناصري في البلاد العربية، والذي تجسَّد فيما بعد في أحزاب سياسية كـ «الاتحاد الاشتراكي العربي في سورية.»

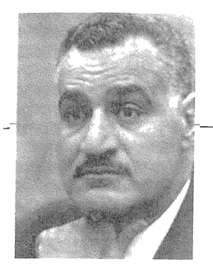
نشأ الاتحادُ الاشتراكي العربي في سورية على مراحل، فظهرتْ نواتُه الأولى عام ١٩٦٢ بمبادرة من عدد من الشخصيات الوطنية التي أصبحتْ ناصريةً مثل عبد الله جسومة وأحمد عبد العظيم. وفي المرحلة الثانية عام ١٩٦٣، تشكَّل «اتحادُ القوى الوحدوية» بانضمام «الجبهة العربية المتحدة» إلى «حركة الوحدويين الاشتراكيين» ـ التي نشأتْ آنذاك من بعثيين تركوا الحزبَ احتجاجًا على موقفه من الوحدة والانفصال ـ والاتحاد الاشتراكي العربي. وفي عام ١٩٦٤ تأسس الاتحادُ الاشتراكي العربي الثاني عبر مؤتمر ضمّ التنظيمات السابقة بالإضافة إلى حركة القوميين العرب وشخصيات ناصرية مستقلة في سورية بعد أن أعلنتْ حلَّ نفسها واندماجَها في إطاره. ويُمْكن تقديرُ طبيعة الموقف والعلاقة بين الاتحاد الاشتراكي هذا وقيادة عبد الناصر من خلال قرار المؤتمر الثالث، حيث تبنّى البنيةَ التنظيمية للاتحاد الاشتراكي في مصر وأَخضع اللجنةَ المركزية ومكتبَ الأمانة العامة ورئيسَها في الداخل للأمانة العامة في الخارج (القاهرة). وكان تبرير ذلك هو «ضمان وحدة التنظيم لأنّ قيادات الداخل لم تصل إلى وحدة الفكر والتنظيم والسياسة، ولأنّ الأمانة العامة في الخارج لها صلاتٌ مباشرةٌ مع الجمهورية العربية المتحدة (ج. ع. م) وتستطيع إيجادَ الصيغة الملائمة للتنسيق معها.» واعتبر المؤتمرُ الثالثُ «القيادةَ الثورية لـ ج. ع. م. هي المؤهَّلة لأن تضع استراتيجية النضال العربي، وأنّ الاتحاد يجب أن يؤسِّس مواقفه بالانسجام مع خطِّ ج. ع. م، وأن يجدَ صلاتٍ مباشرةً تتأكد بها رابطةُ العمل الثوري الواحد؛ ذلك لأنّ الاتحاد «قام على أساس أن يكون نواةَ الحركة العربية الواحدة في الإقليم السوري، ولأنّ قيادة ج. ع. م. هي المؤهَّلة لوضع منهاج هذه الحركة وتحديدِ معالمها على الصعيد العربي.»[1]

الإخفاق أمام الاستحقاقات

إلاّ أنّ هذه التركيبة، وهذا النمط من التعاطي مع الواقع السياسي، بالإضافة إلى طبيعة التجربة الناصرية باعتبارها لحظةً نضاليةً ارتبطتْ بظروف محلية وإقليمية ودولية جَعَلَتْها في حالة صعود

* ـ كاتب سوري. وهذا المقال أرسله الكاتبُ الصديقُ قبل فترةٍ من اعتقاله في القطر السوري. وفي هذه المناسبة، نضمّ أصواتَنا إلى المطالبين بالإفراج الفوريّ عن هذا الكاتب الوطني الديموقراطي الشريف. (الآداب)

١ ـ بيان المؤتمر الثالث، أيلول ١٩٦٦.



بعد غياب المُلْهم عبد الناصر، تعرّضت الحركة الناصرية السورية للضعف والتآكل

وهبوط وفق التوازنات التي أحاطتها في مراحلها المتعددة... أقول إنّ ذلك كلّه وَضَعَ الحركةَ الناصريةَ السورية أمام استحقاقات كثيرة وكبيرة، وعلى رأسها: تصليبُ التركيبة؛ وإغناءُ التجربة بالأسس النظرية التي تحرِّرها من نقاط الضعف البنيوية مثل منهج «التجربة والخطأ» الذي اعتمده الرئيسُ عبد الناصر في مشروعه (وهو منهج جعل التجربةَ دون أساس نظري محدد يمكّنها من ضبط ممارستها وتطوير خياراتها، ودون مستقبل واضح). ولمّا لم تنجح الحركةُ الناصرية السورية في أداء تلك الاستحقاقات، فقد دخلتْ في نفق طويل. وهكذا انسحبتْ «حركةُ الوحدويين الاشتراكيين» عام ١٩٦٤، و«حركةُ القوميين العرب» عام ١٩٦٦. كما حدثت انشقاقات متتالية: انشقاق عام ١٩٦٨ إلى جناحين (الجرّاح والأتاسي)؛ وفصل كوادر الجهاز السياسي عام ١٩٧٢؛ ثم الانشقاق إلى جناحين (الأتاسي والكيالي ـ صفوان القدسي الآن) عام ١٩٧٣ على خلفية البقاء في «الجبهة الوطنية التقدمية» أو الخروج منها؛ بالإضافة إلى فصل عشرات الأعضاء على خلفية تفاعلهم مع حوار فكري هدفُه إقامةُ تنظيم عربي جديد نادت به حركةُ أنصار الطليعة العربية.[1] وترافقَ ذلك مع ضعف سياسي وتنظيمي، حتى قال الأمين المساعد الأسبق إنّ عدد أعضاء التنظيم بلغ حتى سبعينيات القرن الماضي ٣٦ ألف عضو، بينما انخفض عامَ ٢٠٠٤ إلى أقلَّ من ذلك بعشرات المرات.

لقد تبنّت الحركةُ الناصرية السورية بدايةً كلَّ ما صَدَرَ عن الرئيس عبد الناصر، دون أن تقوم بمراجعةٍ بسيطةٍ تميِّز فيها بين ما يُمْكن أخذُه من التجربة وما يُمْكن وضعُه جانبًا لارتباطه بشروط سياسية مصرية. فالحال أنّ ما صدر عن الرئيس الراحل هو ابن حالة مختلفة: ابنُ بلدٍ له مواصفاتٌ وخصائصُ محددةٌ، وابنُ نظام له صفاتُه وظروفُه وحساباتُه ـ وهذا قد يجعله غيرَ مناسب لحالة أخرى، أو لا يتفق بالضرورة مع احتياجاتِ حركةٍ سياسيةٍ خارج السلطة في بلدٍ له خصائصُ مختلفة. كما لم تستطع الحركةُ الناصريةُ السورية التمييزَ بين استراتيجية الرئيس عبد الناصر من جهة وأهدافه من جهة أخرى؛ ذلك أنّه لا يمكن تبنّي استراتيجية محددة إلاّ بشروط محددة،[2] بينما يُمْكن تبنّي أهداف

---

١ ـ فكرةٌ طَرَحَها د. عصمت سيف الدولة عام ١٩٦٨، في وثيقةٍ أسماها «بيان طارق،» وحَدَّدَ فيها أسلوبًا لإقامة تنظيم قومي يبدأ بمراحل تحضيرية يَقْتصر فيها النشاطُ على الحوار الفكري من أجل: تحديد أساس نظري للتنظيم، واختبارِ الأشخاص في ظروف العمل الجماعي، وممارسةِ السياسة في التنظيمات السياسية القائمة ريثما يقوم التنظيمُ القومي.

٢ ـ كان لتغيير استراتيجية عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ دور مباشر في الانشقاق الذي حصل عامَ ١٩٦٨ في الحركة الناصرية السورية. ذلك لأنّ اللواء محمد الجرّاح لم يستطع التكيُّفَ مع شعار عبد الناصر «إزالة آثار العدوان» لكونه شعارًا يَسْتدعي التصالحَ والتعاونَ مع نظام البعث في سورية. وأما الدكتور جمال الأتاسي فقد قَبِلَه، غير أنّه انطلق في عملية إعادة نظرٍ مَيَّزَ فيها بين عبد الناصر الثوري ونظامه البيروقراطي ـ وهذا أمر عصيٌّ على التصور ـ فاستمرّ في ولائه للأول وانتقد الثاني، وأضاف إلى بنيته الفكرية الأفكارَ الماركسيةَ التي راجت آنذاك حول البرجوازية الصغيرة والجبهة الوطنية التقدمية، دون أن يَلْتفت إلى تعارض ذلك مع البنية الفكرية السياسية التنظيمية السائدة داخل حزب الاتحاد الاشتراكي العربي؛ وهذا أفْرز حالةً تشوُّه تذكّرنا بقصة الغراب الذي أراد أن يقلّد مشيةَ الطاووس: إذ فَقَدَ كوادرُ الحزب توازنَهم بسبب الإضافات التي لا تتفق مع الجذر الفكري والسياسي الذي لم يتم التخلّي عنه، ولم تأتِ الخيارات الإضافية بعدَ إعادة نظرٍ جدية بل نتيجةً للانحياز إلى مناخ فكري سياسي سائد بفعل عوامل غير فكرية (هزيمة حزيران، وَهْم نسخ التجارب الخارجية... إلخ). فما حصل من تغيير ليس وليدَ العودة إلى الواقع واستنطاقه على ضوء الظروف المحلية والإقليمية والدولية، وإنّما انحيازًا مرةً ثانيةً إلى معطًى خارجي بشكل من الأشكال.

أدّى الفقر النظري الذي تعيشه الحركة الناصرية السورية إلى فقدان فرصة شقّ طريق جديد نحو المستقبل

عامة قد تَصلُح لأكثر من بلد عربي بسبب مساحة التشابه. كما تجاهلت الحركةُ الناصريةُ السورية أثرَ وفاة الرئيس عبد الناصر في مستقبل التجربة، وفي العلاقة بها.[1]

لقد غدت الحركةُ الناصريةُ السورية، بعد غياب بطلها وانهيار النظام الناصري في مصر، دون مَرْكز ودون موجِّه. وأدّى الفقرُ النظري الذي تعيش في إساره إلى فقدان فرصة شقِّ طريق جديد نحو المستقبل.[2] وهذا ما أَوْقَعَها في ارتباك شديد حال دون صياغة أجوبة صحيحة ومحددة عن الأسئلة التي طرحتْها المتغيِّراتُ الدوليةُ الصاعقة والحاسمة في ظل عصر الاتصالات والمعلومات، والاعتمادِ المتبادل بين الدول، واقتصادِ السوق... إلخ. كما لم تَسمحْ ظروفُ الصراع العربي ـ الإسرائيلي والمتغيِّرات الإقليمية والدولية للرئيس عبد الناصر بمراجعة أسس مشروعه العملية والنظرية، الأمرُ الذي أحال هذه التجربة الوطنية الهامة إلى تجربة متراجعة. وقد زاد من قتامة مستقبلها عجزُ الحركة الناصرية السورية، بعد سقوط التجربة في مصر، عن القيام بهذه المراجعة المصيرية على طريق فتح التجربة على المستقبل بأسس نظرية وحلول عملية جديدة.[3]

ولكنَّ هذه ليست كلَّ عناصر المأزق الذي تعيشه الحركةُ الناصريةُ السورية. فهنالك الموقف السياسي الذي تتبنّاه هذه الحركةُ وتمارسه. ذلك أنّ النظام الذي أقامه عبد الناصر في مصر اعتمد الأسسَ السياسيةَ والعمليةَ عينَها التي قام عليها نظامُ البعث في سورية (خاصةً في نسخته التصحيحية): التركيز على دور القائد

١ ـ رأى الأستاذ منير شفيق (وهو مفكِّر فلسطيني)، في حديث مع كاتب هذه السطور، انتهاءَ الناصرية «لأنْ لا ناصرية دون عبد الناصر» ـ وهذا الرأي مرتبط بقراءة الأستاذ شفيق لطبيعة التجربة وارتباطها بطبيعة عبد الناصر الفكرية والنضالية. ورأى الدكتور عصمت سيف الدولة «أنّ الناصرية، كنظرية ثورية، أصبحتْ بعد وفاة الرئيس عبد الناصر، وبعد أن تخلَّصتْ من العامل الذاتي في صياغتها، ممكنةً، لكنْ بشروط هي: عملية جرد وفرز تُميِّز أولاً بين مستدعيات الثورة ومستدعيات الدولة في خطوات وقرارات الرئيس عبد الناصر، وبين الثابت والمتغيِّر في هذه الخطوات والقرارات والأسس النظرية التي استندت إليها، ثم أخذ الأفكار النظرية في آخرِ صيغةٍ طُرحتْ بها، وبعدها الأخذ بمنهجِ تفكيرٍ وصياغةٍ وتركيبِ العناصر المستخرَجة من معطيات التجربة.»

٢ ـ في إطار التعليق على ضحالة المستوى الثقافي للناصريين راجت نكتةٌ تقول: تَحاوَرَ ماركسيٌ وناصريٌ، فقال الأول للثاني إنّ عبد الناصر ليس أكثر من برجوازي صغير، فردّ الناصري بعصبية: «عبد الناصر برجوازي صغير؟ عبد الناصر برجوازي قدّ ربّك!»

٣ ـ جَرَتْ محاولةٌ لمراجعة وتطوير الأسس النظرية للناصرية. فقد قام عصمت سيف الدولة، بالاتفاق مع القيادة الليبية، ومع السيد شعراوي جمعة (أحد رجالات عبد الناصر)، بوضع مشروع وثيقة فكرية بعنوان **نظرية الثورة العربية** تُعْرَض على كلّ القوميين من الدارسين والمثقفين في الوطن العربي ليُبْدوا آراءهم فيها مكتوبةً خلال مدة معينة، فيقوم جهازٌ خاصٌ بتلقي الردود وإعادة صياغة المشروع الأول على ضوء ملاحظات القوميين، ثم تُوجَّه إليهم دعوةٌ لعقد مؤتمر تأسيسي تتمّ خلاله دراسةُ وبلورةُ وصياغةُ الوثيقة الفكرية لتعبِّر عن المبادئ التي يلتقي عليها القوميون ويتميَّزون بها عن غيرهم من القوى، ثم يضع المؤتمرُ لوائحَه الداخلية التي تكْفل أن يكون التنظيمُ فوق قياداته في كل الظروف، وينتخب القيادة، ثم تبدأ المسيرة. وقد صَدر مشروعُ الوثيقة بعد التغييرات التي حصلتْ في مصر (انقلاب السادات ١٥/ ٥/ ١٩٧١، واعتقال السيد شعراوي جمعة، ووقوف القيادة الليبية مع السادات في خلافه مع القيادات الناصرية) باسم مؤلِّفه تحت عنوان **نظرية الثورة العربية**. فوقف الدكتور جمالِ الأتاسي موقفًا سلبيًا من هذا الكتاب وصاحبِه، ورَفَضَ تقييمَه بعد طبعه، وضَيَّعَ على كوادر حزب الاتحاد الاشتراكي العربي فرصةَ المشاركة في حوارٍ معمَّقٍ كان سينقلها إلى سويّةٍ فكريةٍ أعمق. راجع: د. عصمت سيف الدولة، **عن الناصريين وإليهم** (تونس: دار صامد، ١٩٨٩، ص ٥).

الفرد وصفاته الاستثنائية، احتكار الحقل السياسي، تأميم الدولة والمجتمع، إلغاء الحريات، فرض حالة الطوارئ والأحكام العرفية والمحاكم العسكرية والاستثنائية وأمن الدولة... إلخ - وهي مترتّباتُ نظامٍ يَعْتمد المركزيةَ السياسيةَ، وإمساكَ «نخبةٍ وطنيةٍ تقدميةٍ» بإدارة السلطة سياسيًا واقتصاديًا بدلاً من القوى السياسية والاجتماعية. والحقّ أنّ هذه السياسة قد استعارها الرئيس عبد الناصر من التجربة السوفياتية أو اليوغوسلافية، فراح يمركز السلطةَ في يده وحوله: فعَسْكَرَ الإدارةَ (وَضَعَ ضبّاطًا في الوزارات والمحافظات والمناطق وفي إدارة شركات القطاع العامّ)، وحَلَّ الأحزابَ،[1] وتبنّى نظامَ الحزب الواحد. ولم يقلِّل من خطورة نظام الحزب الواحد تبنّيه لصيغة «تحالف قوى الشعب العامل،» واعتبارُ الاتحاد الاشتراكي تنظيمًا جماهيريًا مفتوحًا.[2] فإلغاءُ الأحزاب ألغى الحياةَ السياسية، وأَخْرج السياسةَ من المجتمع، وحَوّل السياسةَ الرسميةَ المتّبعة إلى طقوس هزلية لتمجيد القائد وتكريس السلطة. وقد حَوّل ذلك كلُّه النظامَ السياسيَّ الناصري إلى نظام وطني تَحْكمه أجهزةٌ أمنيةٌ وبيروقراطية أبعدتْه عن جماهيره وعمقه الشعبي. ومع ذلك لم تستطع الحركةُ الناصريةُ السورية رؤيةَ الخطورة الكامنة في قرار حلّ الأحزاب، وأراحت ضميرَها بأن تبنّت مقولةَ «فساد تلك الأحزاب.»[3]

إنّ قبولَ الحركة الناصرية السورية ممارساتِ النظام الناصري، وتمجيدَها والدفاعَ عنها، ومعارضتَها في الوقت نفسه للنظام في سورية مع أنّ هذا الأخير كاد أن يكون نسخةً كربونيةً عنه، إنّما تَعْكس عجزًا فكريًا وسياسيًا.[4] وهذا يقود إلى ضرورة تحرر الحركة الناصرية السورية من هذا التناقض بالتحرر من الولاء للنظام الناصري، وخَلْقِ قاعدةِ تفكيرٍ وعملٍ منطقيةٍ ومتسقةٍ مع احتياجات الإصلاح والديموقراطية وإدارة معركة ناجحة ضد العدوانية الإسرائيلية - الأميركية ومواجهة المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

---

١ - لا يفسِّر فسادُ الأحزاب قبل الثورة قرارَ حلِّها. ففي النظام الديموقراطي، ليس إصلاحُ الأحزاب من مهامّ السلطة، بل تقوم بذلك آليةُ عملِ النظام الديموقراطي على طريقة الإصلاح الذاتي؛ ذلك لأنّ صناديق الاقتراع تُجْبر الأحزابَ على إجراءِ تعديلاتٍ وإعادةِ نظرٍ دائمة. ولو كان الفساد هو سبب حلِّ هذه الأحزاب لسُمِحَ بتشكيل أحزاب بديلة؛ وهذا ما لم يحصل.

٢ - أوّلُ مَنْ ابتدع صيغةَ «تحالف قوى الشعب العامل» هو القائد الشيوعي الأذربيجاني سلطان غالي عامَ ١٩٣٧، وذلك في محاولته احتواءَ أضرار الصيغة الطبقية الجامدة للحزب الشيوعي السوفييتي.

٣ - أكّدت الخبرةُ العربيةُ والدوليةُ استحالةَ إنهاء الظواهر السياسية الحزبية الحقيقية. فقد شَهِدَ كاتبُ هذه السطور إعادةَ تشكيل حزب الوفد، بعد ربع قرن على حله، عامَ ١٩٧٧؛ وسمع خطابَ «الباشا» فؤاد سراج الدين، وهتافاتِ آلاف المحازبين الذين حَضَروا المناسبةَ في مقرّ نقابة المحامين في القاهرة، فبدت مصرُ وكأنّها في عام ١٩٤٥! كما أكّد زلزالُ العراق صحةَ هذه الأطروحة، إذ تلا سقوطَ النظام الديكتاتوري في بغداد بروزُ أكثر من ٨٠ حزبًا سياسيًا، كانت أحزابًا نائمةً بسبب القمع الدموي، ولكنّها عادت إلى العمل العلني بعد أن تبدّل الظرفُ السياسي في البلاد.

٤ - وَحده حزبُ الاتحاد الاشتراكي العربي، الذي يقوده السيد صفوان القدسي، «تحرَّر» من هذا التناقض بالتحاقه بالنظام في سورية في إطار «الجبهة الوطنية التقدمية،» ووضعِهِ في مرتبةٍ مساويةٍ للنظام الناصري إنْ لم يَفُقْه. وهذا لا يعني بأيِّ حالٍ صحةَ هذا الموقف!

٥ - لم يرفع محازبو «الاتحاد الاشتراكي العربي الديموقراطي» في تظاهرةٍ لدعم الانتفاضة الفلسطينية صورَ عبد الناصر وحده، بل وصورةَ الدكتور جمال الأتاسي أيضًا.

قبول الحركة الناصرية السورية ممارسات النظام الناصري، ومعارضتها في الوقت نفسه للنظام في سورية، يعكسان عجزًا فكريًا وسياسيًا

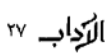
متطلبات فكرية للتغيير

ولكنّ ذلك ليس بالأمر السهل أو الممكن ما لم تتغير الثقافةُ السياسيةُ السائدة في أوساط الحركة الناصرية السورية، حيث ما تزال الأولويةُ تَرْتكز إلى «القائد» و«القيادة» والولاء للزعيم على حساب العمل الجماعي والديموقراطي.(٥) وقد كان لافتًا ربطُ البرنامج السياسي الذي أصدره «حزبُ الاتحاد الاشتراكي العربي الديموقراطي» تراجُعَ القدرة العربية على مواجهة الأخطار «بافتقاد القيادة الموجِّهة الجامعة»... كلُّ هذا في زمنِ انهيار شرعيةِ أنظمةِ الحزب الواحد (فما بالُكَ بنظام الزعيم القائد الملهَم الخالد!)، وفي زمن الانحياز إلى الديموقراطية التي تعني الاحتكامَ إلى الشعب في تحديد السياسات الاقتصادية والاجتماعية في ظل التعددية وتداول السلطة وفصل السلطات. بل إنّ الحزب المذكور لم يرَ ضيرًا في تبنّي مقولة «قيادة الحزب للدولة والمجتمع،» شرطُ أن يأتي هذا الحزبُ إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع!

إنّ ثقافةً سياسيةً يكون مركزَ تنبُّهها شخصُ القائد لا أفكارُه، ويكون منطلقَها الولاءُ لهذا القائد لا للوطن والأمة، لا تستطيع إلاّ شخصنةَ السياسة وربطَ المستقبلِ بالقائد. وإنّ بقاء نمط تفكير كهذا لا يَجْعل تحقيقَ الأهداف صعبًا فحسب، بل يجعل قيامَ تحرُّكٍ سياسي فاعل ومثمر مستحيلاً أيضًا؛ ذلك لأنّ تفكيرًا كهذا لا يُمْكن أن يفرز إلاّ العطالةَ والتواكلَ والدورانَ حول الذات.

دمشق

رابطة الكتاب العربية الأميركية تمنح الجيوسي جائزةَ إدوارد سعيد للتميز



منحت رابطةُ الكتاب العربية الأميركية د. سلمى الخضراء الجيوسي جائزةَ إدوارد سعيد، التي هي أرفعُ جائزةٍ للرابطة، وذلك في أول مؤتمر للرابطة عقدتْه في مدينة نيويورك (٣ ـ ٢٠٠٥/٦/٥)، لتميز د. سلمى في أبحاثها وكتاباتها ومستواها الأدبي ونشاطها. وقد قامت بتسليم الجائزة للفائزة السيدة مريم، أرملةُ المرحوم إدوارد سعيد، التي ألقت كلمةً في الحفل تكلمتْ فيها عمّا كان إدوارد سعيد يكنّه من إعجاب بكامل أعمال الأستاذة سلمى، وخاصة لمؤلَّفها المتميز باللغة الإنكليزية حول الحضارة العربية في الأندلس، The Legacy of Muslim Spain (إرث إسبانيا المسلمة)، الذي لم يترك جانبًا من هذه الحضارة لم يأتِ على نقاشه وشرحه. وقالت السيدة مريم انّ زوجها الراحل كان يقول دائمًا انّ مثل هذه الكتب هي التي تستطيع محاصرة المتحاملين عليها وتكميم أفواههم. وقد حضر الحفل العديد من الشخصيات المرموقة، كان منهم الدكتور كلوفيس مقصود.

من: بسّام أبو غزالة

إرث ياسر عرفات

على محكّ النقد

. بسام أبو غزالة * .

الزعماء عندنا وعندهم

يتّسم العالمُ الثالث بنزعة إضفاء القدسية على زعمائه، وهي نزعةٌ تجاوزتْها الدولُ الصناعيةُ المتقدمة منذ زمن طويل. فلم يعد في تلك الدول زعماء بل رجالُ دولة؛ والفرقُ بين التعبيرين واضح. فرجل الدولة ـ أرجلاً كان أم امرأةً ـ يتولّى منصبًا مُحدَّدَ الصفات والمهمّات والمسؤولية، لمدة زمنية يَحْكمها الدستورُ أو القانونُ، فلا يتجاوزها أبدًا؛ فإنْ حاول القفزَ على حدود منصبه لم يأمنْ على نفسه من المساءلة القانونية التي قد تكلِّفه ذلك المنصبَ. وقد رأينا كيف جَرَّ القضاءُ الرئيسَ الأمريكيَّ السابق، رِتْشارد نِكسون، من رئاسة الدولة لضلُوعه في فضيحة ووترغيت الشهيرة. ورأينا كيف حَقَّقَ القضاءُ أيضًا مع الرئيس الأمريكيِّ السابق، بِلْ كلنتن، في فضيحة الفتاة اليهودية، مونيكا لوينسكي، ليدينه أو يبرِّئَه من تهمة الكذب تحت القسم؛ ولو ثَبَتَ للقاضي كذِبُهُ لجَرَّدَه من رئاسة الدولة أيضًا .

أما العالم الثالث، الذي نحن العربَ بعضٌ منه، ولعلّنا خيرُ مَنْ يمثّله، فإنّه، من هذا المنظور، عالمٌ آخرُ دونه والعالمَ المتقدِّمَ «بِيدٌ دُونَها بِيدُ.» فزعماؤه جميعًا أبطال تاريخيون ملهَمون، تتقطّر من أفواههم الحكمةُ إنْ تكلموا، وتتجسّد فيهم الشجاعةُ إنْ كرُّوا، والحصافةُ إنْ فرُّوا. وهم جميعًا فوق القانون، الذي لم يُشرَّعْ أصلاً إلاّ لدَهْماء العامّة.

في هذا المناخ ظهر الزعيمُ الفلسطينيُّ الراحل ياسر عرفات، وفي هذه البيئة ترعرع وكبر شأنُه، حتى جعله أتباعُه ومريدوه رمزًا مقدَّسًا للقضية، ووالدًا للكبير منهم وللصغير ـ وهو بهذا لا يختلف عن غيره من زعماء العالم الثالث. فإذا حانت الساعةُ التي اختاره فيها ربُّه إلى جواره، بات أهلُ فلسطين أيتامًا لا راعي لهم! فأصابت الهستيريا الكثيرين منهم، شأنهم شأن بقية شعوب العالم الثالث يومَ يغيِّب الموتُ زعماءها الخالدين. لكنّ سنّة الله ألاّ تتوقّفَ الحياةُ بموت أحد من البشر؛ وقد مات سيِّدُنا محمد، عليه السلام، فلمّا هاج الناسُ وماجوا صاح فيهم عمرُ بن الخطّاب: «مَنْ كان يَعْبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان يَعْبد اللّه فإنّ اللّه حيٌّ لا يموت.» فثاب الناسُ إلى رشدِهم .

وإذ أفاق الأتباع والمريدون مِنْ صدمتهم بموت الزعيم الفلسطيني، شَرَعوا في الحديث عمّا أسمته الصحافةُ «إرث عرفات.» وليس المقصود هنا، بطبيعة الحال، ما تَرَكَ وراءه من إرثٍ ماليٍّ ضخم كان تحت تصرُّفه وحده لا شريك له، بل المقصود إرثُه المبدئيُّ الذي استندتْ إليه سياستُه في إدارة الصراع مع العدوّ الصهيوني. وبطبيعة الحال، تَعَهَّد الطامعون في خلافته، على اختلاف مشاربهم ومبادئهم وأهوائهم، بالسير على دربه وحمل مبادئه، أيْ «إرثه» الذي تركه بعد موته. وهذا تصرّفٌ متوقَّعٌ، أكان المتكلمون صادقين في ما تعهَّدوا به أَمْ مُطْلقين قعقعةً جوفاءَ لا تَصْدُر عن طحن. فمَنْ ذا الذي يحاسِبُ ساسةَ العالم الثالث إنْ شَطَحتْ ألسنتُهم في الليل ومحا شطحاتِها النهارُ؟ وليس لنا إلاّ أن ننتظر يومَ يأتينا بالأخبار مَنْ لم نَبِعْ له بتاتًا ولم نَضْرِبْ له وقتَ موعد. فمَنْ كان يُصدِّقُ أنْ يَخْلف عبدَ الناصر نقيضُه الذي كَسَرَ لاءاتِ الخرطوم التي كان سلفُه الصالحُ مِنْ ورائها؟ ولا شكّ في أنّ وفاة عرفات أثارت كثيرًا من العاطفة لفجاءتها من ناحية، ولأنّ المتوفى، من ناحية أخرى، كان قعيدَ حصار ضَرَبَه العدوُّ على مقرّه منذ زمن، لا يَسْمَحُ له أن يَخْرج منه إلاّ منفيّاً عن أرض الوطن. ولعلّ العواطف تأجَّجَتْ أكثر حين أُشيع أنّ موته كان بفعل سمٍّ دُسَّ له بطريقة أو بأخرى. لذلك لا مناص لبطانة هذا الزعيم المتوفّى من أن تتعهّد بحمل «إرثه» والصمود عليه، كما صَمَدَ صاحبُ الإرث في الحصار، ولم يبرح مقرَّه إلاّ «شهيدًا، شهيدًا،» كما كان يردِّد يومَ حُوصِرَ.

---

* ـ كاتب فلسطيني.

يتّسم العالمُ الثالث بغياب العمل المؤسسي ويتعمّد السلطات الحاكمة، وضمنها السلطةُ الفلسطينية، تغييبَه

عرفات وفتح: البدايات

حتى يَفْهمَ المرءُ «إرثَ عرفات» لا بدّ له من متابعة نشأة هذا الإرث تاريخيًا، والمبادئ التي حَكَمتْ نشأتَه وتقلُّبتْ متأثِّرةً بالمتغيِّرات التي ألمَّتْ بواقع الحال السياسي ـ فلسطينيًا وعربيًا وعالميًا.

كان ياسر عرفات الرجلَ الذي أسّسَ «حركة فتح» عام ١٩٥٧، «وصدر البلاغُ العسكري الأول في بداية ١٩٦٥ معلنًا انطلاقة الثورة الفلسطينية المسلحة.»[1] أما المبدأ الأساسي الذي قامت عليه الحركة فهو الكفاحُ المسلّح لتحرير أرض فلسطين المحتلة. والمقصود بالأرض المحتلة طبعًا تلك التي احتُلّت عامَ ١٩٤٨، لأنّ قيام «فتح» سَبَقَ هزيمةَ حزيران ١٩٦٧. وللترويج لهذه الحركة طَرَحَ مؤسِّسوها ضرورة غضِّ النظر عن الخلافات المبدئية أو تأجيلِها، والتركيزِ على هدفٍ واحدٍ لا يختلف عليه اثنان، ألا وهو تحرير فلسطين. ولقد استقطبتْ فكرتُهم هذه الكثيرين من أصحاب العقائد المختلفة. وبذلك تأسستْ «فتح» على ثلاثة مبادئ هي: (أ) تحرير فلسطين، (ب) الكفاح المسلح أسلوبًا للتحرير، (ج) الاستقلالية التنظيمية عن أيّ نظام أو تنظيم عربي أو دولي.[2] ولم يطرأ فيما بعد أيُّ تغيير جوهري على مبادئها حتى ٢٠ آب ١٩٩٣، يومَ وقّع بالأحرف الأولى في أوسلو وفدُ منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف.) الاتفاقَ المسمّى باسم هذه العاصمة النرويجية.[3] أمّا التوقيع الرسمي في البيت الأبيض، المسمّى «إعلان المبادئ،» يوم ١٣ أيلول من العام نفسِه، والذي تولاّه محمود عباس بحضور ياسر عرفات، فقد كان الزخرفَ الشكليَّ للتوقيع في أوسلو. وإذا قلنا إنّ المفاوضَ في أوسلو كان وفدَ م.ت.ف.، فإنّ ذلك لا يغيّرُ شيئًا من حقيقة أنّ م.ت.ف. هي في الجوهر «فتح»؛ ذلك أنّ الفصائل الأخرى والمستقلين في المنظّمة لا يحرّكون ما لا تريد «فتحُ» تحريكَه، ولا يسكّنون ما لا تريد «فتحُ» تسكينَه. ولعلّنا نقول أيضًا إنّ أعضاءَ «فتح» لم يكونوا ليحرّكوا ما لا يريد زعيمُها التاريخيُّ تحريكَه، ولا ليسكّنوا ما لا يريد هذا الزعيمُ تسكينَه. لذلك نقول إنّ «فتح» بقيتْ على مبادئها الثلاثة حتى توقيع اتفاق أوسلو، فتخلّتْ بعدَه عن مبدإ تحرير كامل التراب الفلسطيني، واكتفت بالتفاوض على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. كذلك تخلّت عن مبدإ الكفاح المسلح وأرستْ قاعدةَ التفاوض، وإنْ كان تفاوضًا أبديًا لا تَلُوحُ له نهاية. أما الاستقلالية التنظيمية فهو المبدأُ الوحيد الذي بقيتْ «فتح» متمسكةً به، بل حصرتْه في شخص الزعيم الذي كان مسؤولاً وحده عن كل شيء، مستقلاً فيه حتى عن أعضاء تنظيمه.

اتسمت بدايةُ «فتح» بنقيصةٍ كبيرة مازالت تجرُّ نفسَها، كثيرًا أو قليلاً، على مسيرتها إلى يومنا هذا. وتلك هي اهتمامُها بالإعلام المُبالَغ فيه، ولاسيّما في ما يخصّ الأعمالَ العسكرية التي ينفّذها مقاتلوها في الأرض المحتلة. ولعلّ مؤسسي الحركة ظنوا أنّ ذلك يَجْذب الناسَ إليهم ـ وقد كان ظنُّهم هذا صحيحًا إلى حدّ كبير، لأنّ العامة كانت متعطّشةً إلى قتال مَن اغتصبَ أرضَها وديارَها بعد أن تخاذلَ عنها النظامُ القُطْريُّ العربيُّ الذي لم يكن ليحميَ نفسَه أصلاً. وللأسف فإنّ «الفهلوة» أصبحتْ سُنَّةَ الكثيرين من أعضاء هذه الحركة، رغم أنّنا لا نُنْكر طبعًا أنّ من بين أعضاء هذه الحركة الكثيرين ممن كانوا جادّين في نضالهم.

وثمة عيب واضح آخر في هذه الحركة، وهو الاختلاف الحادّ بين أعضائها. والغريب أنّ هذا الاختلاف مازال موجودًا إلى يومنا هذا. ففي مقابلة مع فضائية الجزيرة في ٢٠ كانون الأول ٢٠٠٤، مثلاً، صرّح فاروق القدومي،

١ ـ ٢ ـ **الموسوعة الفلسطينية** (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤، ج ١، م ٢)، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٣ ـ محمود عباس، **طريق أوسلو** (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٤)، ص ٢٦٦.

«فتح» بقيتْ على مبادئها في تحرير فلسطين وانتهاج الكفاح المسلح والاستقلالية التنظيمية، حتى توقيع أوسلو

أحدُ مؤسسي «فتح» والذي أصبح أمينَها العامّ، أنّه لم يكن أبدًا موافقًا على اتفاق أوسلو. ويعلِّل بعضُ قادة «فتح» اختلافَ آراء أعضائها بالقول إنهم اتفقوا على أن يختلفوا ولا يتفرقوا. ولا شكَّ في أنّ الاختلاف سنّةُ الحياة، وليس هناك تنظيمٌ لا يختلف فيه أعضاؤه، لكنّهم كلّهم يلتزمون بما تتفق عليه الأكثرية، وبعد ذلك لا يُسمَحُ لصاحب الرأي المختلف بأنْ يَجْهر برأيه على الناس.

وكانت الفوضى أيضًا سمةً من سمات المقاومة الفلسطينية عمومًا، خاصةً في بداياتها. لكنّ «فتح»، وهي كبرى منظمات المقاومة، كانت أكثرَها تسيُّبًا وأقلَّها انضباطًا. وقد تجلّى ذلك أيامَ كانت تنظيماتُ المقاومة تعمل في الأردن، وحين ذهبتْ إلى لبنان نقلتْ معها أخطاءها ذاتَها، وكأنّها مصمِّمة على ارتكابها. ولنكن صريحين: لقد كانت التنظيمات الأخرى تشكو من انكباب قيادة «فتح» على تفسيخها بدل توحيدها في جبهة واحدة. أما «دولة الفاكهاني،» التي رُوي عن أبي عمّار، رحمه الله، أنه استَشهَدَ بها ليدلَّ على قدرته على إدارة الدولة الفلسطينية العتيدة، فحدِّثْ ولا حرجَ عن حال الفوضى فيها. ولا حاجة لنا هنا إلى التأكيد أنّ الانضباطَ والنظامَ وحسنَ الإدارة أساسٌ لا بدّ لكلّ عمل ناجح من أن يُبنى عليه.

«اختراق» أوسلو

أما قصة ما سُمِّي «اختراق أوسلو» فمعروفةٌ دوافعُها، مهما أُلبستْ من سندس وإستبرق. فمن المؤكّد أنّ الأمة العربية عامةً، ومسيرةَ التحرر الفلسطيني خاصةً، انتكستا بنكسة العراق في حرب الخليج الثانية، حتى أصبح الفلسطينيون في أضعف حالاتهم، وبات الأمريكيون متحكِّمين بمصير المنطقة العربية. يومَها قررتْ إدارةُ بوش الأول حلَّ القضية الفلسطينية كخطوة في سبيل إقامة ما أسموْه نظامًا عالميًا جديدًا، فسعتْ إلى عقد مؤتمر مدريد (٣١/١٠/١٩٩١)، واستطاعت أن تجرّ إليه الدولَ المعنيّةَ مباشرةً بالصراع العربي ـ الصهيوني. وقد فرضتْ أميركا على حكومة شامير الليكودية أن تتفاوض مع العرب للوصول إلى حلّ للصراع القائم. وإذ اختير الوفدُ الفلسطيني المشارك من أهل المناطق المحتلة برئاسة د. حيدر عبد الشافي، أحسّ أبو عمّار بأنّ البساط يُسحَبُ من تحت رجليه وأرجل قيادة م.ت.ف. التقليدية. يقول ممدوح نوفل: «كان الهمُّ الطاغي على تفكير أبي عمّار وعدد كبير من القيادة الفلسطينية واللجنة التنفيذية هو موقعَ ودورَ م.ت.ف. في المفاوضات، والخوفَ من تحوّل الوفد الفلسطيني إلى قيادة بديلة حتى لو لم يكن أيٌّ من أعضاء الوفد مستعدًا للتفكير في هذا الموضوع؛ فالأمور ليست بالنوايا وإنما بالنتائج.»[1] وقد أصرّ أبو عمّار على متابعة المفاوضات التي أعقبت احتفالياتِ مؤتمر مدريد متابعةً حثيثةً، دافعًا الوفدَ الفلسطينيَّ إلى تعريف نفسه بأنّه وفدُ م.ت.ف. وأنه يتلقى تعليماته منه ويلتزم بها ـ وهو ما كان حقًا. كذلك كان يَدْفَعُ الوفدَ إلى التصلّب في مواقفه، لا لنيل أكبر مكسب من المفاوضات، بل لإفشالها مادام رعاتُها قد تجاوزوا المنظمةَ وقيادتَها. وفي الوقت نفسه، كان أبو عمّار يبحث عن قناة سرّية مباشرة للتفاوض مع العدو الصهيوني. وقد أخذتْ فرصةُ هذه القناة السرية تتعاظم بخروج الليكود من السلطة وفوز حزب العمل في انتخابات عام ١٩٩٢. وبعد جهدٍ ومناوراتٍ وصلتْ رسالةُ أبي عمّار إلى مسامع رئيس الوزراء الجديد، يتسحاق رابين، ووزير خارجيته، شيمون بيرس. وبمساعدة حكومة النرويج ورعايتها، بدأت اجتماعاتُ وفدي المنظمة والدولة الصهيونية في أوسلو. وبعد «مرونة فائقة تصل حدَّ

١ ـ ممدوح نوفل، **قصة اتفاق أوسلو** (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ص ٣٢.

كان وفدُ أوسلو من «السخاء» بحيث وصف پيرس سهولةَ المفاوضات بقوله: «كنّا نظنّ أنّنا نفاوض أنفسَنا!»

الاستعداد لتقديم التنازلات» للعدوّ، حسب وصف ممدوح نوفل، مقابلَ تشدُّد الوفد الذي يرأسه حيدر عبد الشافي بتعليمات من أبي عمّار.[1] اقتنعتْ حكومةُ رابين بأنّ استثمارها في قيادة المنظمة أجدى لها من وفد مدريد. لذلك «نجحتْ» مفاوضاتُ أوسلو وتم الاتفاقُ على إعلان المبادئ، كما وَرَدَ أعلاه. ولقد كان وفدُ أوسلو من السخاء بحيث وصف شيمون پيرس سهولةَ المفاوضات بقوله: «كنّا نظنّ أننا نفاوض أنفسَنا[!]»

ما يهمُّنا من هذا العرض التاريخي الموجز هو السخاء الكبير الذي قدّمته قيادةُ م.ت.ف. للعدوّ في أوسلو في سبيل إنجاح المفاوضات وفي سبيل بقائها، وعلى رأسها أبو عمّار، متمتعةً بسلطة الممثِّل الشرعيّ والوحيد للشعب الفلسطيني، ذلك الشعب الذي لا يَعْلم شيئًا عمّا يُطْبخ له. و«السخاء» هنا تعبير ملطَّف عن «التنازل.» كذلك يجب أن نشير هنا إلى الحقيقة المرة المتمثلة في تسلط قيادة م.ت.ف. على المنظمة، خاصةً حين تتّخذ مثلَ هذا القرار التاريخي الذي ينعطف بالنضال العربي الفلسطيني مائةً وثمانين درجةً دون استشارة أحد من أعضاء المنظمة. وقد رأينا الشقَّ الذي أحدثه هذا العملُ، والقطيعةَ بين تلك القيادة المتسلّطة وبين الفصائل الأساسية (الفصائل العشرة)، التي أصدرتْ بيانًا من دمشق بتاريخ ٢ أيلول ١٩٩٣ اعتبَرتْ فيه اتفاقَ أوسلو «انصياعًا كاملاً للمقترحات الأمريكية ـ الإسرائيلية.» لقد تردَّيْنا، إذن، إلى هاوية التسلط التي يَقْبع فيها النظامُ القُطْريُّ العربي عامةً، بعد أن ظَنّ بعضُنا أنّ الديموقراطية في الساحة الفلسطينية ستكون نبراسًا للأمة العربية كلّها!

ما تدّعيه المنظمة (والسلطة) وما يدّعيه العدوّ

نعم، تكلَّلتْ جهودُ قيادة المنظمة بنجاح باهر في اقتناص فرصة التفاوض مع العدوّ. وقد اتفقتْ معه على «العودة» إلى الضفة الغربية وقطاع غزة لإنشاء ما أسمته «السلطةَ الوطنيةَ الفلسطينية،» في حين أنّ الاسمَ الرسمي المتّفقَ عليه في المفاوضات كان «سلطةَ الحكم الذاتي.» ولعلّ القارئ محقٌّ إنْ لم يُضْفِ كثيرًا من الأهمية على التسمية، لكنّ الإشكال هو في محاولة الحصول على المكاسب بالفهلوة ـ حتى في ما يتعلق بالاسم. فلماذا لم يُصرَّ المفاوضون على الاسم الذي يَرْغبون فيه ماداموا لا يريدون تعبيرَ «سلطة الحكم الذاتي»؟ وقد أَعْلنت القيادةُ أنّ خروج جيش العدوّ من المناطق التي أنيطتْ بالسلطة إنّما هو انسحابٌ، بل تحرير. وفي وادي عربة عام ١٩٩٤، رأينا وسمعنا رابين يصحِّحُ لأحد الصحفيين قائلاً بوضوح: «إنّنا لم ننسحبْ من أيّ جزء من المناطق [يعني غزة والضفة]، بل أعدنا انتشارَ الجيش.» والسؤال الموجَّه إلى القادة الفلسطينيين هو: إذا اتفقتم على الانسحاب، فلِمَ لمْ تكذِّبوا أقوالَ رابين المتكررة وتحتجّوا لدى مفاوضيكم بأنّهم يصرِّحون بخلافِ ما اتفقتم عليه؟ نعتقد أنّ هذه الحقائق، الصغيرةَ شكلاً، تشي لنا بمدى تهاون المفاوض الفلسطيني ومَن وراءه. وهنا نتساءل: أكان مردُّ هذا التهاون إلى أنّ الهدف كان سلطةَ الحكم (وعلى الوطن العفاءُ)، أمْ إلى عدم أَهْليةِ المفاوضين؟ أمْ مردُّه إلى التفكير الفهلوي ثانيةً، بحيث نلعب مع العدوّ لعبةَ الورقات الثلاث، نَخْدعه بها ونَسْحب الوطنَ من بين أسنانه وهو غافل عنه؟

أما إذا التفتنا إلى الحقائق الكبيرة، مثل المستوطنات والقدس وعودة اللاجئين وإنشاء الدولة، فإنّنا نرى تناقضًا واضحًا بين ما تدّعيه السلطةُ وما يؤكِّدهُ العدوُّ. فبعيْد توقيع اتفاقية أوسلو، صرّح رابين في مقابلة مع صحيفة **دافار** الإسرائيلية (١٩٩٣/٩/٢٩) أنّ «القدس ستظلّ دائمًا موحّدة تحت سيادة إسرائيل. وموقفُنا يعارض إقامةَ دولة فلسطينية

١ ـ راجع التفاصيل في المصدر نفسه.



حين سُئل بيرسْ عن القدس قال: «عرفات في حديقة البيت الأبيض لم يَذْكر القدس!»

بيننا وبين الأردن.»[1] وفي مقابلة مع الصحيفة نفسها (١٩٩٣/٩/٢٤) وصف شيمون بيرس الدولةَ الفلسطينية بأنّها «قصاصة من ورق.»[2] وحين سُئل عن القدس قال: «عرفات، في كلمته في حديقة البيت الأبيض، لم يَذْكر القدسَ. وقابلْ ذلك بكلمة الرئيس المصري السادات في الكنيست ... فقد تحدّث السادات في الكنيست عن القدس، [ولكنّ] عرفات في البيت الأبيض لم يتحدث عنها.» والسؤال هو: لِمَ لمْ يتحدثْ عرفات عنها؟ أمِنْ باب المناورة، أم لإيمانه بعبثية المطالبة بها؟ رحم الله فايز الصايغ يومَ كان يحذِّر «مناضلي» الحلّ السلمي من إغلاق باب التحرير في وجه الأجيال القادمة!

غياب المؤسسات

يتّسمُ العالمُ الثالث بغياب العمل المؤسسي وبتعمّدِ السلطاتِ الحاكمة تغييبَه. ولا تختلف السلطة الفلسطينية في هذا عن غيرها من دول العالم الثالث إلاّ بالمبالغة في تغييب المؤسسات والعمل المؤسسي. كان أبو عمّار، رحمه الله، كما وصفه عزمي الشعيبي، عضوُ المجلس التشريعي الفلسطيني، «يَرْفض بصورة واعية التعاملَ مع المؤسسة بأيّ شكل من الأشكال، ولا يتعامل إلاّ مع الأشخاص. ورسائلُه كلُّها، بما فيها الموجَّهة إلى المجلس التشريعي، موجّهةٌ إلى أشخاص.»[3] وحين قدَّمَ يومًا بعضُ الوزراء، ومنهم حنان عشراوي، عريضةً يَطْلبون فيها عقدَ اجتماع مجلس وزراء السلطة، كان جوابُه أنْ لا داعي للاجتماع كمجلس، ومَنْ كانت عنده مشكلةٌ فليراجِعْه بها. «وهكذا، أُلغي عمليًا مجلسُ الوزراء كمؤسسة. وأدّى هذا إلى نتائج مدمِّرة، أقلُّها غيابُ التخطيط والعقل الجماعي.»[4] لقد «صار مكتبُ الرئيس هو المرجعية بدلاً من مجلس الوزراء، ونشأ مركزُ ثقل ونفوذ جديد اسمُه 'العاملون في مكتب الرئيس'... وبعضُهم أهمُّ من كثيرين من الوزراء بسبب قربه من الرئيس وتحديد الأوراق التي تصل إليه ... وثمة ظاهرة أخرى لا تقل خطورةً عن ذلك، هي نشوء 'وزارات' ومراكز مربوطة بمكتب الرئيس، لا بمجلس الوزراء؛ أيْ أنّ المسؤول عنها مباشرةً هو مكتب الرئيس، وهي أشبه بممالك أو إقطاعياتٍ صغيرة.»[5]

قد تَحْدث معجزةٌ وتغيِّرُ القيادةُ الفلسطينية نهجَها. لكنّنا لسنا في زمن المعجزات. لذلك لا نتوقع من خلفاء أبي عمّار أن يخالفوا النهجَ الذي انتهجوه منذ زلّت أقدامُهم في مستنقع أوسلو، إنْ لم يكن قبل ذلك. وهذا، باستقراءِ المواقف والأحداث، يعني ما يلي:

- الاعتراف لدولة الاغتصاب الصهيوني بأنّ لليهود الآتين من كلّ بقاع الأرض حقًا في فلسطين يَفُوق حقَّنا فيها. فماداموا يحتلّون ٧٨ ٪ من فلسطين، ومادمنا نعترف بحقّهم في هذه النسبة مكتفين بنسبة ٢٢ ٪ من التراب الفلسطيني الباقي لنا، فهذا يعني أنّ حقّهم في فلسطين التاريخية يَفُوق

١ ـ نُشرتْ ترجمةُ المقابلة في **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ١٦، خريف ١٩٩٣، بيروت، ص ٩٤. كذلك يورد إسرائيل شاحاك في كتابه **الأسرار المفتوحة** (لندن: مشورات بلوتو، ١٩٩٧)، ص ١٦٢، تصريحاتٍ لرابين نشرتْها جريدةُ **يدعوت أحرنوت** بتاريخ ٧ أيلول، يؤكّد فيها أيضًا ما وَرَدَ أعلاه، بالإضافة إلى تأكيده التمسكَ بالسلطة على المستوطنات، و«إعادةَ انتشار» الجيش (لا انسحابَه) من «مواضع نحددها نحن وحدنا» بكلمات رابين. كذلك أكّد رابين ذلك لعضو الكنيست نتنياهو في حوار جرى بين الرجلين في الكنيست حين طَلبتْ حكومةُ رابين مصادقةَ الكنيست على الاتفاق في ٣١ أيلول ١٩٩٣. وقد نُشرتْ ترجمةُ الحوار في كتاب حسن الشلبي وعدنان السيد حسين، **سِلْم أوسلو** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٥)، ص ١٢٦ ـ ١٢٨.

٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مصدر مذكور، ص ٩٨، ١٠٠، ١٣١ ـ ١٣٢. للتفاصيل راجع في هذا المصدر ندوة عزمي الشعيبي، ص ١٢٨ ـ ١٣٦.

. بســـــام أبـو غـــــزالـة .

على السلطة أن تعيد لمنظمة التحرير أمرَ تمثيل الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج

حقًّنا! وهذا يقودنا إلى سؤال يُورثُ في النفس المرارةَ: إذا كانت م. ت. ف. أخذتْ شرعيّتَها من تحرير كامل التراب الفلسطيني، وإذا قامت «فتح» على مبدإ الكفاح المسلّح لتحرير كامل التراب الفلسطيني، فهل تبقى لوجودهما شرعيةٌ حين تتقلّصان إلى استجداء الفتات من أرض الوطن؟!

• شطب حقّ عودة اللاجئين. ذلك أنّ المطّلع على أحاديث أعضاء القيادة فيما بينهم يَعْلم أنّ المتنفّذين منهم غيرُ مقتنعين بإمكانية عودة اللاجئين. وطبيعي أنّ مَنْ لا يقتنع بفكرةٍ، لا يُحسن الدفاعَ عنها. أضفْ إلى ذلك ما صَدَرَ من بعض المسؤولين من اعتراف صريح بيهودية الدولة الصهيونية، أو بعدم واقعية المطالبة بعودة اللاجئين؛ وآخرُ ما صدر في هذا الصدد مشروعُ اتفاق جنيف، الذي أتانا به ياسر عبد ربّه بالاشتراك مع «صديق العرب» يوسي بيلين. وما كان لعبد ربّه أن يَدْخل في مثل هذه المشاريع بدون موافقة عرفات؛ ذلك أنّ هذا الأخير أظْهرَ تأييدَه لمبادرة جنيف بأن أرسل مندوبَه، د. منويل حساسيان، إلى مكان الاحتفال في جنيف حيث ألقى كلمةَ السلطة. وقبل أن يحُولَ الحوْلُ على هذه الاتفاقية، صرّح الرئيسُ الراحلُ لمندوبَيْ جريدة **هارتس** (٢٠٠٤/٧/٧) بأنّه يَقْبل بعودة **بعض** اللاجئين لا كلِّهم، ويعترف بأنّ الدولة الصهيونية «يجب أن تبقى دولةً يهودية.»

• التخلّي عن القدس الشرقية للدولة الصهيونية... هذا إذا سُمِح لنا بالصلاة فيها، على أنْ نحافظ على أدبنا وحسن تصرفنا. ومادامت الدولةُ غايتَنا المقدسة، فما المشكلة في دولةٍ بلا قدس؟! أليست الولايات المتحدة دولةً عظمى رغم أنّ القدس ليست عاصمتها؟!

• القبول بعدم تفكيك المستوطنات الكبيرة وبضمّها إلى سلطة الدولة الصهيونية، في سبيل عدم تعويق الاتفاق، خاصةً أنّ العدوّ على استعداد لمنحنا أراضيَ من صحراء النقب تعويضًا عن الأراضي الخضراء التي صادرها!

إنّ كلَّ ما ورد آنفًا ممكنٌ جدًا لسبب بسيط، هو أنّ العدوّ قرّرَ سلفًا ــ وقَبِلَ المفاوضُ الفلسطينيُّ قرارَه ــ أن يؤجِّل القضايا الكبرى إلى آخر المفاوضات، معطيًا نفسَه الحقَّ بالاحتفاظ بمواقفه بالنسبة إلى الحلّ الدائم.[1] وقد لا تنتهي المفاوضاتُ قبل خمسين عامًا، بل أبدًا، كما صرّح شامير في مؤتمر مدريد، وعندها يأخذ المفاوضُ الصهيوني ما يريد بحكم التقادم والأمر الواقع. ونحن نبني قولَنا هذا على استقراء تصريحات القادة الصهاينة وتصرفات المسؤولين في السلطة. فمنذ توقيع أوسلو كان قادةُ الدولة الصهيونية ــ من رابين وبيرس عقب توقيع اتفاق أوسلو إلى شارون في مؤتمر هيرتسيليا الأخير ــ يصرُّون على ما يلي: لا لتقسيم القدس؛ لا لعودة اللاجئين؛ لا لدولة فلسطينية بين الدولة الصهيونية والأردن؛ لا لإخلاء مستوطنات الضفة الرئيسية.

مرةً أخرى سيقول قائلُهم: ماذا نتوقع من شارون، المعروف بتطرفه بل وبإجرامه؟ وهذا يَفْتح لنا بابَ التعجب من تلك اللهجة المتمسكنة التي اعتادها الناطقُ الرسميُّ باسم السلطة الذي لا يكلّ ولا يملّ من ترديد القول إنّنا «دعاةُ سلام، وهم لا يريدونه»!» ما هذا الاستخذاء الذي لا يليق إلاّ «بالشاء والنَّعَم» (كما قال المتنبّي)؟ ما الذي غَيّرَ لغتَنا، أعني لغةَ المنظمة و«فتح» اللتين كانتا أيامَ العنفوان تَصْرُخان عاليًا بأنّنا سنقاتل ولن نستسلم حتى تحرير فلسطين؟

بعد عرفات

بعد وفاة عرفات بدأ العالمُ يتحرك، وكلٌّ يغنّي على ليلاه. ومادمنا نتكلم عن الإرث، فكلُّ مَنْ له علاقة يتهافت عليه كما تتهافت الأكَلَةُ على قصعتها، إلاّ هذا الشعبَ اليتيم. قيل: «لا بدّ من الانتخابات،» فجَرَتِ الانتخاباتُ البلديةُ فعلاً، وبمستوًى يليق بهذا الشعب

١ ـ الحوار بين رابين ونتنياهو في الكنيست بتاريخ ٢١ أيلول ١٩٩٣، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ١٦ خريف ١٩٩٣.



لا نتوقّع من خلفاء عرفات أن يخالفوا نهجه في الاعتراف بـ «إسرائيل» وشطب حقّ العودة والتخلي عن القدس الشرقية والقبول بعدم تفكيك المستوطنات الكبيرة

المكافح، ولكنّها لم تكن الأولى كما يَزْعمون. فقد كانت هناك انتخاباتٌ بلديةٌ حرّةٌ أثناء الاحتلال، إذ تحوّلت البلدياتُ آنذاك إلى حكومات محلية، فناكفت الاحتلال، الذي حلَّ المجالسَ المنتخبةَ في سبعينيات القرن الماضي، بل حاول اغتيالَ بعض رؤساء البلديات (بسام الشكعة، كريم خلف). ولا شكّ في أنّ انتخابات المجالس البلدية أمر مستحسَن، لأنّه لا بدّ من وجود هيئات تسيِّر أمورَ الناس اليومية. لكنّ المشكلة هي في انتخابات **رئاسة السلطة**؛ إذ كيف يكون لهذه الانتخابات أهميةٌ وطنيةٌ في ظلّ الاحتلال؟ وهذا يقودنا إلى الحديث عن أمريْن: (أ) تمثيل السلطة جزءًا من الشعب الفلسطيني دون الجزء الأكبر؛ و(ب) تجربة هذه السلطة السلبية منذ قيامها في الضفة وغزة.

فأما الأمر الأول فيَطْرح بدوره أمريْن: (أ) مَنْ يمثّل فلسطينيي الشتات؟ و(ب) ألا يؤدّي ذلك إلى تمييع حقّهم في العودة ــ ولا نتكلم هنا عن الحقّ القانونيّ الذي لا يضيع بالتقادم، بل بالإهمال وفرض الأمر الواقع؟ وكلّنا على علم بما تواجهه الدولُ المضيفةُ للاجئين من ضغطٍ لاستيعابهم، وبإغراءِ شبابهم بالهجرة إلى دول غربية بفتح أبواب العمل لهم. ولنكن واضحين: إنّ قادة المنظمة قد أداروا ظهورَهم لفلسطينيي الشتات يومَ وَقّعوا اتفاقَ أوسلو وأقاموا لهم سلطةً في الضفة وغزة، خاصةً أنّه لم يَصْدر عنهم تصريحٌ واضحٌ يبيِّن موقفَهم المحددَ من هذه المسألة.

وأما تجربة السلطة في الضفة وغزة فتستدعي ملاحظتيْن: **الأولى**، صفةُ الفساد والمحسوبية وسوء الإدارة. و**الثانية**، عجزُ السطة في ظلّ الاحتلال عن فعل أيّ شيء مؤثّر منذ أوسلو. ولعلّنا نسأل في هذا المجال: ألم تزد في زمنها وتيرةُ الاستيطان؟ ألم يقوِّض الاحتلالُ بنيتَها التحتية حين اشتدت الانتفاضة؟ ألم يحاصِرْ رئيسَها في مقرّه حين لم يعجبه التعاملُ معه؟ وهنا يجب ألاّ ننسى أنّ انتفاضة الأقصى تفجّرتْ بسبب استشراء الاستيطان وتكالُب الاحتلال على الأرض، فكانت دليلاً واضحًا على فشل أوسلو وفشل السلطة التي خَرَجتْ من رحم أوسلو. لكنّ قائلهم يزعم أنّ العلّة هي في عسكرة الانتفاضة. لا يا سيدي! لو أنّ اتفاق أوسلو أعطى ولو بصيصَ أمل لهذا الشعب المنكوب، ولو كانت السلطةُ خادمةً حقيقيةً لشعبها، لَمَا قامت الانتفاضةُ، لا بشكلها السلمي ولا بشكلها العسكري. أضف إلى ذلك أنّ وجود السلطة جَعَلَ العالمَ يظنُّ أنّ هناك دولتين تتقاتلان على أرض «متنازَع» عليها، لا شعبًا مغلوبًا على أمره يثور على الاحتلال. كذلك أصبحتْ سلطةُ الاحتلال في حِلٍّ من مسؤوليتها القانونية تجاه الشعب المحتل، فأصبح لزامًا على السلطة أن تُنْفق أموالَ الشعب الفلسطيني على البنية التحتية والخدمات، في حين أنّ ذلك واجب مفروض على الاحتلال. ولم يعد ذلك بخير أفضل على الشعب: فالضرائب المرهِقة لم تتغير، إنْ لم تزدْ، بل صُوِّرتْ على أنّها واجبٌ وطنيٌّ، وَعُدَّ المتخلِّفُ عنه خائنًا لوطنه؛ والخدماتُ لم تتحسنْ، إنْ لم تَسُؤْ؛ وجرذانُ الفساد تناسلتْ وسَمنتْ.

وهذا يقودنا إلى الدعوة إلى الاكتفاء بانتخابات المجالس البلدية، وإلى أن تَحْصر السلطةُ عملَها بالإشراف على البلديات، وأن تَنْفض يدَها من السياسة، وتعيدَ لمنظمة التحرير أمرَ تمثيل الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج تمثيلاً سياسيًا. فهذا من شأنه ألاّ تكون المنظمةُ، ممثَّلةً بالسلطة، تحت قبضة الاحتلال، ويُناط كلُّ تفاوض حول القضية بالمنظمة لا بالسلطة.

ولكنْ ينبغي الاعترافُ بأنّ المنظمة في بنيتها الحالية ليست أحسن حالاً من السلطة؛ فلا بدّ لها من أن تعادَ هيكلتُها وتحسَّنَ إدارتُها ويوسَّعَ نطاقُ تمثيلها. ولا شكّ في صحة ما يردده الكثيرون أنّنا ما زلنا في مرحلة تحرر، لا في مرحلة بناء دولة. أما المتهافتون على الدولة فليتريّثوا قليلاً، لأنّ الوطنَ والأرضَ أغلى من الدولة وأغلى من جواز السفر.

عمّان

الأرقام الهندية

بين العربية واللاتينية

. شريف يحيى الأمين* .

دَرَجَتْ معظمُ وسائل الإعلام العربية على استعمال الأرقام الحسابية العددية لترقيم الصفحات وذِكْر التاريخ وأرقام الهواتف ودرجات الحرارة بالخط اللاتيني: ...1, 2, 3 متوهّمين أنّ هذه الأرقام عربية، بدلاً من الأرقام ١ ـ ٢ ـ ٣... المكتوبة بالخط العربي.

ويَظْهر أنّ جامعة الدول العربية، كما علمتُ، أصْدرتْ في أواخر القرن الماضي تعميمًا رسميًا تَطْلب فيه استعمالَ هذه الأرقام. ولا ندري على ماذا اعتَمَدَتْ حتى طَلَبتْ مثلَ هذا الأمر؟! ولعلّها هي التي شَجَّعتْ هذه البدعةَ.

والواقع أنّ العرب لم يَعْرفوا هذه الأرقامَ، بل كانوا حتى بعد تعريب الدواوين يَكْتبون بالحروف كما يلْفظون؛ مثاله: ثلاثة آلاف فارس (لا ٣٠٠٠ فارس). حتى إنّ كبار المؤرّخين لزموا هذه الطريقةَ عند ذِكْر السنين مثل الطبري والمسعودي وابن الأثير؛ فمن ذلك كتابةُ الأخير: «ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة.»

ولمّا كانت أكثرُ البلاد العربية قبل الفتوحات الإسلامية خاضعةً لحكم الرومان، فإنّ الحروف اليونانية، لغةَ الحكّام، كانت هي المستعمَلةَ في الدواوين. وبقي هذا الأمرُ شائعًا في الدولة الأموية لتسليمهم التدوينَ والكتابةَ إلى الأعاجم، حتى قام عبد الملك بتعريب السجلاّت ـ ولكنْ من حيث اللغة فقط، أما من حيث الحسابُ وعمليّاتُه فقد أبقى على الحروف اليونانية.

ولما شَيَّدَ المنصورُ بغدادَ، أضْحى يَؤمُّ هذه المدينةَ كثيرٌ من الناس من مختلف البقاع والطبقات. وكان من بين هؤلاء هنديٌّ اسمُه كنكة، عالِمٌ بالفلك والحساب، ومعه كتابٌ يبحث في أصول الحساب والأرقام. فأُعجب به المنصور، وطَلَبَ من إبراهيم حبيب الفزاري (توفي سنة ١٦١ هـ) نقلَ هذا الكتاب إلى العربية، وعُرِف باسم **سند هند**، ومعناها «دهر الدهور» كما يُوضح المسعودي. وقد يكون هذا المعنى لملازمة الحساب والأرقام للدهور، ولأهميّتها لكلّ العصور والأزمنة. وعُرفتْ هذه الأرقامُ منذ ذلك الوقت بالحساب الهندي، ومازالت كذلك حتى يومنا هذا، ولكنّها كُتبتْ بخطٍ يوافق ويحاكي الخطَّ العربي في مختلف مراحله وعصوره.

وقد أخذتْ هذه الأرقامُ أهميّتَها العلميةَ الحقيقيةَ على يد محمد بن موسى أبي عبد الله الخوارزمي (توفّي سنة ٢٣٣ هـ)، مخترعِ علم الجبر والمقابلة، ومذيعِ الحساب الهندي بين العرب والمسلمين. ذلك لأنّه كان منقطعًا إلى خزانة الحكمة للمأمون ومشجِّعَه على تأليف هذا الكتاب كما ذُكر. وقد ألّف هذا العالِمُ المسلمُ كتبًا كثيرةً بيَّنَ فيها الأرقامَ الحسابية بما فيها الصفرُ، وشَرَحَ في كتبه كيفيةَ إجراء العمليات الحسابية بتلك الأرقام شرحًا عمليًا ضَمَّنَه العديدَ من الأمثلة. وبذلك أصبح من السهلِ الجمعُ والطَّرحُ والضربُ والقسْمةُ باستعمال هذا الحساب. وعاد الهنود، مع الفتوحات الإسلامية، فتعلّموا استخدامَ الأرقام والصفرِ مرسومًا نقطةً، إذ إنّهم لم يكونوا قد استفادوا من الأرقام التي وضعوها ولا من الصفر الذي أوْجدوه، وسمّوْها الأرقامَ العربية، كما أوْضح ذلك الدكتور عمر فرّوخ، علمًا أنّ الأرقام والصفر ظَهَرتْ في كتب عربية أُلِّفتْ منذ سنة ٢٧٤ هـ قبل أن تَظْهر في الكتب الهندية.

وقد أَحْسن العربُ والمسلمون استخدامَ الأرقام الهندية، ونشروها في كل بقاع المسلمين، وبعد ذلك انتشرتْ في كل أرجاء المعمورة. وهم لم يَنْسبوا هذه الأرقامَ إليهم، بل إنّ المسعودي يؤكّد نسبتَها إلى الهنود في ما رواه من أنّ علماء الهند أَحْدثوا من جملةِ ما أحدثوا من العلوم ـ زمنَ أولِ ملوكهم، وهو

* ـ كاتب من لبنان.



لنا الأمل الكبير في العودة إلى كتابة الأرقام بالخط العربي

البرهمن الأكبر والملك المقدّم والإمام فيها - هذه الأحرفَ التسعةَ المحيطةَ بالحساب الهندي.

لماذا سمّيت بـ «العربية»؟

وأما سببُ تسمية هذه الأرقام بالعربية فقد جاءنا من الغرب، وتابَعَهُم عليها بعضُ العرب، ووهموا أنّهم اكتشفوا ما لم يكتشفه غيرُهم. والمسألة أنّ البابا سلفستر الثاني (٩٤٥ - ١٠٠٣ م) المتنوِّر والفذّ، والذي دَرَسَ في بلاد الأندلس، أَخَذَ عن علماء المسلمين أشياءَ كثيرةً، أهمُّها الرياضياتُ وعلمُ الحساب، وأتْقنها. ولما اعتلى كرسيَّ البابوية في أواخر حياته (٩٩٩ م) أَمَرَ بنقل هذه العلوم إلى اللاتينية، ومن ضِمْنها كتبُ الخوارزمي مع غيرها من الكتب، وسُمّيتْ بعد ذلك بالأرقام العربية (les chiffres arabes) لأنّها أُخذتْ من العرب والمسلمين. وأصلُ الكلمة عربيٌّ (صفر)، ومنه صيغت «شيفرة»، ثم عُرِّبتْ. وقد كُتبتْ هذه الأرقامُ بطريقة تناسب الخطَّ اللاتيني وتشاكله وتحاكيه وتنسجم معه.

وقد وردتْ بعضُ الروايات الحديثة تفيد بأنّ الهنود كانوا يكتبون بطريقتين: إحداهما الخط العربي المشرقي: ١ - ٢ - ٣ -...، والثانية «الغبارية» لأنّ الهنود كانوا يَرْسمونها على مسطّحات من التراب الناعم على أساس الزوايا، والمختَرَعة والمتخيّلة حديثًا والتي انتشر استعمالُها، حسب رأيهم، في الأندلس.

وليصحّ هذا الادّعاءُ أو نفيُه علينا أن نعود إلى الآثار الباقية في الأندلس الإسلامية العربية لنرى التواريخ الموجودةَ من هذه الآثار في الجوامع والقصور والمقابر وغيرها، إنْ ثَبَتَ وجودُها ولم تعف آثارُها، ووثائقَ التراث الإسلامي في مكتب الغرب. وقد وَرَدَ في كتاب **تاريخ العرب** (حتّي، جرجي، جبّور، ص ٦٥٧) أنّ الأرقام الغبارية رومانية الأصل، وقد عُرِفتْ في إسبانيا قبل مجيء العرب، وأُشيرَ في الحاشية إلى مصدريْن، أحدُهما **مقدمة ابن خلدون** ص ٤؛ ولكنّي لدى تفتيشي في المقدّمة لم أعْثر على أصل لهذه الرواية، لا في الصفحة المشار إليها ولا في الفصول المتعلّقة بالأعدادِ أو الهندسةِ أو كتابة الخطوط!

ولدى سؤالي بعضَ موظّفي السفارة الهندية في بيروت، بعد أن أَطْلعتُهم على صورة الأرقام على أساس الزوايا، أَنْكَرَ وجودَ هذه الأرقام الكتابية، وقال إنّهم في الهند حاليًا يستعملون اللغة الإنكليزية وأرقامَها (لغة المستعمرين)، وإنّ عندهم أكثرَ من خمسين ومائة خط - وهذا مشابهٌ لما ذكره ابنُ النديم في كتابه **الفهرست** بأنّ في السند (إحدى مقاطعات الهند) أكثرَ من مائتيْ قلم أيْ خطّ.

وأما في المغرب العربي، فإنّ السبب في استعمال الأرقام والحروف بالخط اللاتيني هو نتيجةٌ للفرنسة، الموازيةِ والمصاحبةِ للاستعمار الفرنسي. وهم يقومون، بعد نيلهم الاستقلالَ، بعملية تعريب شاملة. كما أنّه لم تختفِ كليًا الأرقامُ العربيةُ فضلاً عن اللغة العربية، كما هو واضح من الصفحة الأولى لجريدة **لسان المغرب** الصادرة بتاريخ ١٩٠٨ مثلاً.

وقد عُثِر على قطعة نقود من عهد الملك روجر الثاني، ملكِ صقلية، تَحْمل تاريخًا مكتوبًا بالأرقام العربية ١١٣٨م، ومعها نقش عربي (**تاريخ العرب** ص ٦٩٤). كما أنّ المستشرق الإيطالي الدكتور مارتينو ماريو مورينو أفاد في كتابه **المسلمون في صقلية** (ص ٢٠) أنّ النقودِ التي ضربها النورمان سنةَ فَتَحوا پالرمو (١٠٩١ م) كانت حاملةً - بجانب اسم روبر، أخي روجار - الآيةَ ﴿هو الذي أَرْسل رسولَه بالهدى ودين الحقّ ليُظْهره على الدِّين كلّه ولو كره المشركون﴾. وكانت السنة المرقومة فيها هي السنة الهجرية.

الخطّان، في الشكل

ومن المفيد إجراءُ المقارنة بين الخطّيْن العربي واللاتيني. فمن الواضح أنّ التشابه الوحيد بينهما هو بين الرقميْن واحد وتسعة. ثم إنّه من الممكن كتابة

ألم يبقَ من عروبتنا
إلاّ أرقامٌ هنديةٌ
بخطّ لاتيني نتمسّك به؟

الأرقـام بالخط العـربي على أسـاس الزوايا دون أن يعني ذلك شيئًا خاصًا؛ فقد تغيّرتْ كتابةُ الخطّيْن العـربي واللاتيني وفقًا للخطّاطين والتفنن في الخط وتزيينه وتحسينه ووفقًا للآلات المستعملة في كتابته. ثم إنّ الخطّ اللاتيني أقـربُ إلى الهندي لأنّ الأصـول متقاربة بين الشعوب الهندو - أوروبية.

أما بالنسبة إلى الخط العربي فإنّه بقي محافظًا على كثير من شكله، ما عدا الرقـميْن ٤ و ٦. إلاّ أنّ الإيرانيين، وهم يستعملون الأحرفَ العربيةَ للغة الفارسية، مازالوا يكتبون بالطريقة القديمة للأرقام.

ومع أنّ الأستاذ حسن قاسم حبش البيّاتي في كتابه الرائع والممتع **نفائس الخطّ العربي** لم يتحدّث عن كتابة الأرقام، فإنّه نَشَرَ صورَ بعض الخطوط للآيات والأحاديث والأدعية، وكان بعضُها مذيَّلاً بالتاريخ بالأرقام. وفي إحدى وثائقه يَظْهر خطّان مذيّلان، الأول بتاريخ ٤٠٨ والثانية بتاريخ ٤١٤. كذلك نَشَرَ صورةً عن الخط النيسابوري تُبيِّن شكل الرقم «ثلاثة» مقلوبًا من اليسار إلى اليمين. وقد أتْحفنا يوسف زعبلاوي في **ملحق العربي** صورًا نادرةً عن الأرقام بالشكل الهندي والعربي وبنوعين وشكليْن من الخط اللاتيني، ويتبيّن أنّها ليست على نسق واحد، ولعلّه حصل عليها من بعض الموسوعات العالمية. والفرق بين الخطيْن العربي واللاتيني واضح ومختلف كليًا: فالصفر بالعربي نقطة، وباللاتيني دائرة؛ ثم إنّ الكتابة بالخط العربي تبدأ من اليمين إلى اليسار، وباللاتيني تبدأ من اليسار إلى اليمين. أما بالعربي فإنّ النطق يبدأ من اليمين إلى اليسار، ولكنّنا الآن نَلْفظ من الواحد إلى المئة بصورة صحيحة فنقول مثلاً: ثلاثة وعشرون وتسعة وتسعون؛ وإذا زاد العدد عن المئة فيبدأ اللفظ، خطأً، من اليسار إلى اليمين، مثالُه: ١١٩٧٣؛ فالأصل أن نقول ثلاثة وسبعون وتسعماية وأحد عشر ألفًا، أيْ كما هو مكتوب وبنسق واحد، أما حاليًا فنقول أحد عشر ألفًا وتسعماية وثلاثة وسبعون.

ونشير في النهاية إلى حساب الجُمّل، أيْ تدوين الأرقام والأعداد الحسابية بالأحرف بالأبجدية. ويبدو أنّ هذا الحساب قديم، وقد أشار إليه الجوهري (المتوفى سنة ٣٩٣ هـ) في **الصحاح**. أما كيفية استخدامه عمليًا فليس عندنا من الوثائق ما يبيِّنها بدقة. ولكنْ يَكْثر في عصورنا استعمالُه عند تاريخ الولادة أو الوفاة، كقول المرحوم الشيخ شهاب المصري يرثي إبراهيم باشا ومؤرِّخًا وفاته سنة ١٢٦٤ هـ:

«فمضى وقلت مؤرِّخًا: اللّه يرحم مَنْ مضى

٦٦ - ٢٥٨ - ٩٠ - ٨٥٠.

١٢٦٤ هـ .».

أملُنا الكبير

وبالنهاية فإنّ لنا الأملَ الكبيرَ من الجميع في العودة إلى كتابة الأرقام بالخط العربي: ١ - ٢ - ٣... ٩، لا بالخط اللاتيني، حتى نكون منسجمين مع أنفسنا وشخصيّتنا، وكأنّه لم يبقَ من عروبتنا إلاّ أرقامٌ هنديةٌ بخط لاتيني نتمسك بها!

جنوب لبنان

مِغْناجٌ... اسمُهُ الشِّعر

. عماد فؤاد* .

كلَّ ليلةٍ،
يقفُ تحتَ رحْمةِ الضَّوءِ الموشّى
بالظِّلال.
يحبُّ العتمةَ،
حاملُ الخَرَزِ
ذو الوشم.
أمْكرُ من ذئبٍ في الخلاءِ،
وأخفُّ من ريحٍ
على أوراقِ الشجرْ.

❖ ❖

هو الصَّائدُ
نَعرِفُ،
لكنَّه يتخفّى في سمْتِ الفريسةِ.
يقولُ:
«ليس كلُّ الذي في يديَّ حريقًا،
لا سُلالتي أنجبتْ غيري،
ولا رَفعْتُ محبَّتي البيضاءَ
عن أبنائي المخلصينَ.
وأنا أنا
ابنٌ للمصادفةِ،
مَكْمَنُ القنْصِ،
وغزالةُ الشَّاطر.»

❖ ❖

ملعونٌ
يمشي ساحبًا خلفَه سربًا من البومِ،
من النَّحلِ،
من مَلِكاتِ النَّحلِ.
نايُهُ:
جرحُه المفتوحُ على وقعِ الخُطى.
يَحطُّ قدمًا في الهواءِ،
وأُخرى على الأرضِ.
ليس براقصٍ،
لكنَّه غندورٌ.
مغناجٌ ابنُ اللئيمة،
يمرُّ على الصَّبايا في النَّهارِ
ويَهْمسُ لهنَّ في خُلوة الليلِ:
«يا شقيقاتِ روحي
في الشَّجنْ.»

❖ ❖

كنَّا نظنُّه عربيدًا
يَدُوخُ من كأسٍ
ويُسْكِرُهُ نبيذُنا المعتَّقُ.
لكنَّه كلَّما شربَ،
كان يكتبُ ليمحو،
ويمحو ليكتب.
يُمْسكُ بيديه خناقَ جثَّةٍ اسمُها
المعنى،
يَمْسحُ بكرامتِها الأرضَ
أمامَ عيوننا
ويَضحكُ،
رافعًا رايتَهُ الحمراءَ في ندى الليلِ،
كأنَّهُ امتلكَ اللُّغاتِ
أو وَرِثَ أختامَها.

❖ ❖

حاولْنا صيدَهُ مرارًا.
كنَّا نُعِدُّ له شِراكَنا في الفجرِ،
نَسنُّ سكاكينَ وَرِثْناها عن جدودنا
الميتين.
في الليالي التي لا يُنيرُها قمر
نَفْرشُ طريقَه بالفخاخِ،
ونقومُ منْ نومنا كلَّ صبحٍ
لنراه يَدوس على عشبِ الأرضِ،

* ـ شاعر مصري مقيم في بلجيكا. أصدر ثلاث مجموعات شعرية.

فتُصَلْصِلُ أجراسُهُ المعلَّقةُ في ثيابهِ
لتختبئَ في جحورِها كلابُ الشَّوارعِ
وتَصرخَ في البريَّةِ
بناتُ آوى.

❖ ❖

ما مَنَعَنا عنه
ليس الخوفَ
ولا رهبةَ أن يكون في حوزتنا؛
لا ذهبَه الذي يعمي عيونَنا؛
ولا لقمتَه المغمَّسةَ في ملحِ التَّشردِ؛
لا فضَّتَه التي تَبْرقُ في الأصيلِ الغريبِ،
ولا ثوبَه المهلهلَ الذي يجفّفه
على فزَّاعة الطيور فوق الرّابية.
لكنَّهُ شيءٌ به،
لو مسكناه مرةً
فقط،
لو!!

❖ ❖

مخفوراً بأسرابه،
بصليلِ أجراسه،
بنُورِ عينيْه اللتيْن تتبسّمان،
بزمّة شفتيْه الغاضبتيْن،
كان يَعْبر بقدميْه الحافيتيْن فوق ظلالنا
فنشعرُ بخفَّةِ خطوِه الهشّ
فوق صدورنا،
ويمسُّنا رفيفُ أجنحةٍ غامضة.

❖ ❖

ابنُ الحرام
يظلُّ يدورُ على عقبيْه أمام عيوننا
هازئًا مِنْ تخاذلنا،
مِنْ رؤوسِنا المحنيَّةِ في مذلَّةِ الخسران،
مِنْ دورانِنا ونحن عائدون
فارغي الأيدي،
ليس سوى
كَدْمةٍ زرقاءَ فوق شفاهِنا
من عضَّةِ النَّدمْ!

مصر. بلجيكا

قصائد من العراق

. ســـامي مـــهــــدي* .

أبناء إينّنا

هيَ نجمةٌ في الأرضِ فارقتِ السَّماءَ
وآثرتْ هذا المكانْ
داراً لها، واستوطنتْها وهْيَ تفترشُ الجِنانْ
وتقولُ: يا خيلَ الزمانْ،
ها نحنُ نبدأ؛
فالبدايةُ من هنا، وهنا سأعطي الصولجانْ،
فيكونَ من وِلْدي ملوكْ،
ويكونَ كهّانٌ تساوِرُهمْ شكوكْ
من فرطِ تقواهمْ،
ويناوؤونَ باليدِ والبصيرةِ واللسانْ.

بِكْرٌ هيَ الأشياءُ تَحْلمُ أن تكونْ
فتكونَ بالأسماءِ يَنْطِقُها البنونْ
ويُنمّقونَ لها الصفاتْ
ويُزيّنون بها الحياةْ
ويكلّمونَ اللهَ دونَ تملُّقٍ، أو شُفْعَةٍ،
وكأنهم أبناؤهُ المُتألِّهونْ،
ويعمّرونَ الأرضَ فهْيَ بما بنوا فيها بلادْ:
مدنٌ، وآلهةٌ، وكهّانٌ، وأبطالٌ شِدادْ
ومواطنونْ
«سودُ الرؤوسِ» مُهَذّبونْ
وَرِعُونَ أكثرَ من رؤى كهّانهمْ
وأبرُّ منهم عندما يتعبّدونْ.
مدنٌ، وكلُّ مدينةٍ حلمٌ بألفِ غدٍ سعيدْ
وبكلِّ ما تهَبُ المواسمُ من حصيدْ:
ذهبٌ مُصَفّى في الحقولْ،
وغلائلٌ من فضةٍ في الليلِ تفترشُ المراعيَ والسهولْ،
والزرعُ أنضرُ ما يكونْ،
والضرعُ أغدقُ ما يكونْ،
ولكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ في الحصادْ.
مدنٌ كثارْ
ومرافئٌ اكتَظّتْ بما جَلَبَ التجارْ
من لازوردٍ، أو عطورٍ، أو نُضارْ،
وبكلِّ ما حملوهُ من خشبٍ ومن حجرٍ لتزدهرَ الديارْ:
فسفائنٌ تأتي إليها من «مَلوخا» أو «مَكانْ،»
وقوافلٌ تترى عليها من بعيدٍ من بعيدْ
ممّا وراءَ الشمسِ والأفقِ المزوّقِ بالوعودْ.
والكونُ، بعدُ، طراوةٌ وعذوبةٌ تحتَ اللسانْ
و«ذوو الرؤوسِ السودِ» منهمكونَ في تدوينِ تأتأةِ الزمانْ
شعراً، وتنظيمِ الوجودْ،
ولكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ في الخلودْ.

لكنّها، وا ويلتاهْ،
مدنٌ مُسوَّرةٌ،
وكلُّ مدينة تَخِذَتْ لها مَلكًا تَجَبَّرَ وادّعى أنَّ الإلهْ
هو مَنْ حباهُ الملكَ، فهو مُفوَّضٌ في ما حباهْ
وغلا، فأعلنَ أنه «ملكُ الملوكِ،»
ولا مليكَ لهمْ سواهْ.
مدنٌ مبعثرةٌ،
وكلُّ مدينةٍ تبغي على الأخرى،
وتؤْثِرُ نفسَها بجميعِ ما طَمحتْ إليهِ من أراضٍ أو مياهْ،
فإذا «الرؤوسُ السودُ» يَلْعنُ بعضُها بعضًا،
ويَقْتلُ بعضُها بعضًا،
فلا السُّفهاءُ يرتدعونَ،
لا الزُّهّادُ يقتنعونَ،

---

* - شاعر وناقد من العراق المحتل.

لا الحكماءُ يحتكمونَ،
كلٌّ يدّعي وصلاً بليلى،
وَهْيَ جاريةٌ تولولُ في حماهْ!
مدنٌ تَلُوب
من الشمالِ إلى الجنوبْ
فالموتُ داخلَها وخارجَها يصولْ،
كالغولِ يلتهمُ الفرائسَ في البيوتِ وفي الدروبْ.
مدنٌ يحاربُ بعضُها بعضًا فتهلكُها الحروبْ
وتدكّها دكًّا، فلا عمرانَ فيها،
لا معابدَ، لا مدارسَ، لا مراتعَ، لا حقول.
وليسَ ثمةَ من عزاءْ
لِمُشَرّديها الهائمينَ سوى التفجّعِ والبكاءْ.
أرأيتَ شعبًا وهو يتّخذُ البكاءْ
طقسًا،
ويبحثُ عن قتيلْ
يبكيهِ في كلِّ المواسمِ والفصولْ؟
أرأيتَ شعبًا وهْوَ يُبدعُ للعويلْ
فنًّا،
يسمّيهِ «الرثاءْ»؟

هو ذلكَ الشعبُ المعذَّبُ لا سواهُ من الشعوبْ
سَلْ «أورَ» عنهُ وكمْ لها في ما رثاها من نصيبْ
وسلِ الطُّفوفَ وكمْ بكى فيها على ذكرى شهيدْ
فكأنّه نَذَرَتْهُ «إينَنّا» لكي ينعى،
وكي يلدَ النُّعاةْ
جيلاً فجيلاً، ثمَّ ينتظر الطغاةَ
أو الغزاةْ
كي يحملَ البلوى وينعى من جديدْ!
أفما لهذا الشعبِ من ثوبٍ جديدٍ للحياةْ؟
أتظلُّ تَقْضمُهُ طواحينُ الحروبْ؟
أوَليسَ للأحياءِ من ريٍّ سوى ريقِ النُّعاةْ؟
أيظلُّ هذا السُّوسُ يَنْخرُ أكبدَ الباكينَ جيلاً بعدَ جيلْ؟
أوَ ما هنالكَ للمحبَّةِ من سبيلْ
غيرُ التفجّعِ في المقابرِ والبكاءِ على الطلولْ؟
تمّوزُ ماتَ؟!
أجلْ، ولكنَّ الربيعْ

يأتي إلينا كلَّ عامْ
ويفضُّ أختامَ الضروعْ،
ويَربُّ بالضَحكاتِ أنساغَ الزروعْ،
ويضيءُ بالأقمارِ أكتافَ المعابرِ والدروب،
فتخفُّ أجنحةُ الحبيبِ إلى الحبيبِ،
ولا ملامْ.
تمّوزُ ماتَ؟
أجلْ، و«إينَنّا» قضتْ،
والعالمُ السفليُّ غصٌّ بساكنيه،
ففيمَ ندفعُ بالمزيدْ؟
إنّا هنا الأحياءُ، نفعلُ ما نريدُ،
ونستطيعْ،
إنْ كانَ فينا مَنْ يحنُّ إلى جديدْ،
غيرِ ادِّكاراتِ الحروبِ،
وغيرِ أنقاضِ الكلامْ.
فهلمَّ نَنْفض ذلكَ الإرثَ الجديبْ
عنّا، ونمتحن القلوبَ بما تؤمِّلهُ القلوبْ،
ونعيد تشكيلَ الحياةِ بما تريدُ لنا الحياةْ
كي نَكْتبَ الفصلَ الأخيرَ
بغيرِ ما اعتدناهُ من رخوِ الختامْ.

وادي الدموع

سوفَ لا أكتبُ إلاّ ما أراهْ

سوفَ لا أمحو سوى فاصلةٍ ما بينَ صوتي وصداهْ

وأردُّ القولَ بالقولِ على نفسي

إذا ما غمغمتْ: وا ضيعتاهْ!

سُرِقَتْ في الليلِ «ألواحُ القدرْ.»

سُرِقَتْ، فاضطربَ الكونُ ومادتْ بالبشرْ

سُرَّةُ الأرضِ، فعصفٌ وكسوفْ،

وغزَتْها من قرارِ العالمِ السفليِّ آلافُ الشياطينِ

صفوفًا فصفوفْ،

وفَشَتْ فيها الطواعينُ فصرعى بالألوفْ،

ومياهُ الأنهرِ اسودَّتْ بما ألقتْ بهِ سودُ الحتوفْ،

وطغى الموتُ فما عادَ أحدْ

يسألُ العابرَ عن أُمٍّ لهُ لم يرَها، أو عن وَلَدْ

ضاعَ في الموتى،

ولم يبقَ شجرْ

ثابتًا في أرضهِ،

أو حجرٌ بينَ الحجرْ؛

فهو موتٌ متقنُ الصنعِ، وقتلٌ عبقريٌّ في زُمَرْ.

وقفَ الناعي على الأطلالِ واستسقى الغمامْ

وَرَثى الأمواتَ والأحياءَ،

حتى صَدِئتْ كلُّ مراثيهِ وأعياهُ الكلامْ

فبكى، واستغفرَ اللهَ، وأقعى في الظلامْ.

ما الذي يعطيهِ للموتى وللأحياءِ نَوْحٌ وعويلْ

غيرُ ما يعطي ذليلٌ لذليلْ؟

مَنْ ترى يُقْنعُ أمواتًا بأنَّ الموتَ بُرْءٌ وسلامْ؟

مَنْ ترى يُقنعُ أحياءً بأنَّ العيشَ في أقبيةِ الوحلِ اكتمالٌ وانسجامْ؟

أيُّها الموتى،

أنلتمْ ما أردتمْ من سلامٍ في القبورْ؟

أيُّها الأحياءُ،

هلْ أبقى لكمْ مَنْ سَرَقَ «الألواحَ» شيئًا لِغَدٍ غيرَ القشورْ؟

صَمَتَ الأحياءُ والموتى،

وكانَ الصمتُ ناقوسَ الختامْ.

أبدًا، لنْ تَحْبلَ الأرضُ بنبعٍ أو شجرْ.

أبدًا، لن يصفوَ الماءُ، ولا الزهرُ يضوعْ،

أو ترقَّ الريحُ، أو تندى الضروعْ.

أبدًا، لن تَخْفتَ الآهاتُ في وادي الدموعْ.

أبدًا، لن يَرْقصَ الأحياءُ في ضوءِ القمرْ،

أو يغنّوا تحتَ زَخّاتِ المطرْ،

أبدًا، لن يهدأَ الأمواتُ، أو يتَّزنَ الكونُ،

و«ألواحُ القدر»

في يَدَيْ تنّينِ هذا العصرِ،

يُمليها ويطويها كما شاءَ، ويلهو بالجموعْ كيفما شاءَ: دُمًى دونَ خطرْ!

فمَنِ الصِّنديدُ؟

مَنْ يصطادُ هذا الوحشَ؟

مَنْ يُرديهِ؟

مَنْ يسترجعُ «الألواحَ»

كي توقدَ في أعراسهِ كلُّ الشموعْ؟

لم يزلْ في الحُفَرِ السوداءِ نبضٌ ودبيبْ.

لم يزلْ في دارسِ الأطلالِ جمرٌ ولهيبْ

يَنْثرانِ الشَّررَ المضمرَ وردًا في الدروبْ

ويُضيئانِ لمن يأتي السبيلْ.

لم تزلْ تومضُ في أقصى المدارْ
نجمةٌ خضراءُ كالعشبِ، وترنو في انتظارْ
لحظةَ المسرى إلى الوادي،
وتلويحِ الدليلْ.
لم يزلْ ثمَّةَ مَنْ يَقْرعُ بابَ الصمتِ
في الليلِ الطويلْ.
لم يزلْ ثمَّةَ من يَبْحثُ عن مختطِفِ
«الألواحِ» و«الألواح»
في جوفِ البراري والسهولْ.
لم يزلْ ثمَّةَ مَنْ يعرفُ ألاّ مستحيلْ!

أصحا الوادي على قرعِ طبولْ؟
أمُنادٍ صاحَ في الأحياءِ والموتى وما أسمعَ رَجْعٌ من نداه؟
سوفَ لا أكتبُ إلاّ ما أراهْ.
سوفَ لا أمحو سوى فاصلةٍ ما بينَ صوتي وصداهْ
وأردُّ القولَ بالقولِ على نفسي
إذا ما رنَّمتْ: يا فرحتاهْ!

شكرًا

إلى شاعر غير عراقي يقترح على شعراء عراقيين أن يشكروا المحتلين!

سنقولها :
« شكرًا »!
وماذا بعدُ؟
هل تصفو لكَ الأشياءُ، أو تحلو، بها؟
وهلِ الجديدُ سوى غبارٍ كانَ في جيبِ القديمِ؟
فكيفَ تطلبُ أنْ نبيعَ دمَ البلادِ بدمعِها؟
لسنا منَ الغيمِ المُحَمَّلِ بالضفادعِ والوحولِ،
ولا منَ النُّطَفِ المُدنَّسةِ الهجينةِ.
نحنُ غُرَّتُها، البلادَ،
فكيفَ تطلبُ أنْ نخاتلَ في محبَّتها؟
ألأننا، كالماءِ، نقترحُ الحياةَ،
وكالرِّياحِ نُذيبُ ثلجَ الليلِ؟
أمْ تخشى أصابعَنا التي تفتضُّ
أختامَ البراكينِ الحبيسةِ؟
دَعكَ من عِلْكِ النكايةِ، فهو مرٌّ،

والثيابُ ثيابُنا،
وخيوطُنا أَوْلى برَتْقِ خروقِ أوَّلِها وآخرِها،
وأمّا أنتَ فاستغفرْ لنفسِكَ عُرْيَها.

ما كنتَ يومًا كاتبًا في «نِفَّرٍ»
أو راعيًا في «بابلٍ.»
ما كنتَ إلاّ ذلكَ المتفرِّجَ الأعشى،
فكيفَ ترى، إذنْ، ما يَصْبغُ الأشياءَ بالدمِ والدخانِ،
ويُطعِمُ الغربانَ من لحمِ الأوادمِ؟
دَعْكَ من سُمِّ الوشايةِ،
فالوشاةُ هنا جرادٌ،
لا مزيدَ على تَنَطُّعِهِمْ،
وقدْ فاضتْ بهِمْ سوقُ العمالةِ والبطالةِ.
فانتحلْ لكَ حرفةً أخرى،
إذا جاوزتَ سِنَّ الشعرِ،
وانقطعَ البريدُ!

بغداد

أسرار حروف أحمد ياسين*

. صالح الرحّال** .

حرف الألف

اصطفى اللّهُ أحمدَ ياسينَ،

فاصطفتْ ملائكةُ العَرْشِ،

والنبيّونَ كلُّهُم حولَ نعشهِ قائمونْ.

تهلّلَ حشْدُ النبيّينَ،

قال الذي عن يمينِ السماء:

هو الغيثُ يُخْصب هذي البطاحَ،

ولا غيْثَ إلاّ إذا اختلط العظمُ باللحمِ،

والماءُ بالتُراب،

وانسربَتْ قطرةٌ ها هنا في عروقِ الصخورْ.

اشربوا - أيُّها الحشْدُ - هذا النبيذَ الإلهيّ،

كأسًا على يومِ مولده،

وكأسيْن يومَ أتته البلايا،

وخابيةً حين استوى بيننا في السماءْ.

وقال الذي عن يسار:

كأنّي وقد طال مَكْثُ الحقيقةِ في الجسدِ الأحمديّ،

دعوتُ له اللّه أنْ يصطفيه،

اصطفاهُ،

وأنْ ينشرَ الحقَّ منْ جَسَدٍ مُقعَدٍ،

فانتشَرْ...

وكانَ الإلهُ الرحيمُ القديرُ السميعُ العظيمُ الصُوَرْ

يُتمتِمُ في ذاته:

أحمدُ ياسينُ هذا رِضًى، روضةٌ،

سِدْرَةٌ للبشَرْ.

حرف الحاء

حَمَدَ الحاكمُ اليعربيُّ إلهَ الجنودِ،

وقَدَّمَ كلَّ الأماني المريرةِ

للقائدِ العسكريِّ وقد جُرِحَتْ إصبَعُهْ،

وكان يُجرِّبُ بارودةَ الصَّيْدِ،

يضغطُ فوقَ الزِّنادِ

ليفتحَ نافذةً في دماغِ الصبيِّ محمد.

حرف الميم

مريمٌ هَدَّها المشهدُ البربريُّ:

احتراقٌ وحرقٌ وتحريقُ أوصالهم في العراءْ.

فقامت على أربعٍ، فاثنتيْنِ، لترفعَ هذا الدعاءْ:

«إلهي القديرَ العليَّ،

سَدومٌ دكَكْتَ حِجارتَها،

أرضُها أصبحتْ قاعَ بحرٍ(١) قتيلٍ من الملحِ،

قامَ على كَلْكَلِ المجرمينْ،

فابعثَنْ - سيّدي - صاعقهْ،

آيةً حارقهْ.

يهوذا، الذي مَدّ روحي على خشبةِ الصَّلْبِ،

يَصْلبني من جديدْ.

ويهوذا المراوِغُ

ما زالَ، والعسكرُ القادمونَ من الغرب

يأتمرون على إرثِ هذي البلادْ،

ويدعمهُمْ من هنا فاجرٌ،

من هناك سليلُ النبوءاتِ والهرطقات،

يقولونَ: إنّ المسيحَ المسيحْ

* - استُشهد في ٢٢ آذار من العام الماضي. (الآداب)

** - شاعر من سوريا.

١ - هو البحر الميّت أو بحيرة لوط، وكان قاعه أرضًا لقرى لوط وقد غطّاها هذا البحرُ المالحُ بعد فساد أهلها وخَسف الأرض بهم.

قادمٌ، قادمٌ فوقَ هذي الجُثَثْ.

يا مسيحَ السلامِ الحبيسْ،

يهوذا الذي باعَكَ الأمسِ

يَرْفعكَ الآن في هذه اللحظةِ الفاصلهْ

مَعْلمًا للحروبِ، وموتًا لهذي البلادِ،

وسيْفًا لربِّ الجنودْ.

فافْعلَنْ أيَّ شيءٍ يُعيدُ النقاءَ السلامْ،

إلهي، إلهي.»

حرف الدال

دَمُهُ أحمدٌ صباحٌ وشَمْسٌ

ونسيمٌ وسَلْسَلٌ وابتهاجُ.

أحمدٌ، أحمدٌ، حنانَيْكَ مَهْلاً

لا تُغادرْ، يا أيُّها المعراجُ.

فحُسيْنُ (السبْطُ) الشهيدُ حزينٌ

وحزينٌ صديقُهُ الحلاّجُ.

إنّهُ ذلك الجَسَدُ الأحمديُّ،

توضّأَ قبْلَ الصلاةِ الأخيرةِ،

يَدْخلُ الآنَ محرابَهُ، فيُصلّي،

ويقرأُ قرآنهُ الفجرَ شاهداً وشهيداً:

﴿طَه ما أنزلْنا عليْكَ القرآنَ لتشقى﴾

ويقرأُ، يقرأُ حتى يرى النورَ،

والنورُ يدخلُ كلَّ خلاياهُ فاصلةً

فاصلهْ،

ولم يبقَ إلاّ السفرْ.

ويَعْرفُ شارون ذاك الظلوم الغشوم،

وقدْ عدَّ أنفاسَهُ والرجالَ المحيطينَ،

أدْخَلَ في المقعد المعدنيِّ إشارةَ قَنْصِ

الجَسَدْ،

لكي لا تضلَّ الصواريخُ والطائراتْ.

صواريخُ تَسْقطُ

من طائراتِ الأپاتشي

على رَجُلٍ مُقْعدٍ، يا إلهُ!!؟

كأنّي أرى الأرضَ ـ قاراتِها الستَّ ـ

شوهاءَ، شوهاءَ،

لا عَدْلَ، لا أنبياءُ...

حرف الياء

يَفْتحُ الآنَ ذاكَ الدمُ العراقيُّ صنبورَهُ

لبلادِ المياهِ الحزينة، للرافديْنْ.

وكانا ـ على ملءِ الخافقيْن ـ

يَقُومان في حَرْثِ تلك البلادِ،

وإخصابِ تربتها بالنبوّاتِ والآلهةْ،

فـ«إنليلُ»، «مردوخُ»، «عشتارُ»،»[1]

كلٌّ يقدّمُ طقْسًا،

شعيرةَ عشقٍ لتربته الفاتنه.

وكان أن ابنثقتْ منهما فكرةٌ ها

هنا،

وكتابٌ هناكَ، ودستورُ حُكْمٍ،

قوانينُ،

حين كان الأوادمُ في الأرض

يَقْتعدون الفراغْ.

بداياتُ أَنْسنَةِ الكون،

إطلاقُ اسمٍ صريحٍ هناك لـ«لزقّورةٍ»[2]

في أعالي السماءْ.

ولكنّ ذاك الغَسَقْ،

قاتلٌ، طاحنٌ للعبادْ،

يجيءُ على فرسِ البحرِ أسْحَمَ

كالموت،

يقتاتُ عظمَ الصغارِ ودمعَ الأيامى،

---

١ ـ آلهةٌ رافدينيّة.

٢ ـ الزقّورة: كانت شعيرةً لديانات ما بين النهريْن، إذ إنّها كانت تُبنى كما بُنيت المآذنُ الإسلاميةُ لاحقًا ولكنّها أكثرُ ارتفاعًا، وكان الكاهنُ الموكلُ بها يصعد إلى أعلاها ليغدو قريبًا من إلهه في السماء.

يقولُ: أنا الحقُّ،
يَرْفع تابوتَه والكوابيسَ رايتَـــهُ
والوصولْ،
ويقولُ: . . .
يُريدُ يُبرمِجَ هذي البلادَ،
على زعمِه في يَشوعَ،
على زعمه في وصايا الملوكْ[1]
وأنّ بداياته من هناك؛
فـ «أورُ»[2] هيَ المعلّمُ الأوليُّ،
لمولدِ آبائه الأوّلينْ.
وليسَتْ هي العِلْمَ والحكمةَ المُترفهْ،
وأسطورةً ورقيمًا يقاومُ سيفَ الفناءْ
وقالَ، وقالَ: . . .

حرف الألف

العراقُ الحزينةُ،
كلُّ العراقِ على ألْفِ عامٍ وألفيْنِ،
كانت مكانًا لتجربة الخالقِ الفذِّ في الخَلْقِ،
كانت مكانَ انكساراتِ تلكَ العصورِ،
وكانت مرورَ المغولِ التّتَرْ،
وكانت مع الحاضر الليْلِ هذا الدمارَ العميمْ،
فبغدادُ يُبعثُ حَلاّجُها، والنَجَفْ
يقومُ الحسينُ على فرسٍ من دماءْ،
يقومُ كتمّوزَ حينَ احترَقْ
وكان الشقائقُ من دمِه والفلَقْ.
العراقُ الحزينةُ، كلُّ العراقِ
الشعوبُ، البلادُ، المياهُ، الأناجيلُ
والمُصحَفُ المصطفى
يقولُ: كفى . . .
ليس شعبٌ على الأرضِ يعرفُ حُزنَ العراقِ
ودمعَ العراقِ وثُكْلَ العراقْ.
وحيداً يذود، وحيداً يموتُ،
وحيداً يقوم من الاحتراقْ
يقومُ، يقومُ كعنقاءَ قائمةٍ مِنْ رمادِ الأضاحي
على تلّةٍ من غموضٍ جميل،
وحيداً يُدغدغُ هذي الأساطيرَ،
يبعثُها في الحضور القتيلْ،
فيُخصبُ، يُمرعُ، يأتي إلى الموسمِ،
ليظهر سعدي وبدرٌ،[3]
وكلُّ الحضورِ وكلُّ الغيابْ،
ويبدأ فصلٌ جديدٌ بهذا الكتابْ.

حرف السين

سلامًا لِسُلمى التي حرّقت بابَ صدري،
وكنتُ انتظَرْتُ السنينَ الطوالَ
قبالةَ شُبّاكها المُغلقِ،
سلامًا لها وإليها، لحاجبها، للعيونِ،
لثَغْرٍ كما الفستُقِ،
سلامًا من الحَرْفِ هذا الذي لا يبوحُ
فكلُّ اللغاتِ تنوءُ بقيْدِ المواريثِ،
كلُّ اللغاتِ لها (فاعلُنْ، فاعلاتُن)
وكُهّانُها القاتلونْ.

---

١ ـ يشوع والملوك: أكثر الأسفار في العهد القديم فتكًا وتذبيحًا للفلسطينيين.
٢ ـ أور: المدينة الرافدينية التي يُظنّ أنّ ابراهيم الخليل وُلدَ فيها.
٣ ـ سعدي: هو الشاعر العراقي سعدي يوسف ويقيم حاليًا في مغتربه (لندن). بدر: هو الشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب، وقد توفي عام ١٩٦٤.

يقولونَ: هذا نشازٌ، وذاك فسادٌ،

إذا لم تُزجِّجْ حواجيبها والعيون.

يقولونَ: إنّ الصُوَرْ

هي المُصطفى في القصيدِ،

البلاغةَ روحُ،

المدارسَ دَرْبُ،

الطريق القــويم هي الســيــرُ خَلْفَ السَلَفْ...

فارسُم الآن يا واحدي دربَكَ الواحدة

صراطًا تكابدُهُ تصطفيه،

وتمضي على نشوةِ الشفرةِ الفاغمةْ.

تقرأُ الإرثَ، تفهمُ روحَ العصورِ،

وتفهمُ كلَّ التجاريبِ كانتَ

مُلازِمةً عصرها، ومُشبعةً روحَهُ والجَسَدْ.

وإيّاكَ، إيّاكَ دربًا

عليها من الأقدمينَ الخُطى والمصيرْ،

فعصرُكَ أنت الذي يَبتنيكَ،

وعصرُكَ أنت الذي تبتنيه،

وتبني على قارعاتِ الطُرُقْ

شواخصَ أقدامكَ الموغلاتْ؛

فكلُّ زمانٍ له شعرُهُ والجمالُ الذي يرتئيه،

وكلُّ قصيدٍ لها شأنُها وطقوسُ ولاداتها،

شكْلُها، تعاريجُ بُنيتها،

ومعراجُها والوضوءْ.

توضّأْ بسينِ السماءِ، البحيراتِ، بالهطل منسربًا،

داخلاً كُلَّكَ الآدميَّ وكنْ شاعرًا

تحملُ القَبْلَ،

ماضيكَ، ماضي الشعوبِ، الطقوسَ،

الحضارات، كلَّ القصائدِ

في روحكَ المفعمةْ،

وأنتَ تخطُّ القصيدَ الجديدْ،

وضَعْ أنتَ لحنَكَ، إيقاعَ روحِكَ، شكْلَ الصُوَرْ،

وما ترتئي من مجازٍ جميلٍ

يناسبُ هذا السقوطَ وذاكَ الصعودْ.

سلامًا إذًا،

وسلامًا لِسُلمى التي ما تزالْ

وردةَ المستحيل البعيدِ

وذاكَ الهلالْ.

حرف الياء

يَعرفونَ ما لا أعرفُ،

فيقومونَ خِفافًا،

ليلهُمْ نهارْ،

وسَيْرهُمْ، سيرهُمْ عفاريت

تَخْرجُ من «فاكسٍ» يُرسِلُ قصيدة

إلى عاصمةٍ هناكْ.

وأعرفُ ما لا يعرفونْ،

فأقومُ سكرانَ، صاحيًا، وحزينًا حزينْ،

أَمْزجُ الليلَ بالنهارِ كما يمزجُ الخمّارُ الخمرَ بالماءْ،

فتنبعثُ رائحةُ الأنثى.

يا إلهي.. أنثى!!

مَنْ أنا لكي تزورَني فتخرجَ لي من كاسي هذا؟

فأشربُ، أشربُ، أشربُ

ولا أرتوي.

فمَنْ يرتوي من الأنثى ملعون،

ومَنْ لا يعرفُ كيف يشربُها ملعونُ،

ومن يشربها شُربةً واحدةً ملعونُ،

وأنا لا أحبُّ أن أكونَ لعينًا لعينْ.

حرف النون

نوني هي النونُ التي خَـتَـمَ اللّهُ بهـا
فِعلَ الكُنْ،
فكُنْتُ،
وكان زمانًا بهيًّا وشقيًّا ومليئًا
بما لا يُحصى من الفرحِ،
وما لا يُحصى من الحزنِ،
وما لا يُحصى...
وإذًا...

سلامًا لياسينَ الذي كان بيننا
سلامًا لبغدادَ الجريحةِ، للنهْرِ
سلامًا لأنثى الماءِ، للبَجعِ(١) الذي
يَهيمُ بها، للضلعِ يَخْرجُ منْ صدري
سلامًا لِمَنْ يشقى يُذوِّبُ روحَهُ
يُقدِّمُها في الحُلوِ يومًا، وفي المُرِّ
ويمضي إلى ذاكَ المصيرِ مُعبّأً
بطاقاتِهِ القُصوى، بأفعالِه الغُرِّ
وأطفالُهُ في البيت يَكْبَرُ بعضُهم

على رحمةِ الإيثارِ والخُلُقِ العطرِ
وبعضٌ يرى هذي الحياةَ غنيمةً
وقتلاً وفخًّا للأُناسِ وللطيْرِ؛
فكلُّ دياناتِ السماءِ رحيمةٌ
إذا شِـئْتَ، أو حـربٌ ضـروسٌ على الغَيْرِ
وكلٌّ يُسامرُ دربَهُ ومصيرَهُ؛
فبعضُهُم خيرٌ وآخرُ في الشرِّ.
سلامًا، سلامًا مثلما مرّ من هنا
أخو سَفَرٍ يومًا وغاب عن السَفْرِ.

إدلب (سوريا)

---

١ - يُقال إنّ زيوس، كبيرَ آلهة الإغريق، زار الحسناءَ الإسبرطية «ليدا» على شكل طائر البجع، واختلى بها، فأنجبتْ منه التوامين كليتمنسترا وهلين. وهذه الأخيرة كانت أجمل نساء الأرض، وقد اشتعلتْ حربُ طروادة بسببها عشرة أعوام. وهناك لوحة للفنان ديبوا بعنوان «ليدا وطائر البجع،» وهي موجودة في متحف لوكسمبورغ.

محرِّرو لبنان الجُدُد:

ميشال عون واللوبي اللبناني ـ الأميركي

سماح إدريس*

هل انتهت «انتفاضةُ الاستقلال» التي تفجّرتْ تظاهراتٍ شعبيةً مطالبةً بمعرفةِ حقيقةِ منفِّذي اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وبانسحاب الجيش السوري واستخباراته من لبنان؟ من المؤكّد أنّها تعاني مصاعبَ جمّةً، ولاسيّما بعد تشرذم قيادات المعارضة عقب عودة العماد ميشال عون من منفاه الباريسي إلى أرض الوطن في ٧ أيار، وبعد الانتخابات النيابية التي شهدتْ معاركَ طاحنةً بين تلك القيادات. لكنّ الأكيد أنّ «ثورة الأرز» لم تنته بعد!

وللقارئ الذي لا يَعْرف الفارقَ بين انتفاضة الاستقلال وثورةِ الأرز، حسبُنا أن نقول إنّ المصطلحَ الأوّل، وشعارَه Independence 05، و«فُولارَه» الأبيضَ والأحمرَ، كلّها من إنتاج المعارضات اللبنانية بعد ١٤ شباط... مع تأثُّرٍ بخبرةِ بعضِ الناشطين في مجال الدعاية،[1] وبانتفاضاتٍ شعبيّةٍ عالميةٍ أبرزُها تلك التي شهدتْها أوكرانيا وجورجيا.[2] وأما المصطلح الثاني، «ثورةُ الأرز» فقد أطلقتْه السيدة پاولا دوبريانسكي، نائبةُ وزيرةِ الخارجية الأميركية كوندوليسا رايس في ٢٨ شباط، وما زال بانتظار تحقيقِ كاملِ أهدافه، التي لا تقتصر على «استعادة سيادة لبنان» من الهيمنة السورية، بل تتعدّى ذلك إلى استعادة لبنان إلى حظيرة الطاعة الأميركية، ونزعِ سلاح حزب الله، وإلغاءِ أيّ دعمٍ حاليّ أو محتملٍ للانتفاضة الفلسطينية وللمقاومة العراقية، وإرساءِ «سلامٍ» جديدٍ مع الكيان الصهيوني يتنكّر لحقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ويتنكّر لاستكمالِ ما لم يُنفَّذ في القرار الدولي ٤٢٥ نفسه: من استعادةِ مزارع شبعا، وعودةِ الأسرى من السجون الإسرائيلية، وبسطِ لبنانَ سيادتَه على مياهه المسروقة حتى الساعة، ووقفِ الخروق الإسرائيلية المتواصلة لبرِّه وجوِّه، وكشفِ مواقعِ الألغام المتبقّية على حدوده مع فلسطين المحتلّة... فضلاً عن نيْلِ التعويضاتِ الهائلة عن الخسائر التي تكبّدها منذ عام ١٩٤٨.

هذا المقال سيركّز في قسمه الأول على دور العماد ميشال عون، أحدِ أبطالِ انتفاضة الاستقلال (وربّما ثورة الأرز أيضًا)، في حثّ الولايات المتحدة «والمجتمع الدولي» على مطالبة سوريا بسحب جيشها واستخباراتها. وأما القسم الثاني فيتناول دورَ بعض المنظّمات والشخصيات اللبنانية ـ الأميركية في تلك «الانتفاضة» أو «الثورة.»

---

* ـ رئيس تحرير مجلة الآداب.

١ ـ على ذمّة **واشنطن پوست** (١٧ نيسان ٢٠٠٥)، فقد اكتشف سكوت وِلْسون ودانيال ويليامز أنّ الشعارَ والفُولار هما من بناتِ أفكار السيّد سعيد فرنسيس وفريقِه من وكالة ساتشي آند ساتشي للإعلانات. وتَذْكر المقالةُ أنّ فرنسيس ورودي كامل وآخرين (من شركة كوانتوم كوميونيكايشنز) كانوا على موعدٍ مع السيّد وليد جنبلاط ليَعْرضوا عليه إعلاناتٍ تلفزيونيةً صنعوها لحزبٍ عراقيٍّ على أبواب الانتخابات العراقية، فوقعتْ جريمةُ اغتيال الحريري، وأُلغي الموعدُ. لكنّ حملةَ الإعلانات صبّت في صالح انتفاضة الاستقلال بدلاً من الانتخابات النيابية اللبنانية، وأمَرت السيدة نورا جنبلاط بصناعة ٤٠ ألف فولار باللونيْن الأحمر والأبيض.

٢ ـ تَذْكر **واشنطن پوست** (راجع الهامشَ السابق) أنّ المثال الأقوى لانتفاضةِ الاستقلالِ اللبنانية لم يكن العراقَ بل أوكرانيا وجورجيا. وتَسْتشهد على ذلك بالدكتور رومان كولتشيسكي، أستاذِ العلوم السياسية في الجامعة الأميركية في بيروت، الذي زار كييف في تشرين الثاني الماضي عندما اندلعت الثورةُ البرتقالية. فحين عاد، حاضَرَ عن مشاهداته هناك أمام طلاّبه، ومن بينهم ناشطٌ في التيار العوني (من آل لطّيف) جاء مع أصدقائه إلى كولتشيسكي يَطْلبون مَشُورتَه بعد اغتيال الحريري؛ فَطَلَب منهم أن يقلِّدوا الشبابَ الأوكراني، وأن يُبقوا ثورتَهم «سلميةً،» ويُحظّروا الكحولَ وإثارةَ المشاكل في ما بينهم، وأن يخيِّموا في ساحة الشهداء «من أجل إبقاءِ الانتباهِ مسلَّطًا عليهم.» ونحن، إذ نَنْقل تلخيصًا لما ذكره مراسلا **واشنطن پوست**، فإنّنا لا ندعو بالضرورة إلى تبنِّيه (وتبنِّي حسّه المؤامراتيِّ بعضَ الشيء)، وإنّما إلى وضع «انتفاضة الاستقلال» اللبنانية في سياقٍ تفاعليٍّ عالميٍّ ورفضِ نظريّة «المصادفة.»

١ ـ الخطاب العوني في الخارج

منذ رجوع العماد ميشال عون إلى لبنان نتيجةً لما يراه البعضُ «صفقةً» بينه وبين الرئيسين لحّود والأسد،[١] وهو لا يكفّ عن ملء الدنيا ضجيجًا حول إيمانه بـ «العلمنة» و«المواطنة» و«تجاوُز الخطاب الطائفي» و«بأنّ نزعَ سلاح حزب الله شأنٌ داخليّ.» ولكنْ هل كان ذلك حقًّا ما نَضَحَ به خطابُه في الخارج خلال الأعوام السابقة؟

إنّ محاولتنا البحثَ في تقلّبات الخطاب العوني قبل العودة وبعدها لا تَهْدف إلى التشهير بصاحبه على حساب أكثرية الزعماء اللبنانيين الآخرين، وإنّما إلى إعادة موضعته في مكانه الحقيقي: بوصفه إنسانًا سياسيًّا يسعى إلى النصر (وربّما إلى رئاسة الجمهورية)، بغضّ النظر عن كلّ زعمٍ مبادئيٍّ وخلاصيٍّ ونبويّ،[٢] كالذي يعبِّر عنه خطابُه أمام أهالي جبيل في ٣٠ أيار: «اتبعونا وعلينا مسؤولية، وإنْ لم تتبعونا فلا أستطيع أن أقولَ لكم أيَّ شيء. أنا أدُلّكم على الطريق، إذا أردتُم سلوكَها تخلِّصون أنفسَكم ولبنانَ. وإذا تردّدتُم فإنّ ما يحصل هو كالسرطان الذي ستكتشفونه في وقتٍ متأخِّر، لكنْ بعد فوات الأوان.»[٣]

أ ـ عون والطائفية. لو عدنا إلى خطب العماد عون، التي كان يوزِّعها أنصارُه من منفاه على شبكة الإنترنت، فسيتبدّى لنا كثيرٌ ممّا يتناقض وخطابَه «المواطني» و«العلماني» المنتشر في وسائل الإعلام اللبنانية اليومَ. ففي خطابه في ١٣ تموز ٢٠٠٣ مثلاً يزعم أنّ «الحملة السورية استهْدفت المسيحيين [اللبنانيين] بشكلٍ خاصّ، مهدِّدةً إيّاهم في وجودهم ذاتِه...،» وأنّ السوريين رَسَّخوا في أذهان اللبنانيين «أنّ فكرةَ الخلاص لا تأتي إلاّ بإطاعة سوريا... وبتبنّي التقيّة ـ وهي إخفاءُ المرء لديانته أو معتقداته في أوقات الشدّة أو في مواجهة الخطر.»[٤] فهل «المسيحيون [اللبنانيون] بشكل خاصّ» هم فعلاً مهدَّدون من قِبل السوريين؟ وهل عليهم أن يمارسوا التقيّةَ خوفًا على ديانتهم من السوريين؟ أمْ أنّ الوجود العسكري السوري في لبنان لم (يكن) يميِّز بين اللبنانيين بحسب انتماءاتهم الدينية بل بحسب تبعيّتهم له؟ أليس هناك الكثيرُ من «المسيحيين» اللبنانيين الذين تباهَوْا أيامَ الوجود العسكري والاستخباراتي السوري بدينهم (إن لم نقلْ بطائفيّتهم) ما داموا راضين بذلك الوجود، بل وجَنَوْا المنافعَ منه؟ وهل المسيحيّون في لبنان كتلةٌ واحدةٌ أصلاً؟ الأرجح أنّ عون في خطابه ذاك، كما في خُطبٍ أخرى سنتحدّث عنها للتوّ، كان يتملّق الحساسيّةَ «الغربيةَ» ويتلاعب بمشاعر الغرب «المسيحي» الذي يرى في المسيحيين العرب ـ أسوةً باليهود العرب ـ أقليةً مضطهَدةً من طرف المسلمين.

قبل ذلك الخطاب، أيْ في ١٢ أيلول ٢٠٠٢، أجرى أحدُ عُتاة الأصولية المسيحية في أميركا، واسمُه پات روبرتسون، مقابلةً مع الجنرال عون.[٥] ما يَلْفتنا هو أنّ الأخير لا يَنْبس ببنتِ شفة أمام ادّعاءِ الأول أنّ لبنان «كان بلدًا مسيحيًّا في الأساس» وأنّ المسيحيين «مواطنون من الدرجة الثانية ولا يتمتّعون بالحريّة ومهدَّدون،» مع أنّه كان من المفترض بمَنْ يتبنّى خطابًا وطنيًّا جامعًا في وجه «المحتلّ السوري» أن يشدِّد على أنّ لبنان بلدٌ لجميع أبنائه وأنّ مواطنيه جميعَهم من الدرجة الثانية إلاّ مَنِ ارتضى العمالةَ للمحتلّ!

وفي ٢٠٠٣/٣/٧ ألقى عون محاضرةً في واشنطن دي. سي. أمام «مؤسسة الدفاع عن الديموقراطية» و«معهد هَدْسون،» يستدرّ فيها جملةً من المخاوف والعواطف لدى الأميركيين الصهاينة والإسرائيليين. وستكون لنا وقفةٌ مطوّلةٌ عند هذه المحاضرة لاحقًا، لكنْ حسْبُنا هنا أن نشير إلى مغالطاته المسيحويّة. فعون يبدأ بالحديث عن وقوع لبنان منذ نهاية الستينيات ضحيّةً للإرهاب، ووقوعِه منذ أوائل الثمانينيات ضحيّةً للأصوليين الإسلاميين، ويصل إلى أنّ سوريا شجّعت المنظّماتِ الأصوليةَ الإسلاميةَ التي «واصلتْ جرائمَها الطائفيةَ ضدَّ المسيحيين وضدَّ غيرهم ممّن يعادون الفوضى.» اللافتُ هنا هو الأمثلةُ التي يَسْردها عون على هذه الجرائم الطائفية سنة ٢٠٠٢: الأولى هي قتلُ ثمانية أشخاص في صندوق ضمان المعلّمين في ٣١ تموز ٢٠٠٢ على يدِ مجرمٍ يوحي الجنرالُ أنّه من المخيّمات

---

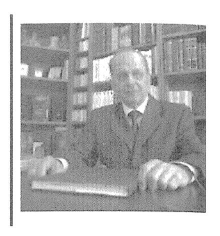
١ ـ تتبدّى ملامحُ الصفقة المفترَضة في الأمور التالية: (أ) على الرغم من إدانة عون التاريخية للقضاء اللبناني بوصفه خاضعًا للمحتلّين السوريين (راجعْ مثلاً خطابَه في ٢٠٠٣/١١/٢٢ على www.ualm.org)، فقد برّأه هذا القضاءُ قبل يوميْن من رجوعه (خلافًا للأعراف القضائيةِ المعمولِ بها) من جرائم القيام «بأعمالٍ وخطبٍ لم تُجِزْها الحكومةُ ومن شأنها تعكيرُ صلاتِ لبنان بدولةٍ شقيقةٍ وإذاعة أنباء كاذبة» بعد إدلائه عامَ ٢٠٠٣ بشهادةٍ أمام الكونغرس تُبْحث في قانونِ محاسبةِ سوريا. (ب) إسقاط القضاء اللبناني دعوى الحقّ العامّ عنه وعن رفاقه الضبّاط، قبل يومين من رجوعه، في ما يخصّ «الاعتداءَ على أمن الدولة الداخلي الناجم عن اغتصابِ سلطةٍ سياسية...» (ج) رفضُ عون مهاجمةَ الرئيس لحّود ورفضُه المطالبةَ بإقالته قبل أن يُنْظِر مجلسُ النوّاب «الجديد» في ذلك. (د) مطالبةُ عون بوقف الخطاب العدائي تجاه سوريا بعد انسحابها من لبنان (**السفير**، ١٣ أيار)؛ ويبدو لافتًا هنا الزيارةُ التي قام بها إلى سوريا أحدُ عناصر اللوبي اللبناني ـ الأميركي المؤيِّد لعون (غابريال عيسى) واجتماعُه بوليد المعلّم (نائبِ وزير الخارجية السوري) قبل عودة عون إلى لبنان.

٢ ـ يَذْكر روبرت فِسْك (**الأندبندنت**، ٨ أيار ٢٠٠٥) أنّ عون كان في التسعينيات يقارن نفسَه بالمسيح، ويُقارن أعداءَه ببيلاطس ويهوذا!

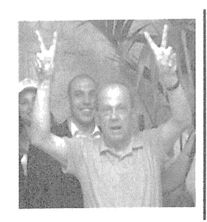
٣ ـ **السفير**، ٣١ أيار ٢٠٠٥. والأرجح أنّ «السرطان» يُحيل هنا على ما يراه عون من تغلغل البترودولار الحريري في انتخابات كسروان ـ جبيل النيابية.

٤ ـ اعتمدتُ على النصوص الإنكليزية التي وَزّعها عون (وأنصارُه) باسمه الشخصي على شبكة الانترنت. والخطابُ أعلاه هو بعنوان Dhimmitude and Dissimulation (أي «الذّميّة والتقيّة»). راجعْ موقعَ الحركة اللبنانية ـ الأسترالية المتحدة www.ualm.org.com.

٥ ـ قناة CBN، ضمن «نادي الـ ٧٠٠.»



أيُّ عون نصدِّق: عون الولايات المتحدة وفرنسا في ٢٠٠٢ و٢٠٠٣، أمْ عون «الرابية» في ٢٠٠٥؟



الفلسطينية حيث يَرْتع «الإرهابيون وأبطالُ الجريمة المنظّمة والمنظّماتُ الإسلامية الجذرية.» والثانية طاولتْ مبشِّرًا مسيحيّاً أميركيّاً في ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٠٢ في صيدا (ولا بدّ من ثمّ أن يكون القاتلُ مسلمًا أصوليّاً!). والثالثة تمّت في ٣٠ كانون الأول ٢٠٠٢ على يد مجنَّد لبناني «كان يداوم على حضور مادة دينية في مدرسة قرآنية داخل أحدِ المخيّمات حيث تعلّم ـ كما يُزْعم ـ أنّ قتلَ المسيحيين واليهود سيضعه على طريق الجنّة.» لاحظوا كيف يَحْصر عون الجرائمَ بتلك التي يدّعي أنّها ارتُكِبتْ ضدّ المسيحيين واليهود لأنّهم كذلك، وكيف يَرْبطها بالتربية الإسلامية نفسِها («مدرسة قرآنية») وبالمخيّمات الفلسطينية![1]

قد يقول قائل إنّ خطاب عون المسيحويّ في الخارج يَهْدف إلى تحرير كلّ لبنان عبر استثارةِ حميّةِ المسيحيين (واليهود) الغربيين، والتلاعُبِ بالتنميطات (stereotypes) المعادية للإسلام والعرب والفلسطينيين والأصوليين. ولكنّ ذلك غيرُ مبرَّر أصلاً بالنسبة إلى مَنْ يزعم العلمانيةَ والمواطنيةَ، فضلاً عن أنّه يسيء إلى مفهوم «تحرير لبنان» لأنّه يَرْبطه بالأمل في مساعدةٍ أميركية ـ تبشيرية لن تكون بالضرورة أقلّ ضررًا على لبنان من الوصاية السورية والأصولية الإسلامية!

ب ـ عون والإرهاب. طوال الأعوام التي سَبقتْ عودةَ ميشال عون إلى لبنان وهو لم يكفّ في الخارج عن اتهام سوريا وحزب الله بالإرهاب، إضافةً إلى إحدى عشرة منظّمة فلسطينية على أساس أنّ هذه جميعَها تقع «ضِمْن قائمة الولايات المتحدة للمنظّمات الإرهابية،»[2] حتى لو لم يَعِثْ بعضُها (حماس مثلاً) «إرهابًا» في لبنان. أمّا الحلّ الذي يقترحه لحلّ مشكلة الإرهاب فليس العملَ على علاج أسبابه، كما قد يُتوقَّع من شخصٍ لبنانيّ عربيّ مثل الجنرال عَون شَهِدَ مأساةَ الشعب الفلسطينيّ والحصارَ على العراق والاجتياحَ الإسرائيلي للبنان. وإنّما الحلُّ الذي يقترحه عون لا يختلف البتّةَ عن ذاك الذي يَطْرحه «صقورُ البنتاغون»: دقرطة «الأنظمةِ الإرهابية،» كالنظام السوري، «المنتِجةِ للمنظّمات الإرهابية.»[3] وهذا ما يَدْفع بيات روبرتسون بعد مقابلة عون إلى أن يَطْلب من الرئيس بوش («وهو المسيحي المعادي للإرهاب») أن يَدْعم مشروعَ «قانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان.»

وفي ٢٠٠٣/٣/٧ يقدِّم عون أمام «مؤسسة الدفاع عن الديموقراطية» و«معهد هدسون» في واشنطن دي. سي. رؤيةً تاريخيةً شاملةً للصراع الكوني لا تَخْتلف قطُّ عن رؤية بوش المانويّة لمعسكريْن قطبيّيْن:

ـ ففي جانب، يقف الإرهابُ ممثَّلاً بالنظام السوري، والمجموعاتِ الفلسطينية المسلَّحة، والمخيّماتِ الفلسطينية حيث «تَرْتع المنظماتُ الأصوليةُ الإسلاميةُ وتتواصل الجرائمُ الطائفية ضدّ المسيحيين...» و«الثيوقراطياتِ الواحدية،» و«الديكتاتورياتِ المهيمنةِ في المنطقة،» و«الأنظمةِ غيرِ الديموقراطية التي تعلِّم الناسَ الكراهيةَ والقتلَ وتَدْفعهم إلى العمليّات الانتحارية...»

ـ وفي جانب آخر، يقف «العالمُ بقيادة الولايات المتحدة،» ويقف «الغربُ،» ويقف ضحايا الإرهاب الآخرون، وعلى رأسهم: ١) لبنان الذي كان «سويسرا الشرق،» و«مثالاً للاعتدال والتسامح [وسط] صحراء بشريةٍ تحيط به» و«جسرًا للّقاء بين الشرق والغرب،» وغيرَ ذلك من التنميطات التي تَنْهل من معجم استشراقيٍّ نافر. ٢) إسرائيل التي «دفَعَها» تسليحُ سورية للمجموعات الفلسطينية في لبنان إلى أن تجتاحَ هذا الأخيرَ (وكأنْ لا أهدافَ أو أطماعَ إسرائيليةً في لبنان)، ثم قامت سوريا بنقض «السلام» الذي أرسته إسرائيلُ مع لبنان في ١٧ أيار ١٩٨٣. ٣) أما الضحية الثالثة للإرهاب فممثِّلو الغرب في لبنان، مثل السفارتيْن الأميركية والفرنسية اللتيْن استهدفهما الإرهابيون المدعومون من سوريا مرتيْن، ومثل الوحدات الأميركية والفرنسية العاملةِ ضمن نطاق القوات المتعدِّدة الجنسية (يا مساكين!)، ومثل مبشِّرٍ أميركيٍّ قتَله «الأصوليون» في صيدا في ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٠٢.

ولمزيد من دغدغة عواطف الأميركيين اليمينيين يَخْتم الجنرالُ خطابَه السِّيادي بطمأنةِ هؤلاء إلى أنّ تحرير لبنان (من سوريا والإرهاب

---

١ ـ Transcript of General Aoun's Lecture in Washington DC, 3/7/2003, www.ualm.org.au

٢ ـ ٣ ـ قناة CBN، ضمن «نادي الـ ٧٠٠،» ٢٠٠٢/٩/١٢.

الأصولي والفلسطيني والقاعدي...) سيؤدّي إلى «عودة الصورة الحقيقية للولايات المتحدة الأميركية. وهذا سيشكّل تحيّةً إجلالٍ حقيقيةً إلى ذكرى الضحايا الأميركيين الذين وَهَبُوا حيواتِهم من أجل الدفاع عن الحرية والديموقراطية في لبنان؛ فلقد جاءَ هؤلاء إلى لبنان من أجل السلام، وعلى السلام الحقيقي أن يتحقّق.»

وشبيهٌ بتلك الدغدغة ما يُمْكن اعتبارُهُ تملُّقًا في خطابات عون الغربية لمشاعر اليهود والصهاينة من أجل حثّ الولايات المتحدة على إنهاء «الإرهاب السوري.» تصوَّروا مثلاً أن يُغفل الجنرالُ في تلك الخطب أيَّ ذِكْرٍ للإرهاب الإسرائيلي، بل هو يَضَعُ (كما رأينا) إسرائيلَ في صفِّ **المعتدَى عليه** من طرف المجموعات الفلسطينية المسلَّحة وحزب الله في صراع العالم الحرّ (بقيادة الولايات المتحدة) ضدّ الإرهاب. وتصوَّروا أيضًا أن يقول في خطابه في ٢٠٠٣/٣/٧ إنّ لبنان «هو آخرُ بلدٍ في العالم ما زال تحت الاحتلال،» مدركًا ــ بلا شكّ ــ أنّ ذلك تحويرٌ واضحٌ لقول إدوارد سعيد «إنّ فلسطين هي آخرُ بلدٍ ما زال تحت الاحتلال» ــ ذلك القول الذي أفنى سعيد عمرَه في أميركا وهو يحاول ترسيخَه قبل أن يأتي عون (أو «مستشاروه» اللبنانيون ــ الأميركيون) بما يُخلخلُه.

ج ــ أيُّ «**عونٍ**» **نصدِّق**؟ بعد ذلك كلّه، وهو غيضٌ من فيض، مَنْ نصدِّق: عون الولايات المتحدة في ٢٠٠٢ و٢٠٠٣؛ أمْ عون «الرابية» (لبنان) في ٢٠٠٥؟

عون الذي يحرِّض الولاياتِ المتحدةَ سنةَ ٢٠٠٣ وقبلَها على إسقاط النظام السوري من أجل تحرير لبنان ومسيحييه والعالمِ أجمعَ من سطوة الإرهاب ومن أجل «السلام الحقيقي»؛ أمْ عونَ الذي يصرِّح في ١٢ أيار ٢٠٠٥ بأنّ «سوريا انسحبتْ من لبنان و[لذلك] يجب وقفُ خطاب العدائيّة ضدَّها؟»[١]

عون الذي يدعو الولايات المتحدة إلى عدم مهادنة سوريا، وإلى عدم الاغترار «بالتعاون» السوري «التكتيكي والموقّت» في الحرب على الإرهاب، وإلى ضربِ الديكتاتورية لأنّها هي التي تُنتج وتَنْشر الأصوليةَ (أي الإرهابَ) كما جاء في خطاب للجنرال في ٢٠٠٣/٩/١٨ أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الدولية في مجلس النواب الأميركي؛[٢] أمْ عون الذي لم يعد يرى بعد رجوعه إلى لبنان أيةَ مشكلةٍ مع سوريا سوى الأسرى اللبنانيين المعتقلين في سجونها؟

عون الذي يدعو من واشنطن في ٢٠٠٣/٩/١٨ إلى أن «يترافقَ الانسحابُ السوري [من لبنان] مع نزع سلاح كاملٍ لكافّة العناصر المسلَّحة [باستثناء الجيش وقوى الأمن الداخلي]»؛ أمْ عَوْن الذي يقرِّر في «الرابية» تأجيلَ الحديثِ عن نزع سلاحِ المقاومة إلى ما بعد الانتخابات النيابية؟

ومع ذلك فلا يتوهمنّ أحدٌ أنّ تناقضات الجنرال تَقْتصر على مواقفه بين واشنطن/باريس والرابية، بل هي تمتدّ إلى داخل لبنان ذاته كلّما اقتضتْ مصلحتُه ومصلحةُ تيّاره ذلك. صحيحٌ أنّه يُعلن في ١٩ حزيران ٢٠٠٥ من على شاشة LBC، بعيْدَ هزيمة مرشَّحيه في الانتخابات النيابية في الشمال، أنّه لا يمكن التأسيسُ على شيءٍ فاسدٍ، وذلك في معرض هجومه على استخدام خصومِهِ للطائفية وللمال الانتخابي من أجل الفوز. غير أنّ منطقَه ذاك لا ينطبق على تحالفاته مع رموزٍ شاع اتّهامُها بالفساد (ميشال المرّ)، وبالطائفية والعنصرية (نعمة الله أبي نصر)، وبقبولها بالوصاية السورية (وهؤلاء أكثرُ من أن يُحْصَوْا). فكيف تُبْنى العلمانيةُ والمواطنةُ ودولةُ القانون بمثل هذه الرموز؟ وبالمنطق عيْنِه، كيف يَسْتند الجنرالُ إلى خُطبه في الغرب، الناضحةِ بالاستشراق والطائفية وتملُّقِ الصهاينة والقيادةِ البوشيّة، من أجل تحرير لبنان؟ أليس التأسيسُ على شيءٍ فاسدٍ أمرًا مستحيلاً، كما قال هو نفسُه على شاشة LBC؟

غير أنّ المثيرَ للإزعاج حقًّا ليس تناقضَ عون هنا وهناك، وإنّما عدم خضوع ذلك **للمحاسبة** على يد القياداتِ الوطنيةِ والقوميةِ واليسارية، مع أنّ بعضًا منها (مثلَ الرئيس الحص) يَمْتلك اللغةَ الإنكليزية وله مستشارون وحلفاءُ يُمْكنهم استخدامُ الإنترنت للحصول على خطب عون في الغرب. فلماذا الاستخفافُ بالثقافة، وهو مرضٌ من أمراض الأحزاب اللبنانية اليوم، ومعظمُها «يتميَّز» بالرِّيفيّة provincialism؟ ولماذا لا يسألون الجنرال عون حين يلتقونه، أو على صفحات الجرائد، عن حقيقةِ ما ورد على موقع www.free-lebanon.com بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٣ من أنّ «أيّوب قرّه» (وهو نائب عن الليكود في الكنيست الإسرائيلي) التقى عون في باريس للبحث في عودة عناصر جيش العميل لحد إلى لبنان؟[٣] أمْ أنّ كلَّ تساؤلٍ عن أيِّ أمرٍ، حتى لو كان واردًا في غيرِ مصدر، يصبح ضربًا من التخوينِ المرفوضِ كما صارت الموضة؟

II ــ اللوبي اللبناني ــ الأميركي

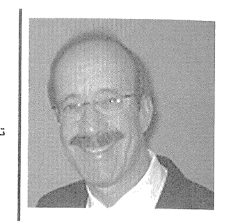
لم تكن مساعي وخطبُ الجنرال عون الهادفةُ إلى «توريط» الولايات المتحدة و«المجتمع الدولي» في استصدارِ قرار دوليّ كالقرار ١٥٥٩ عامَ ٢٠٠٤، وفي استصدار قانونٍ من الكونغرس كقانون محاسبة سوريا عامَ ٢٠٠٣، لتَنْجحَ لو لم تأتِ في سياقِ جهودِ عددٍ من المنظّمات والشخصيات اللبنانية ــ الأميركية اليمينية. ولعلّ هذه هي التي قَصَدَها عون في المقابلة الهاتفية مع جريدة **النهار** عام ٢٠٠٢ حين أكّد أنّ تيّارَه «وَسَّعَ مدى نشاطاته من أجل توضيحِ قضيّتنا،» إلاّ أنّ «العمل

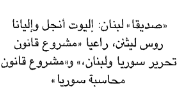
---

١ ــ **السفير**، ١٣ أيار ٢٠٠٥.

٢ ــ Testimony of PM General Aoun-House Subcommittee on International Relations, 9/18/2003, ualm. org. au.

٣ ــ هذا، وكان قرّة قد أخبر الصحيفةَ الإسرائيلية **هاآرتس** في ٢٠٠٥/٥/٢، بحسب الموقع أعلاه، أنّه «يُجْري اتصالاتٍ **باسم الحكومة الإسرائيلية** مع الفرقاء اللبنانيين» من أجل ذلك الغَرَض، وذلك «ضمن قانون العفو العامّ.» وهذه المعلومة هي غيرُ تلك التي نفاها الجنرال عن «اتصالٍ هاتفي» تلقّاه سابقًا من قرّه في إسرائيل.





«صديقا» لبنان: إليوت أنجل وإليانا روس ليثن، راعيا «مشروع قانون تحرير سوريا ولبنان،» و«مشروع قانون محاسبة سوريا»



السياسي الأساسي يَكْمن في الولايات المتحدة...» هذا رغم إقرار عون بأنّ الأولوية الأميركية آنذاك كانت لعراق صدّام، ولكنْ مع ثقته أيضًا بأنّ الأميركيين لا بدّ أن يَنْطلقوا بعد العراق إلى «مهاجمةِ الأنظمة الديكتاتورية [الأخرى] والتحريض ضدَّها.»[1]

وفي هذا الصدد كان لافتًا أن يُعْرب الجنرالُ بعد عودته إلى لبنان عن شكره ووفائه لناشطي اللوبي اللبناني في الخارج. ففي ١٢ أيار من هذا العام أقام تيّارُه مهرجانًا في جبيْل تحت عنوان «العودة واللقاء مع ناشطي التيّار العائدين من ديار الاغتراب،» وعلى رأس هؤلاء: طوني حدّاد وغابي عيسى. وفي المهرجان تحدَّث اللواء إدغار معلوف، فقال بالنيابة عن عون: «إنّ المغتربين الناشطين في التيّار [العوني] ساهموا في رقيّ الأوطان التي حَلُّوا بها... وقد نَفَضُوا الغبارَ عن الملفّ اللبناني واستطاعوا انتزاعَ قرارٍ دوليٍّ [يَقْصد ١٥٥٩] يَعْترف بسيادةِ واستقلالِ لبنان من أعلى المراجع الدولية.»[2] كما يبدو لافتًا ما قاله عون نفسُه على الـ LBC بتاريخ ٥ أيار: «لقد حَرَّرتُ لبنانَ من خلال عملِ الشباب في دولِ الانتشار،» و«لقد حرّرتُ لبنانَ من خلال قرارٍ دوليّ.»[3] وعاد في ٨ أيار فحيّا «الانتشارَ اللبناني... الذي قام بدورٍ عظيمٍ في رفع الصوت اللبناني المكبوتِ على أرضه وأوْصَلَ القضيةَ إلى أعلى المراجع الدولية، التي تُنتج اليومَ استقلالاً للبنان وحريةً وسيادةً...»[4] وأكّد من جديد في ٢٦ أيار أنّه «ضدّ التدخُّل الأجنبي ولكنّنا [أيْ هو و'الشباب'] مسؤولون عنه!»[5]

فكيف «حَرَّر» العماد عون وطنَنا، ومَنْ هم بعضُ «شباب الانتشار» الذين حَرَّرَ لبنانَ من خلال عملهم؟

قبل التطرّق إلى ذلك لا بدّ من الحذر من أمريْن مترابطيْن: **الأول** هو المبالغة في تقديرِ أثرِ المنظّمات والشخصيات اللبنانية ـ الأميركية اليمينية في صنع القرار السياسي الأميركي، بالتحالف مع عون أو مِنْ دونه. و**الثاني** هو المبالغة في إلغاءِ أيِّ أثرٍ لهم في ذلك القرار. ولعلّ الأصوبَ هو القول إنّ الإدارة الأميركية تُبْرز بعضًا من تلك المنظمات والشخصيات في لحظاتٍ محدَّدةٍ من أجل إضفاءِ طابعٍ محلّي و«أخلاقي» على سياساتها التدخُّلية الخارجية. وتلك كانت الاستراتيجيةَ عينَها التي استخدمتْها تلك الإدارةُ في غير مكانٍ من العالم؛ والمثالُ الأوضحُ دعمُها لـ «المعارضة العراقية» قبلَ غزو العراق عامَ ٢٠٠٣، وإبرازُها شخصياتٍ ثقافيةً عراقيةً تَجْهر بتأييدها للغزو أمثالَ كنعان مكيّة. بل إنّ الإدارة الأميركية بدأتْ منذ أعوام قليلة انتهاجَ الأسلوبِ ذاتِه حيالَ سوريا، وذلك بدعم «حزب الإصلاح في سوريا» ورئيسِهِ فريد الغادري الذي يصوِّر بلادَه دولةً «تدْعم الإرهابَ في العراق ولبنان» وتُجْبر «الأشوريين والكلدانَ والأقلياتِ المسيحيةَ الأخرى» على الهجرة![6] وليس مصادفةً في هذا المجال أن التقتْ في خريف ٢٠٠٤، وفي مكانٍ ما من الولايات المتحدة، عدةُ حركاتٍ يَجْمعها «الاضطهادُ» القوميُّ أو الدينيُّ أو السياسيُّ في العالم الثالث أمثال: التحالف الليبي ـ الأميركي الحرّ، والتحالف الإيراني ـ الأميركي، والرابطة الأميركية القبطية، والحركة الأرمنية اللبنانية، والاتحاد الماروني الأميركي، والحركة القبلية الكردية، وحزب الإصلاح في سوريا، والمركز اللبناني للمعلومات (وهو تابع للقوات اللبنانية في الأصل)،[7] والجمعية الأكاديمية

١ ـ **النهار**، حوار مع هيام القصيفي، ٢٠٠٢، www.tayyar.org.

٢ ـ **السفير**، ١٣ أيار ٢٠٠٥.

٣ ـ قناة LBC، برنامج «كلام الناس» لمارسيل غانم، ٥ أيار ٢٠٠٥.

٤ ـ **السفير**، ٩ أيار ٢٠٠٥.

٥ ـ LBC، «كلام الناس،» ٢٦ أيار ٢٠٠٥.

٦ ـ من خطاب الغادري أمام لجنة هلسنكي الفرعية؛ راجعْ: وليد فارس www.defenddemocracy.org ، ٩ آذار ٢٠٠٥، الذي يَذْكر دقائقَ الجلسة التي جَمَعَتْه إلى الغادري وانتفاض قنْبر.

٧ ـ لكنّ السيّد ناجي نجّار، كما سنرى، يَتَّهمَ رئيسَ هذا المركز (طوني حدّاد) بأنّه كان «يمهِّد الأرضَ» للجنرال عون داخل الكونغرس.

السريانية، وحركة السودانيين الجنوبيين.[1] فالحال أنّ ما يَجْمع هؤلاء المنتدين ليس الاضطهادَ أو ادّعاءَ الاضطهادِ فقط، بل عملُهم أيضًا لخدمة استراتيجية الإدارة الأميركية، وبتمويلٍ من أجهزتها في الغالب. المثير للانتباه أنّ اثنين من منظّمي المؤتمر هما من اللبنانيين ـ الأميركيين الذين لعبوا دورًا في إقرار الكونغرس لمشروع قرار محاسبة سوريا، وفي إقرار مجلس الأمن للقرار ١٥٥٩؛ وأعني: طوم حرب (الاتحاد الماروني العالمي)، وجوزيف جبيلي (قوّات لبنانية). كما أنّ اثنين من المتحدّثين في حفل العشاء الذي أقامه المؤتمرُ أعلاه شخصيّتان لبنانيتان تدينان بالولاء (وبوظيفتهما أيضًا) لجورج بوش الصغير، وهما: وليد فارس ووليد معلوف (اللذان سنفصّل بعضَ ارتكاباتهما عمّا قليل).

إذن، ليس للوبي اللبناني ـ الأميركي أثر يُذْكر في صناعة القرار الأميركي، إلاّ عندما يقرِّر صُنّاعُ ذلك القرار استخدامَه لمؤازرتهم. والملاحَظ، كما يقول د. داوود خير الله من جامعة جورجتاون، أنّ الجماعات «الضاغطة» العربية «لا يُسمعُ لها صوتٌ إلاّ عندما تتماهى أهدافُها مع الأهداف الصهيونية.»[2] ولذلك فليس من المبالغة القولُ إنّ العامل الأساسي وراء قانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان، والقرار ١٥٥٩، لم يكن «الشبابَ» الذين يَفْخر الجنرال عون بهم، وإنّما هو السيِّد بوش الصغير.

في ما يلي سأقْتصر الحديثَ على منظّمة لبنانية ـ أميركية واحدة، وتحالفٍ لبناني ـ أميركي واحد، وشخصيتيْن من الجالية نفسها ـ والكلُّ أسْهم (وإنْ شكليّاً كما ذكرنا) في تحرير لبنان من النفوذ السوري كما يقولون.

أ ـ المجلس اللبناني ـ الأميركي للديموقراطية LACD. رئيسُه طوني حدّاد، الذي استضافه الإعلاميُّ اللبنانيُّ مارسيل غانم على قناة LBC عشيّةَ عودة العماد عون إلى الوطن. خطابُ حدّاد ومجلسِه يتماهى تماهيًا تامّاً مع سياسة بوش الهادفة إلى «نشر الديموقراطية على امتداد الشرق الأوسط من أجل أميركا آمنةٍ من الإرهاب، بما في ذلك استخدامُ سياسةِ الهجوم الوقائي pre-emptive strike.[3] وفي ما يخصّ سوريا تحديدًا، فإنّ الأخ طوني لا يختلف البتةَ عن أعتى المحافظين الجدد في إدارة بوش. ففي مقابلة بتاريخ ٢٠٠٣/١٠/١٠ جَمَعَتْه مع مارك غينسبرغ (السفير الأميركي السابق في المغرب) وفريد الغادري («أحمد شَلَبي» سوريا)، لا يكتفي بمطالبةِ سوريا بسحبِ قواتها من لبنان وإنّما بوقف «دعمها للإرهاب» ووقفِ «برنامج أسلحة الدمار الشامل السورية» (؟!) ووقفِ «تسلُّل الإرهابيين لقتل جنودنا [!] في العراق.» ويناشد حدّاد الإدارةَ الأميركيةَ أيضًا وقفَ الحوار مع سوريا وانتهاجَ سياسةِ القتال.

وفي ٢٠٠٥/٣/١٠ أصدر مجلسُ طوني حدّاد بيانًا يَفْخر فيه بـ «الدور القيادي» الذي أدّاه من بين المنظّمات اللبنانية ـ الأميركية في طرح مشروع قانون محاسبة سوريا على طاولة الكونغرس. كما يتبجَّح بدوره العظيم في مشروع قانونٍ آخرَ «مُؤيِّدٍ للبنان» لم تتّضحْ لنا أخطارُه كاملةً بعدُ، واسمُه LASLA، أيْ «مشروع قانون تحرير سوريا ولبنان،» أو ما تسمّيه إليانا روس ليتن (وهي أحدُ راعييْه في الكونغرس) مشروعَ قانون «لا لسوريا لا»! ويَسْعى هذا المشروعُ إلى تكثيف العقوبات على النظام السوري من أجل «دعم الانتقال إلى حكومةٍ منتَخَبةٍ ديموقراطيّاً في سوريا ولاستعادةِ السيادة والحكم الديموقراطي في لبنان.» وفي أحد اللقاءات تتوجّه النائب روس ليتن بـ «مليون شكر» إلى «طوني» (هكذا، حافٍ!) وإلى «كلِّ اللبنانيين ـ الأميركيين المحبِّين للحرية الذين تُمثِّلهم مجموعتُك.» وفي اللقاء نفسه ينبري أليوت أنجل (وهو الراعي الثاني لمشروع قانون LASLA) فيذكِّر الحضورَ بأنّ حدّاد وَعَدَه «بأنّهما يومًا ما سيزوران معًا لبنانًا حُرّاً... وسيأتي ذلك اليومُ قريبًا.» اللّه يستر!

الجدير ذِكْرُه أنّ حدّاد اعترف في ٥ أيار ٢٠٠٥ في برنامج «كلام الناس» باتّصالاته (هو وغابي عيسى) بأعضاء الكونغرس من أجل الترويج لمشروع قانون محاسبة سوريا، غير أنّه حاول أن يُعطي المشاهدَ انطباعًا بأنّه لا يمكن التمييزُ في الكونغرس بين يهودي وغير يهودي.[4] حسنًا يا طوني، ولكنْ هل أنجل مجرّدُ إنسانٍ «يهودي»؟ لا أحد يطلب منكَ أن تميِّز بين الأشخاص على أساس معتقداتهم الدينية، ولكنْ هل كنتَ تَجْهل ـ وأنتَ الضليعُ الضالعُ في شؤون الدهلزة lobbying منذ أعوام ـ أنّ أليوت أنجل هو أحد الرُّعاة الرئيسيين لقرار الكونغرس اعتبارَ القدس «عاصمةً موحّدةً لدولة إسرائيل»؟ وهل كنتَ تَجْهل أنّه الراعي الأبرزُ لقرارٍ وافقَ عليه الكونغرس «يعبِّر عن التضامن مع الشعب الإسرائيلي ضد الاعتداءات الإرهابية المستمرّة عليه،» و«يُقرّ بحقّ إسرائيل في محاربة الإرهاب... بوصف ذلك جزءًا من الحرب الكونية ضدّها»؟! وهل كنتَ تَجْهل أنّه يَعْتبر حزبَ اللّه وحماس والجهادَ بل وعرفات (رغم كل تنازلاته أمام العدوّ) وجوهًا مختلفةً للإرهاب؟[5]

---

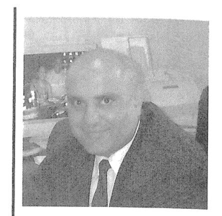
١ ـ Walid Phares, "A Mid East American Revolution is Coming," **Front Page Magazine**, Oct. 1, 2004, www.defenddemocracy.org

٢ ـ **السفير**، ١٧ أيار ٢٠٠٥.

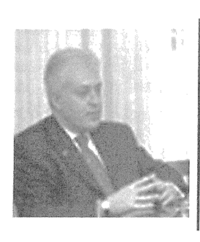
٣ ـ من إعلانٍ أصدره المجلسُ المذكورُ في ميشيغان، خريف ٢٠٠٤. أنظر:
Jordan Thornton, "CIA-Sponsored Lebanese Opposition...," 27 Oct. 2004, www.newswire.indymedia.org.

٤ ـ في برنامج «الاتجاه المعاكس» الذي يُعدّه د. فيصل القاسم لقناة الجزيرة، قال القاسم (قبل ثلاثة اعوام) إنّ أنجل وغيرَه من الصهاينة هم الذين حَضّروا مشروعَ قانون محاسبة سوريا، وإنّ أنجل استَخْدَم الجنرالَ ضدّ سوريا. فردّ عون بأنّ هناك ١٥٧ نائبًا في الكونغرس أيّدوا المشروعَ، وأنّه لا يستطيع التمييزَ بين اليهوديّ فيهم وغيرِ اليهودي.

٥ ـ www.jewishvirtuallibrary.org، ٤ شباط ٢٠٠٤.



طوني حدّاد ووليد معلوف: الأول يؤيّد الهجوم الوقائي الاميركي، والثاني يردّ لأميركا «الجميل» بدعمها ضدّ الإرهاب!



إذن هذه هي نوعيةُ الاتّصالات التي يقوم بها رئيسُ «المجلس اللبناني ــ الأميركي للديموقراطية،» والتي استحقّ بسببها تكريمَ العماد واللواء (بل النائبيْن المنتخبيْن) ميشال عون وإدغار معلوف في جبيل، وتكريمَ مارسيل غانم من LBC. إنّ «نجاحَه» لا يعود إلى «سنواتِه الخمسَ عشرةَ» التي يقول إنّه «ناضَلَ خلالها فأَسْقط رهانَ أميركا على سوريا كورقةٍ رابحةٍ في لبنان،» وإنّما يعود إلى «نضال» الصهاينة داخل الكونغرس ضدّ فلسطين (لا عرفات وحده) وضدّ المقاومة اللبنانية وضدّ سوريا (سوريا الداعمةِ للمقاومة هنا وهناك، لا سوريا النظامِ الذي يضيِّق على المعارضة الداخلية).

ولا بأس، قبل الانتقال إلى الحديث عن طرفٍ فاعلٍ آخرَ في اللوبي اللبناني ــ الأميركي، من ذكرِ معلومةٍ يروِّجها السيد ناجي نجّار، «رئيسُ حكومة لبنان في المنفى، القدس، إسرائيل،» بحقّ طوني حدّاد. صحيح أنّ شهادة نجّار لا يُمْكن الوثوقُ بها لكونها صادرةً عن لبناني «مقيم» في إسرائيل، إلاّ أنّنا نضعها أمام القارئ ليَحْكم بنفسه على صحّتها، ولاسيَّما أنّها تحاول أن تَكْشفَ عن علاقة حدّاد بالجنرال عون وأنجل وليثن. يقول نجّار إنّ حداد مسؤولٌ عن تمويل وتنظيم حملاتٍ لجمع التبرُّعات لأنجل وليثن لكي يروِّجا لمشروع قانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان، وإنّ هذه التبرُّعات (من الجالية اللبنانية!) بَلَغَتْ ٣٠٠ ألف دولار جَمَعَها «مؤيِّدو الجنرال عون» لدعم أنجل شخصياً. ويَزْعم نجّار أنّ حدّاد «يمهِّد الأرضَ» لعون في الكونغرس مستخدمًا أموالاً خاصةً كان الجنرال قد «سرَقَها من البنك المركزي قبل أن يغادر لبنانَ عامَ ١٩٩٠... وتُقدَّر بأكثر من ٥٠ مليون دولار أَوْدَعها البنوكَ الفرنسية.» نعم، قد تكون هذه المعلوماتُ غيرَ صحيحة، ولاسيَّما في شقّها الأخير بعد أن صَدَّعَ الرفيق نجاح واكيم والرئيس سليم الحصّ رؤوسَنا بالحديث عن «نظافة كفّ» الجنرال ومحاربتِه للهدر والفساد. لكنْ لو صحّ الجزءُ الأوّلُ من شهادة نجّار (أي استخدام المال الانتخابي اللبناني لدعم نائبٍ معروفٍ بصهيونيّته الفاقعة)، فذلك سيكون من بين «مآثرِ» طوني حدّاد ومجلسِه و«شبابِ الانتشار اللبناني!»

ب ـ التحالف الأميركي ـ اللبناني ALC. هذا التحالف (على ذمّة د. وليد فارس المتخصِّص بأمور اللوبيات) حصيلةُ ستِّ منظّماتٍ لبنانية ـ أميركية هي: المركزُ اللبناني للمعلومات (تابع للقوات اللبنانية ويرأسه د. جوزيف جبيلي)، والاتحادُ الأميركي الماروني، والتجمُّعُ من أجل لبنان (موالٍ لحزب الوطنيين الأحرار)، والكتائبُ اللبنانية (ممثّلةً بجوزيف الحاج)، والاتحادُ الثقافي اللبناني العالمي ـ فرع أميركا (برئاسة جون حجّار)، ومجموعةٌ يمثِّلها طوني أبو سمرا.[1] وقد رَكّز هذا التحالفُ منذ أواخر التسعينيات على بناء صِلات مع التيارات الأميركية السائدة، ولاسيَّما «المماثلة له فكريًا» من داخل الكونغرس. وبلغتْ تلك الصِّلاتُ ذروتَها في اجتماعٍ عقَدَه التحالفُ المذكورُ في حزيران ٢٠٠٠ برعايةِ مجلسِ الشيوخ الأميركي، وحَضَرَه أليوت أبرامز (الذي سيُصبح مستشارَ الأمن القومي لشؤون الشرق الأوسط أثناء ولاية بوش الأولى). وكان ذلك ــ في رأي فارس ـ بدايةَ استراتيجيةِ اللوبي اللبناني الجديدةِ في ضرورة التوجُّه نحو الحزبين الديموقراطي والجمهوري معًا من أجل استصدار قراراتٍ ثنائيةٍ داخل الكونغرس «لصالح» لبنان، شأن «قرار محاسبة سوريا» الذي رعاه أنجل (ديموقراطي من نيوجرزي) وليثن (جمهورية من فلوريدا).

من المثير هنا أن يطالعَ المرءُ ما يَذْكُره وليد فارس عن دور «التحالف» في قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩. فقد دَعَمَ، بالاشتراك مع «الاتحاد الثقافي اللبناني العالمي،» إصدارَ الأمم المتحدة لقرارٍ جديدٍ يحلّ مكانَ القرار ٥٢٠ من أجل تحرير لبنان. وهكذا قام وفدٌ مشترك (ضمّ جو بيْني رئيسَ «الاتحاد،» وطوم حرب أمينَ عامّ الاتحاد الماروني العالمي، وجون حجّار ممثّلَ بَيْني في أميركا، وجوزيف جبيلي من «القوّات،» ووليد فارس) بلقاءاتٍ مع مسؤولين أميركيين رفيعي المستوى. ولكنْ لولا مسؤولٌ أميركيٌّ من أصلٍ لبنانيّ، على ما يتابع فارس القولَ، لما صَدَرَ القرارُ ١٥٥٩. هذا المسؤول اسمُه وليد معلوف، وسنتحدّث عنه بشيء من التفصيل لاحقًا، ولكنْ حسبُنا هنا أن نشير إلى أنّ بوش عَيَّنه في الوكالة

١ ـ Walid Phares, "The Road to UNSCR 1559...," **Lebanon Wire**, Nov. 29, 2004, www.defenddemocracy.org

الأميركية للتنمية البشرية USAID، وكان أيضًا الممثِّلَ المناوبَ للولايات المتحدة في الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلستها الثامنة والخمسين مكانَ السفير الأميركي الدائم جون نيغروپونتي، فكانَ بذلك أوّلَ ممثّلٍ للولايات المتحدة في الأمم المتحدة يُدلي بخطابٍ باللغة العربية (أيُّ فخرٍ لمعلوف ولبنان واللغة العربية!). وباعترافِ معلوف، فإنّ السفيرَ السوري إلى الأمم المتحدة السيد فيصل المقداد اتّهمه بـ «تمرير أجندةٍ خاصةٍ به» لكونه من أصلٍ لبنانيّ، لكنّ نيغروپونتي دَعَمَ في رسالةٍ إلى المقداد مواقفَ معلوف بوصفها معبِّرةً عن الموقف الأميركي المؤيِّد للبنان!(1)

أمّا كتابةُ نصِّ القرار ١٥٥٩ تحديدًا فتستند، بحسب وليد فارس، إلى أعضاء من «الاتحاد الثقافي اللبناني العالمي» (الذي يَزْعم فارس أنّه يمثِّل ١٠ ملايين مغترب لبناني، ويَزْعم رئيسُه جوزيف بيْني أنّه «يحظى بدعم كاملٍ من وزارة الخارجية اللبنانية بوصفه الممثِّلَ الشرعيَّ الوحيدَ للانتشار اللبناني في العالم!»)(2) وإلى أعضاء من «التحالف الأميركي ـ اللبناني،» بمن في ذلك محاميةٌ لبنانيةُ الأصل من جاكسونفيل (اسمُها جوانْ فخري) وديبلوماسيٌّ لبنانيُّ الأصل (لم يَذْكر فارس اسمَه). ثم بدأتْ «دهلزةُ» اللوبي اللبناني ـ الأميركي مع اللاّعبين الأساسيين الذين يحدِّدهم فارس بالولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا والمكسيك وأستراليا... ودولٍ أخرى (؟). ولمّا كان تأييدُ فرنسا حاسمًا في المسألة فقد «طَمْأَنَ» وفدٌ لبنانيٌّ، مؤلَّفٌ (على ذمّة فارس أيضًا) منه شخصيّاً ومن فادي برق (؟) ورئيسٍ وأمينٍ عامٍّ «الاتحاد الماروني العالمي» سامي خوري وطوم حرب، ممثِّلين للدولةِ الفرنسية إلى «الصداقة المستقبلية والروابطِ الثقافية الجامعة» بين لبنان وفرنسا! هذا وقد لعب الانتشارُ اللبناني في فرنسا دورًا في هذا المجال، كما يقول فارس، وبخاصةٍ بسببِ وجودِ الجنرال عون في باريس.

ج ـ شخصيات لبنانية ـ أميركية. سنَقْتصر الكلامَ هنا على شخصيتيْن بارزتيْن كان لهما دورٌ شكليٌّ واضحٌ في «تحرير» لبنان، وهما وليد فارس ووليد معلوف، اللذان سَبَقَ أن تعرَّضنا لبعض نشاطاتهما إعلاه.

أما فارس فأستاذُ دراسات الشرق الأوسط في جامعة فلوريدا أتلانتيك، و«مستشارٌ رفيعٌ» في «مؤسسة الدفاع عن الديموقراطيات» FDD في واشنطن، والسكرتيرُ العامُّ للاتحاد الثقافي اللبناني العالمي (سبق ذِكْرُه). وهو ضيفٌ دائمٌ على أبرز المحطّات الإعلامية الأميركية، حيث يَطْرح نفسَه متخصِّصًا في الإيديولوجيا البنلادنية والأقليّات الإثنية وصِدام الحضارات و... النساء من بين عشرات الموضوعات الأخرى! كما أنّه على قائمة «بنادور أسوشيتس» التي تضمّ «خبراءَ» من أمثال: كنعان مكيّة (العراقي)، وسعد الدين إبراهيم (المصري)، وريتشارد پيرل وايْ. أم. روزنثال (الأميركيَّيْن الصهيونيَّيْن). وهو على كونه، كما يدّعي، «خبيرًا» في الشؤون اللبنانية و«على ارتباطٍ بكاملِ المجتمع المدني اللبناني،» فإنّه لم يَزُرْ لبنانَ منذ عام ١٩٩٦ (وهذا باعترافه الشخصي أمام بعثة هلسنكي في واشنطن)... وإنْ كان قد حاضَرَ في بلدانٍ قريبةٍ من لبنان: إسرائيل، وتحديدًا: القدس!

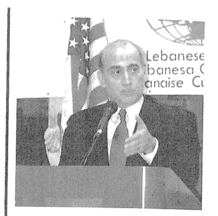
يَعتبر فارس نفسَه أميركيّاً، لكنّه ـ بحُكْم نشأته ـ خبيرٌ في عقلية الإرهابيين الأصوليين. وهكذا يَنْصح الأميركيين في ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٣ بتشديد الحذر من هجماتٍ قاعديةٍ جديدةٍ لأنّ بن لادن يريد «الثأرَ للشرف» و«وراثةَ زعامةِ الجهاد» بعد القبض على صدّام واستسلام القذافي أمام الأميركيين. ونصيحتُه تلك، كما يُخْبر مستمعيه وقرّاءه الأميركيين، مستندةٌ إلى خبرته بشعوبٍ شَهِدت الإرهابَ «مثلَ الإسرائيليين والأتراك والمسيحيين اللبنانيين»! وما دمنا أتيْنا على ذكر المسيحيين اللبنانيين الذين يتبارى «شبابُ» الانتشار اللبناني في الدفاع عن وجودهم المهدَّد، فلا بدّ أن نستطردَ في القول إنّ فارس «وَعّى» الناسَ في الغرب عامَ ٢٠٠٣ بقضيةِ الذِّمّيّة (مثلما فَعَلَ ذلك العمادُ عون نفسُه، ويا للمصادفة السعيدة)، أيْ «إساءةِ معاملةِ الجهاد (؟) للأقليّات،» مضيفًا ـ من باب تملُّق الصهاينة الأميركيين والإسرائيليين بلا أدنى ريْبٍ ـ أنّ اليهود «هم الذِّمّيّون الذين استطاعوا تحقيقَ كيانٍ سياسي سيِّدٍ في مواجهة اللاتسامح العربي والإسلامي.»(3)

ومن بين آخرِ نشاطاتِ د. وليد فارس ترؤسُه في ٧ آذار ٢٠٠٥ «وفدًا عالميّاً» إلى الأمم المتحدة باسم «الاتحاد الثقافي اللبناني العالمي،» سلَّم كوفي عنان مذكّرةً تطالبه بالتدخُّل «للإنهاء الفوري لاحتلال سوريا للبنان.» فلمّا كان السوريون لم يتجاوبوا بعدُ مع القرار ١٥٥٩ بحسب زعم ذلك الوفد، فإنّ على مجلس الأمن «التصويتَ على قرارٍ جديدٍ بالانسحاب،» وتشكيلَ قوةٍ متعددةِ الجنسيات «لحماية اللبنانيين من القوى الأجنبية المسلَّحة ولاسيَّما قواتُ الاحتلال السوري والمنظّمات الإرهابية،» بل ووضْعَ الجيش اللبناني نفسِه تحت إمرة تلك القوة المتعدّدة الجنسيات! كما تطالِب المذكّرةُ عنان بتحرير المعتقلين السياسيين اللبنانيين من السجون السورية (لا الإسرائيلية طبعًا)، وبإعادة الممتلكات والأرشيفات «التي أُخذتْ» إلى الحكومة اللبنانية الجديدة (لا الآثار اللبنانية التي سَرَقَتْها إسرائيل)، وبتقريرٍ سوريٍّ كاملٍ عن «الموادّ العسكريّة المخبّأة» في لبنان (لا بتقرير إسرائيلي عن الألغام على

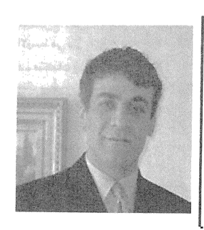
1 ـ من مقابلةٍ أجرتْها مجلةُ **المسيرة** مع وليد معلوف في واشنطن دي. سي. في ٤ نيسان ٢٠٠٥، www.al-kateab.org.

2 ـ راجعْ مقالة فارس المذكورة آنفًا، "The road to UNSCR" ٢٩ تشرين الثاني ٢٠٠٤. أمّا «بيْني» فمن مواليد شمال لبنان عامَ ١٩٤٤، هاجَرَ إلى أستراليا عام ١٩٥٦. فماذا تقول وزارةُ الخارجية في مَنْ يدّعي أنّه يحظى بدعمها التامّ، وهو الذي يُطالب أميركا والمجتمعَ الدوليَّ بدعوةِ سوريا إلى حلِّ الحزبِ السوري القومي الاجتماعي «مَنْ ضمن المنظّمات التي اسّسها وأشْرف عليها جيشُ الاحتلال السوري»؟!

3 ـ Walid Phares, www.israeloncampuscoalition.org, 2003.



وليد فارس وزياد عبد النور: الأوّل «خبير» في شؤون لبنان مع أنّه لم يزره منذ ١٩٩٦، والثاني شريك لـ «إيپاك» وصقور البنتاغون ودانيال پايپس!



امتداد الخطّ الأزرق الفاصل بين لبنان وفلسطين)، وبتشكيل لجنة دولية للتحقّق من «جرائم الحرب» التي ارتكبها السوريون منذ عام ١٩٧٦ (لا الجرائم التي ارتكبها الإسرائيليون منذ عام ١٩٤٨، وأوّلُها مجزرةُ الحولة). وأخيرًا تطالب المذكّرة، التي يَزْعم واضعوها تمثيلَهم لجميع اللبنانيين في دول الانتشار بإقرار وزارة الخارجية في لبنان (!)، بحلّ كلّ التشكيلات شبهِ العسكرية المدعومة أو المموَّلةِ من قِبل «جيش الاحتلال السوري» بما فيها «التجهيزاتُ العسكريةُ والأسلحةُ التابعةُ لحزب الله، وحزب البعث السوري، والحزب السوري القومي الاجتماعي...»![1]

ويبدو أنّ أحدًا ما أخبر فارس أنّ السوريين انسحبوا فعلاً من لبنان، فقال أمامَ لجنة هلنسكي الفرعية في آذار ٢٠٠٥ في واشنطن إنّ ذلك تمّ حقّاً ولكنْ... على أساس «معاهدةِ الأخوّةِ والتعاون» الموقّعة بين لبنان وسوريا عام ١٩٩١، لا على أساس القرار ١٥٥٩. وهذا يعني، في رأيه، «أنّ بمقدور حكومةٍ مواليةٍ لسوريا في لبنان في المستقبل أن تَطْلب من القوّات السورية العودةَ [إلى لبنان].» وعليه، فإنّه يُطالب بإلغاءِ تلك المعاهدة أصلاً لأنّها «أساسُ المشكلة.»

قبل الانتقال إلى الحديث عن شخصيةٍ لبنانيةٍ ـ أميركيةٍ ثانيةٍ ساعدتْ في «تحرير لبنان،» لا بأس في أن نضع أمام القارئ من جديدٍ ما قاله عن وليد فارس رئيسُ حكومةِ لبنان في إسرائيل السيّد ناجي نجّار، لما قد يَمْتلكه من معلوماتٍ صادرةٍ عن الاستخبارات الإسرائيلية. فهو يتّهم فارس بسرقة ٢٥٠ ألف دولار من خزينة القوات اللبنانية، وبأنّه راح «يمهِّد الأرضَ» للجنرال عون في الولايات المتحدة عن طريق «قسْمةِ» المعارضةِ هناك وتسليمِ زمامِ أمرها إلى عون. ويَزْعم نجّار في هذا الصدد أنّ فارس جَنّدَ د. جوزيف جبيلي من «القوات اللبنانية» واصطحبه عدةَ مرات إلى فرنسا لمقابلة عون من أجل «تحييد القوات اللبنانية في الخارج،» وأنّه «خَطَفَ الاسمَ السياسيَّ للاتحاد الثقافي اللبناني العالمي وأخذ يَسْتخدمه أداةً سياسيةً لخدمة سياسة عون. والواضح أنّ رؤية نجّار إلى فارس وطوني حدّاد تَسْتند إلى (وتَدْعم في آنٍ واحد) إيمانه الراسخ بأنّ العماد عون حصانُ طروادة سوريٌّ لتقسيم المعارضة (شأنه في ذلك شأن الرئيس لحّود وإيلي حبيقة مِنْ قَبْلِهِ كما يقول) من أجل أن يكون رئيسَ جمهورية لبنان القادم.[2]

أما وليد معلوف، الذي سبق أن نَقَلْنا عن وليد فارس قولَه إنّه لعب دورًا حاسمًا في تسريع اللقاءات اللبنانية بمسؤولين أميركيين وغير أميركيين من أجل إصدار القرار ١٥٥٩، فأصلُه من كفرقطرا، إلاّ أنّه «يُطَمْئننا» في مقابلةٍ أجْرتْها معه جريدةُ **النهار**[3] إلى أنّه كان قد قرّر منذ البداية أن يكون أميركيّاً ومندمجًا في المجتمع الأميركي ونظامِه السياسي بدلَ أن يعيش في أميركا وقلبُه وعقلُه «في بلدِ الأجداد!» ـ وهذا، في حدّ ذاته، يعني أنّ همَّه الأولَ هو خدمةُ أميركا لا لبنان. ويُضيف أنّ أميركا عامَلَتْه بصورةٍ حسنة، ولهذا قرّر أن يردّ لها الجميلَ، وأن يساعد الرئيس بوش على الانتصار في «حربه على الإرهاب وتحقيق الدمقرطة في الشرق الأوسط.» وهذه الدمقرطة تستند، كما يقول، إلى دالاتِ بوش الثلاث: Defence (الدفاع) والديبلوماسية Diplomacy والتنمية Development. ولذلك ارتفعتْ ميزانيةُ الوكالة الدولية للتنمية البشرية USAID التي عَيَّنه بوش فيها من ٨ بلايين إلى ١٤ بليون دولار خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. بل يُخْبِرنا معلوف أنّ بوش، من فرطِ حرصه على دقرطة منطقتنا، أنشأ برنامجيْن آخريْن لذلك الهدف هما «المبادرة المتوسطية المشتركة» و«الشرق الأوسط الأكبر وأفريقيا الشمالية.» لكنّ ذلك لم يكفِ كما يبدو، ولذلك يؤيِّد معلوف رئيسَه في الحرب على العراق والشرق الأوسط: «فالشرق الأوسط أشبهُ بشجرة بلّوطٍ عتيقةٍ كبيرةٍ جداً وراسخةٍ جداً إلى درجةِ أنّ عليكَ أن تهزَّها من أجل التغيير؛ فالتغيير [في الشرق الأوسط] لن يأتي من الداخل.»[4] ولعلّ السيِّد معلوف، بهذا

---

١ ـ Walid Phares, "Immediate Attention...," March 7, 2005, www.wlcu.com.

٢ ـ Naji N. Najjar, "Syria and a Confused Administration...," Feb 25, 2005, www.free-Lebanon.com

٣ ـ **النهار** ٢٦ أيلول ٢٠٠٤.

٤ ـ **Washington Diplomat**, 11/10/2004.

التصريح، نسي دالاً رابعة في سياسة بوش لدقرطة الشرق الأوسط هي دالُ «الدمار» destruction أو دالُ «الدَّم.»

د ـ منظمات وشخصيات لبنانية ـ أميركية أخرى. يبقى أنّ هناك منظّمات وشخصيات أخرى تعْمل داخل الولايات المتحدة «لخدمة لبنان.» ومنها: تنظيمُ حرّاس الأرز بزعامة إتيان صقر (الملقّب بأبي أرز)، صاحبِ المجازر الشهيرة والأقوال العنصرية ضدّ الفلسطينيين في تلّ الزعتر وغيره. وتشير الأنباءُ إلى أنّ هذا الصقر التقى قادةَ منظّماتٍ صهيونية، واعترف مالكولم هونلاين (رئيسُ «مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الأساسية») بلقائه من أجل الحديث عن «وضع المسيحيين في لبنان.» كما حَضَرَ لقاءَ جَمْعه (إلى جانب وليد فارس) بالإسرائيلي موشيه بارْ نيا، الذي يصفه أبو أرز بأنّه «ناشطٌ مؤيِّد للصهيونية، شديدُ التأييد لإسرائيل، شديدُ التأييد للمسيحيين اللبنانيين.» فَكَمْ من الجرائم والخطايا تُرتكب باسمكِم، أيُّها المسيحيون اللبنانيون!

ومن المنظّمات اللبنانية ـ الأميركية التي أبْلَت بلاءً حسنًا في تحرير لبنان مؤخّرًا (ولكنْ من وصايةٍ واحدةٍ فقط) ما يُعرف بـ «اللجنة الأميركية من أجل لبنان حرّ» USCFL برئاسة زياد عبد النور، ابنِ النائب خليل عبد النور وأحدِ الدعاةِ الأساسيين لقانون محاسبةِ سوريا واستعادة سيادة لبنان عامَ ٢٠٠٣. حلفاؤه؟ «إيباك» (لجنةُ الشؤون العامّة الأميركية ـ الإسرائيلية)، و«التحالفُ المسيحي في أميركا،» و«مؤتمرُ رؤساء المنظمات الأميركية اليهودية الأساسية» (وهذه كلّها ضِمْن الروابط المختارة selected links التي تَنْصح منظّمتُه بمراجعتها، وذلك على موقع www.freelebanon.org). داعمو منظمته أو ما يسمّى بـ «الدائرة الذهبية»؟ أليوت أبرامز (مستشارُ الأمن القومي لشؤون الشرق الأوسط)، وريتشارد پيرل (صقر البنتاغون)، وپاولا دوبريانسكي (نائبةُ رايْس وناحتةُ مصطلح «ثورة الأرز» عندنا)، ودانيال پايپس (المفتِّشُ العامُّ عن الأساتذة المؤيِّدين لفلسطين في الجامعات)، وأليوت أنجل (راعي قانون محاسبة سوريا واعتبار القدس عاصمةَ إسرائيل، وأحد المتبرّعين بألفِ دولارٍ أو أكثر للجنة زياد عبد النور). الجديرُ ذكرُه أنّ عبد النور وپايپس أصْدرا عام ٢٠٠٠ تقريرًا مشتركًا يدعو أميركا إلى استخدام القوة العسكرية لطردِ سوريا من لبنان ونزع أسلحة الدمار الشامل التي تَمْلكها (؟!)، بدلاً من التعاطي الدبْلوماسي معها. وكان ذلك التقرير، والتواقيعُ التي جُمعتْ في تأييده، من الوثائق التي استُخدِمتْ لإقناع الكونغرس بإقرار قانون محاسبة سوريا عامَ ٢٠٠٣.[1] والمخيف أنّ أكثر الموقّعين (أمثال پيرل وفايث وأبرامز ودوبريانسكي) سَبَقَ أن قَرَعوا طبولَ الحرب ضدّ العراق، وهم يَقْرعونها الآن ضدّ سوريا لا لدفعها إلى الخروج من لبنان فقط وإنّما لتغيير نظامها أيضًا ـ وهو ما يذكّر بخطاب عون في ٢٠٠٣/٩/٨ أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الدولية في مجلس النوّاب الأميركي. والحقّ أنّه يَصْعب أن تجد وطنيّاً أو قوميّاً حقيقيّاً يَحْرص على بقاء أيّ نظام عربيّ على ما هو عليه، ولكنْ يَصْعب أيضًا أن نقتنعَ بأنّ ما ستأتي به أميركا وإسرائيل بديلاً سيكون أفضلَ كثيرًا من كرزاي وعلاّوي!

III ـ خاتمة

تلك كانت إطلالةً سريعةً على نشاطِ وخُطبِ الجنرال عون وبعض «الشباب» في دول الانتشار. فلا يغرَّنْكم ما يفعله بعضُ أبنائكم في الخارج، أيُّها المواطنون القابعون في لبنان. فهم يَعْملون ـ أيدْرون أمْ لا يَدْرون؟ ـ من أجل وصايةٍ أخرى بديلةٍ عن الوصاية السورية (المرفوضةِ بدورها طبعًا). والأهمّ أنّهم يتآمرون على المقاومة، وعلى سلاحها، في الوقت الذي تستمرُّ إسرائيلُ في خروقها شبهِ اليومية، وفي احتلالها لمزارع شبعا، وفي احتفاظها بالأسرى وجثث الشهداء، وفي إحجامها عن تسليم خرائط لحقول الألغام الممتدّة على طول الخطّ الأزرق بنسبة ٨٠٪ وبعمق ١٠ ـ ٢٠٠ متر،[2] وفي منعها لبنانَ من الاستفادة من كاملِ حصّته المائية من نهرَي الوزّاني والحاصباني،[3] وفي منعها الفلسطينيين في لبنان وغيره من حقّ العودة إلى بيوتهم في فلسطين. ومع ذلك، ليس مُستَبْعدًا أن يعود بعضُ اللاعبين السياسيين اللبنانيين إلى الحديث عن نزع سلاح المقاومة. فها هو العماد عون يَطْلب من حزب الله أن يقاوم «ثقافيّاً وإعلاميّاً» فقط (لعلّ السيد نصر الله يصبح زميلاً لنا في الصحافة عمّا قريب!). وها هو السيد سعد الحريري يصرِّح لمجلة **نيوزويك** بـ «أنَّنا سنَنزع سلاحهم» We will disarm them؛[4] وكان في ٢٩ أيار قد قال لـ **واشنطن پوست** الجملةَ نفسها،[5] وإنْ كان في الحاليْن قد أتْبع عبارته تلك بالقول: «سنَجْلس ونتحدّث معهم وسنصل إلى حلّ.» والسؤال الذي يَطْرح نفسَه: ماذا لو لم تصلوا إلى حلّ يا شيخ سعد؟

وبالعودة إلى موضوعنا الأساسي عن اللوبي اللبناني ـ الأميركي، فإنّه يجب في الختام التنبيه إلى وجود مثقفين وأكاديميين وناشطين آخرين وجمعيات لبنانية وعربية ـ أميركية تُدافع عن حقّ لبنان وحقّ فلسطين وحقّ سوريا والوطنِ العربيّ عامةً في التحرُّر والسيادة والاستقلال... عن كلّ القوى والأحلاف المتآمرة. ولعلّ هذا أن يكون موضوعًا نتطرّق إليه في المستقبل القريب.

بيروت

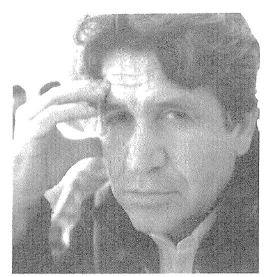
١ ـ "US Committee for a Free Lebanon," rightweb.irc-online.org.

٢ ـ العميد أمين حطيط، ملحق **السفير**، ٢٥ أيار ٢٠٠٥ (مقال لكامل جابر).

٣ ـ تضخّ إسرائيلُ يوميّاً أكثرَ من ألفيْ متر مكعّب من الحاصباني وأكثرَ من ٢٦٠٠ متر مكعّب من الوزّاني (المصدر السابق).

٤ ـ Lally Weymouth, **Newsweek**, June 6, 2005.

٤ ـ Washingtonpost.com, May 29, 2005.



هادي دانيال

حوار مع الشاعر السوري هادي دانيال

حاوره: كمال الرياحي (تونس)

■ هل خان الشاعرُ الطريقَ؟ ■

«الشاعر يجب أن يتمثّل في شعره إلى حدٍّ ما. فإذا كان شاعراً مُجيداً، فشعرُه مرآةُ نفسه... بحيث تستطيع أن تقرأ قصائدَه المختلفة فتشعرَ فيها بروح واحدة ونَفَسٍ واحد وقوّةٍ واحدة. وقد يَختلف هذا الشعرُ شدةً وليناً، ويتباين عنفاً ولطفاً، ولكنّ شخصية الشاعر ظاهرةٌ فيه، محقّقةً الوحدةَ الشاعريةَ التي تمكّنك من أن تقول: هذا الشعر لفلان، أو هو مصنوع على طريقة فلان.»

انبجستْ في ذهني هذه العبارةُ لطه حسين وأنا أتحسّس مدوّنةَ هذا الشاعر الذي راودتني نصوصُه غيرَ مرّة في إحدى المكتبات العمومية في إحدى ضواحي تونس العاصمة التي سمعتُ أنه يقيم فيها منذ سنوات. إنّه الشاعر السوري هادي دانيال، من مواليد اللاذقية سنةَ ١٩٥٦. غادر قريتَه الصغيرة باللاذقية وهو بعدُ طفلٌ؛ فقد دفعه جنونُه إلى المغامرة مبكّراً والمقامرةِ بفراش العائلة الدافئ ليقتحمَ بردَ الخلاء وصقيعَ المجهول. هكذا عَبَرَ الشابُّ الصغيرُ حدود سوريّة ليبدأ رحلةَ شعرٍ ونضالٍ عجيبةً، رحلةَ تيهٍ بين مدنٍ عالميةٍ كثيرةٍ ترويها هذه الذاكرةُ المحمومةُ في هذا الحوار.

لنفكَّ طلسمَ اسمك أولاً: هادي دانيال. فأنت الهادي، وهو اسم من أسماء الله الحسنى؛ وأنت دانيال، وهو اسم يوحي بعجمةٍ للوهلة الأولى، ولكنّه أيضًا اسمُ نبيٍّ ظهر في بني إسرائيل. وأنت الهادي من «الهدوء» والحالُ أنك الثائرُ أبدًا. كيف تتعامل مع هذا الاسم؟ وهل أرضى غرورَ الشاعرِ فيك، الشاعرِ الذي تنتابه أحاسيسُ النبوّة والألوهيّة بين اللحظة والأخرى؟

أنا نَحَتُّ اسمي كما يُنحتُ تمثالٌ من صخرةٍ أو جذع شجرة. فقد أَخرجْتُ هادي دانيال من «عبد الهادي دانيال الوزة.» لماذا؟ أمتنع الآن عن ذكر ذلك، تفاديًا للتأويل السيِّئ والمسيء. لكنّ ذلك حصل لأوّل مرة في بيروت سنة ١٩٧٥، مع الأشهر الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية. وقد ارتسم اسمُ

هادي دانيال لأوّل مرة على الصفحة الأخيرة من مجلة **الصمود**، ثم على الصفحة الأخيرة من مجلة **الهدف**، وهما مجلّتان فلسطينيتان: الأولى كانت لسانَ جبهة الرفض، والثانية لسانَ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لكنّني تنبّهتُ في هذه اللحظة إلى أنّ طريقةَ تغييرِ وتحديثِ اسمي كانت مؤشّرًا إلى طريقتي في تغييرِ وتحديثِ كتابتي الشعرية. فأنا في التغيير والتحديث أُشذّب وأُهذّب وأنمّي وأطوّر، وفي هذا السياق أستغني عن الزائد والفاسد؛ لكنّني لا أدمّر وأخرّب لأبني على الأنقاض، ولا أستبدل تراثًا بتراث، أو مرجعيةً بمرجعية.

حدِّثنا عن أول نصوص نُشرتْ لك.

القصيدة الأولى المنشورة كانت سنة ١٩٧٢، وكنتُ أخشى أن يَعْرف والدي بأمرها لأنّه كان يعتقد أنّ الشعر يدفعني بعيدًا عن الدِّين ومقاعد الدراسة. لذا لم أشعرْ بمتعةٍ ما في تقبُّل أول نصّ شعري لي مطبوعًا في مجلة. لاحقًا نَشَرتْ صحفٌ ومجلاتٌ عديدةٌ قصائدي، ولا أحد تقريبًا كان يعرف أنّني ناظمُها؛ حتى أساتذتي وزملائي في «إعدادية الواقدي» بدمشق لم يُدْركوا ذلك إلاّ عندما اتّصل بإدارة المدرسة رئيسُ تحرير مجلة **جيل الثورة** الشاعر بندر عبد الحميد ليتأكّد من أنّ عبد الهادي الوزة، الذي خَصَّص له زاويةً نصفَ شهرية في المجلة يحرّرها بالمراسلة، هو فعلاً تلميذٌ في هذه المدرسة كما يدّعي. ولاحقًا عندما زرتُ القريةَ ذاتَ صيفٍ قام والدي باقتلاع اسمي من نصوصي المنشورة، مستخدمًا شفرةَ حلاقة. كما قام بإتلاف كتبي غير المدرسية، وبطريقة أغاظتني بل قهرتني. وهذا كلُّه أنضج قراري مغادرةَ منزل العائلة نهائيًا، فنزلتُ في البداية ضيفًا موقّتًا عند الصديقين القديمين الرسّام والشاعر السوري زهير غانم والرسّام العراقي صالح الكردي.

■

والدي اقتلع اسمي من نصوصي المنشورة بشفرة حلاقة، وأتلف كتبي غيرَ المدرسية!

■

ولكنْ قبل ذلك كان صديقي بندر قد دعاني إلى زيارة المجلة وزيارة بيته، وأهداني كتاب **الشعر والتجربة** لـ «ماكليش» الذي أثّر فيَّ كثيرًا، مثله مثل كتاب صدقي إسماعيل **رامبو ـ قصة شاعر متشرد**، الذي قرأتُه مع **الأغاني** والأعمال الكاملة للسيّاب والبيّاتي وأدونيس وحاوي وعبد الصبور و**ديوان الشعر العربي** لأدونيس من مكتبة الصديق محمد خالد رمضان. تحت تأثير كتابَيْ ماكليش وإسماعيل قرّرتُ ربما لا تركَ منزل العائلة فحسب بل وتجاوُزَ حدود بلادي كذلك. وفي تلك الفترة رشّحني بندر لتغطية البدء في إنجاز مشروع سدّ الفرات، واستقبلني وزيرُ السدّ حينها مع ممثّلي بقية الصحف ووسائل الإعلام السورية. كانت تلك أولَ مهمة صحفية أقوم بها، وقد نَشَرتْ **جيل الثورة** ما أنجزتُه، وهو مجموعة مقابلات عن معاناة العمّال المياومين في هذا المشروع أثارت حفيظةَ الوزير وسخطَه. كما نَشرتْ لي مجلّةُ **جيش الشعب**، التي كان يُشْرف على قسمها الثقافي حينها صديقي الشاعرُ الراحل ممدوح عدوان، قصيدتي التي استوحيتُها من تجربتي الصحفية الأولى بعنوان «عندما يَفْسد الدمُ في الشرايين.» وهنا أشير إلى أنّني في الصيف الذي سبق تلك الفترة التي غادرتُ المنزلَ خلالها، عملتُ في الشركة الخماسية للنسيج ثلاثةَ أشهر أو أقلّ، وكتبتُ قصيدتي «يوميات عامل في الخماسية.»

إذنْ لم أَعرفْ بهجةَ المفاخرة بنشر النصوص الأولى، التي لم تضمّ مجموعاتي الشعريةُ العشراتِ منها، لأنّني كنتُ أخوض صراعًا سريًا ليس من أجل الاعتراف بي كشاعر، بل من أجل التحرّر من التزامات الدراسة والمجتمع. حتى الشاعر ممدوح عدوان وزميلُه رياض عصمت كانا خلال فترة مناوبتهما في مجلة **جيش الشعب** يعطياني دروسَ تقويةٍ في الإنكليزية والرياضيات للتمكّن من نيل الشهادة الإعدادية. لكنّ المفارقة أنني في موعد تقديم امتحان هذه الشهادة اخترتُ الذهابَ إلى مدينة الطبقة لتغطية البدء بإنجاز مشروع سدّ الفرات، فعدتُ عوضًا عن الشهادة بأولِ تحقيقٍ صحفي وبقصيدةٍ احتفى بها ممدوح عدوان نفسُه عندما نشرها قصيدةَ العدد.

متى بدأتْ حكايتُك مع الرحيل؟

بعد قراءتي كتابَيْ **الشعر والتجربة**، و**رامبو ـ قصة شاعر متشرد**، وربما بعد أن سَكَنَتْني طفلاً حكاياتُ والدتي الباكية حول أخيها غير الشقيق، الشاعرِ الزجّالِ الذي غادر إلى بيروت مبكّرًا، فكّرتُ في التوجّه صوب بيروت. كنت تحت السنّ القانونية التي تؤهّلني للسفر بمفردي، فاستقللتُ سيّارة أجرة إلى الحدود السورية ـ اللبنانية، وهناك تسلّلتُ من خلف الموقع الحدودي إلى الوديان

ودخلتُ الأراضي اللبنانية. وحين استوقفني رَجُلا أمنٍ يطاردان المهرِّبين، اختلقتُ حكايةً مؤثِّرةً زعمتُ فيها أنّ والدي طَلّقَ والدتي وتركني وشقيقاتي بلا مُعيل، فطلبتْ أمي منّي الذهابَ للعمل في بيروت عساني أُعيلها. دَمعتْ عينا الرجليْن وأوصلاني إلى طريق شتوره، وهناك استقلَلْتُ سيارةَ أجرة لبنانيةً إلى بيروت. عندما دخلتُ الأرضَ اللبنانية شعرتُ أنّ للسماء لونًا آخر، أخضرَ، وانتابتني أحلامُ يقظةٍ استعدتُها في بعض قصائدي.

كنتُ أحمل معي رسالةً إلى الشاعر سليم بركات، من صالح الكردي وزهير غانم. وقيل لي أن أسأل عنه في «دار العودة.» كان سليم قد سَبَقني إلى بيروت بدعوةٍ من أدونيس، الذي أصْدر له مجموعتَه الأولى عن منشورات **مواقف**، وأمّن له عملاً كمصحِّحٍ في دار العودة التي كانت **مواقف** تَصْدر عن مطابعها. وصلتُ مساءً إلى دار العودة، فوجدتُ شابًا أخذني إلى سليم بركات على درّاجته النارية. فوجئ سليم بي لأنّه لا يَعْرفني، لكنّه تذكّر كتاباتي، واحتفى بي أكثر بعد أن قرأ رسالةَ صالح وزهير. لكنّه قال لي بلهجةٍ لم تعجبْني: «أنت طبعًا تريد أن تقابل أدونيس؟» فأجبتُه على الفور: «طبعًا لا !» وبعد فترة صمت قال لي: «عُدْ إلى دمشق. من الصعب إيجادُ عملٍ هنا. عندما أجدُ لك عملاً أَعِدُكَ بأن أُرسل في طلبك.» سألتُه: «هل تعرف شريف الربيعي؟» أجاب: «طبعًا.» قلت له إنّ معي رسالةً إليه، فهل يوصلني إليه؟ كان الربيعي سكرتيرَ تحرير مجلة **إلى الأمام** الفلسطينية، وهو شاعر عراقي توفّي قبل سنوات في لندن. وهكذا نمتُ أولَ ليلة لي في غرفة سليم بركات، وفي اليوم التالي التقيتُ الربيعي في مجلة **إلى الأمام**.



انتقل سليم بركات إلى **فلسطين الثورة**، وتسلّمتُ القسمَ الثقافي في **الهدف** مكانه

لم ألْتقِ سليم بركات إلاّ بعد سنتين في مجلة **الهدف** التي كان محرِّرَها الثقافي، وقدمْتُ لأعملَ مصحِّحًا فيها. وبعد أشهر توفّي طلال رحمة، صديقُ سليم الذي كان محرِّرًا ثقافيًا في مجلة **فلسطين الثورة**، فغادر سليم **الهدف** ليحلّ محلّه. وحين سأله بسّام أبو شريف عمّن سيستلم القسمَ الثقافيّ في **الهدف**، قال له: «هادي دانيال.» وهذا ما حصل!

في اليوم الثاني نمتُ عند شريف الربيعي. وفي الليلة نفسها بدا أنّه لم يصدِّق أنّني شاعر، إذ كان يراني صغيرَ السنّ خجولاً غيرَ جديرٍ بالمديح الذي غَمَرَتْني به رسالةُ صالح وزهير. فجاءني بحبّةٍ زرقاء صغيرة وناعمة وقال لي: «خذها مع جرعة ماء، وهذا قلم، وهذه أوراق بيضاء، وأرني إنْ كنتَ شاعرًا حقًا.» وفجأةً، كتلميذ في امتحان، افترشتُ سجّادةً على أرض الغرفة وشرعتُ أكتُب، فأنجزتُ قصيدتيْن طويلتيْن في جلسة واحدة: الأولى هي «قلبي خارطة سوداء» وقد نُشرتْ في مجلتي **الموقف الأدبي** و**الفكر المعاصر** ولاقت صدًى رائعًا؛ والقصيدة الثانية عنوانُها «الرقص في غرف الأحلام المغلقة.» قرأهما شريف وصار من بعدها يَنْشر قصائدي بافتخارٍ في **إلى الأمام**.

استقال الشعراءُ من كتابة المعنى بدافع الجمالية. ينتابني إحساسٌ أنّ هذه الأكذوبة بدأتْ تصل ذروتَها لتنهار، وسيُبْعث زمنُ المعنى من جديد، زمنُ القصيدة المسؤولة فنًا ومعنى. على ضوء ذلك كيف تقرأ الشعرَ العربيَّ المعاصر؟ ألا ترى أنّ ثقافة اللعب قد أجهزتْ على شعريّته؟

خروج الجمالية على المعنى في الشعر هو خروجٌ على الشعرية ذاتها. فحتى في أقصى اندفاعات الاتجاه التجريدي في الفنون التشكيلية لم يتمّ التخلّي نهائيًا عن المعنى، وإنْ صار التعبيرُ عنه أشدَّ نزوعًا نحو الغموض الذي لا يَدْخل دائرةَ الإبهام؛ ذلك لأنّه بدخول كهذا يُعْلن الفنّانُ عن عجزٍ بيِّن، وعن تَمَحُّلٍ تَفْشل الذرائعُ النظريةُ في تبريره. وإذا تتبّعْنا تاريخَ الفنون عمومًا فسنلاحظ أنّ «تهميش» المعنى كان يَحْصل في مراحلَ تجريبيةٍ لكسر النمطية واكتساب مهاراتٍ تقنيةٍ تُغْني الأساليبَ التعبيريةَ، لتتمّ العودةُ إلى المعنى بقوة. وعمومًا لم تُثْمر المراحلُ التجريبيةُ عند فنّانٍ مفردٍ أو حركةٍ فنيةٍ أعمالاً مهمّةً استغنت عن المعنى، لكنّها أثْمرتْ تقنياتٍ جديدةً استُخْدمتْ في أعمالٍ تمتاز بقوة المعنى وقوة التعبير الفني عنه معًا.

وعندما أعلن الشعرُ العربيُّ المعاصر خروجَه على القصيدة العمودية، أكّد أنّ هذا الخروج الثوري يرتكز أساسًا على الانتقال من وحدة البيت إلى وحدة الموضوع في القصيدة؛ فهو انتقالٌ على مستوى التعبير عن المعنى تعبيرًا فنيًا وَصَلَ ذروتَه في إنجازِ وحدةٍ فنيّةٍ شملت الشكلَ والمضمونَ في الأعمال الشعرية الأساسية عند شعراء مثل السّياب والبياتي وحجازي وحاوي وأدونيس والماغوط والحاج ودرويش وعدوان ودنقل والفيتوري...

وأرى أنّ الذي حَصَلَ هو استقالةُ الشعراء من كتابة المعنى، وبالتالي من الشعرية، وليس استقالة المعنى. و«الجمالية» المزعومة قد تكون ذريعة، لكنها بالتأكيد ليست دافعًا حقيقيًا. وللاقتراب من المعضلة أُشير إلى أنّ الخروج على المعنى ليس من تداعيات «قصيدة النثر» مثلاً، بل عرفتْه قصائدُ عصر الانحطاط : فهذا اللعب بالألفاظ، واتّكاءُ النص على «فانتازيا» في تركيب الجمل اللغوية، وسَوْقُ الصور المجانية... هي كلُّها من الأمور التي نجدها في الأشكال الإيقاعية للقصيدة العربية المعاصرة كافةً: الشكل العمودي، والشكل الذي يعتمد التفعيلةَ، والشكل «النثري» أيْ غير الموزون وغير المقفّى. وبغياب المعنى غابت وحدةُ الموضوع، وسادت نصوصٌ تتكوّن من هذيانات إيقاعية ولفظية أو شظايا من فانتازيا الكلام النثري. وأعتقد أنّ وراء هذه الكتابة، غيرِ الشعريّة أصلاً، بعضَ المتطفّلين على الكتابة الأدبية، أو بعضَ الشعراء الذين امتلكوا مهاراتٍ تقنيةً لكنّهم بلا تجربة ثقافية معرفية وبلا تجربة إنسانية عميقة!

إنّ على الشاعر كي يتجدّدَ ويُخصبَ موهبتَه أن يقرأَ ويغامرَ في الحياة قبل أن يغامر في اللغة. والشاعر الذي لا تَسْكنه أسئلةُ وجوده كإنسانٍ فردٍ، وأسئلةُ الوجود بأسره، ليس أكثر من تقنيٍّ لغةٍ لا يَشْعر بإنسانيّته، فكيف يكون شاعرًا؟!

أعتقد أنّ ما وصفتَه بـ «ثقافة اللّعب» هي قناعٌ يُثير الشفقةَ على البعض الذي يحاول أن يُخْفي به تمحُّله المعرفيَّ والوجداني. وهذا البعض لا يَهْجس بمسؤوليةٍ فنيةٍ أو إنسانية. فالشاعر عنده لقبٌ اجتماعي، و«الشعرُ» مصدرُ ارتزاقٍ إضافي أو مطيّةٌ إلى الحصول على بعض مغريات المجتمع الاستهلاكي والتكيّفِ مع «قيمِهِ» الاستعراضية الخاوية!

■
بغياب المعنى، سادت نصوصٌ تتكوّن من هذيانات إيقاعية ولفظية أو شظايا من فانتازيا الكلام النثري
■

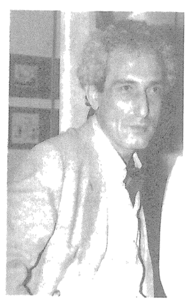
ما دمنا نتحدّث عن المسؤوليّة فلْنلتفتْ إلى مجموعتك: رأس تَداوَلَتْه القُبّعات. هل يعني هذا العنوانُ، ضمن ما يعنيه، أنّ الكاتب العربي اصبح لا يستقرّ على لون ولا على اتجاه، حتى تحوّل إلى شيءٍ أشبهَ بغانيةٍ أو جاريةٍ تُعْرَض في سوق النخاسة، فيكسوها شاريها بما يشتهي؟

هذه المجموعة أثيرة عندي. فقد كَتبتُ نصوصَها في واحدة من أصعب مراحل حياتي وأكثرها توتّرًا وتجرّعًا لكؤوس الحنظل العربي الرسمي والثوري. وهي أيضًا تَصْدر عن تجربة شخصية إنسانية متميّزة، فجاءت مختلفة عن النصوص التي سَبَقَتْها والنصوص التي تَلَتْها. وعنوان المجموعة مفتوح على قراءات مختلفة، وبينها قراءتُكَ التي أوحتْ بسؤالك القاسي. ومحاولةٌ منّي في إنصاف الكاتب العربي المُعاصر، أشير إلى أنّه لم يتوفّر له شرْطُ الإبداع الأساسيُّ، أي الحريةُ، لا في مناخات السلطة الرسمية ولا في مناخات المعارضة. والحال أنّ السلطة الرسمية تَحْجب عنه حقَّ النقد، وتقيِّد حريّته في الكتابة أو في الإجهار بما يَكْتب ونَشْرِه على الملإ؛ كما أنّ المعارضة الحزبية تريد أن تُمْلي عليه كيف يَنتقد السلطةَ الرسميةَ ومتى وأين، وتحرِّم عليه أن ينتقدَ ويناقشَ سلوكَ هذه المعارضة وأفكارها. ومن ثم يجد الكاتب المعاصرُ نفسَه مهدَّدًا بين إغلاق زنازين السلطة الرسمية عليه، وتخوينِ المعارضة له! وهذا بلا ريب يجعله كائنًا مشوَّشًا، ويصبح مع الوقت عرضةً للوقوع في فخّ النظام العربي الرسمي، الذي دَجّنه بربطه بدءًا بصحفٍ ومجلاتِ البِترودولار القومية ولاحقًا بإعلام الظاهرة الخليجية. ومع انهيار الاتحاد السوفياتي رأينا كيف انقلَبَ كتّابٌ ماركسيون إلى منافحين عن السياسة الإمبريالية الأميركية في ذروة توحُّشها، مُبرِّرين هذا الانقلابَ بما يزعمونه من انهيار الإيديولوجيا، وكأنّ السياسة الأمريكية التي تُشْعل الحروبَ وتَسْفك الدماءَ وتُخرِّب الأوطانَ وتدمِّر البلدانَ لا تَصْدر عن إيديولوجيا يمينيةٍ أكثرَ توحّشًا وأذًى للإنسانية من إيديولوجيا هتلر وموسوليني!

أردْتُ القول إنّ غيابَ الحرية، والترهيبَ بالسجون، والتخوينَ، والترغيبَ من خلال ربطِ ضمائر المثقفين بمغريات المؤسسات البِترودولارية وجوائزها... كلّ ذلك جعل الكاتبَ العربيَّ أكثرَ حربائيةً. وحتى تلك المؤسسة الخليجية التي عُرِفتْ بمنح جوائزها لكتّاب مبدعين يساريين او مستقلّين، كحنّا مينه وسعد الله ونّوس ومحمود درويش وأدونيس وعبد الرحمن منيف، أعْلنت سحْبَ الجائزة التي كانت أَسندتْها إلى سعدي يوسف لا لأنّه طلب من توني بلير أن يأتي بجيشه ويحتلَّ العراقَ «ليخلّصَه من صدّام حسين» على حدّ تعبير «قصيدته» الشهيرة قبل العدوان الانجلو ـ اميركي على العراق في مارس/آذار ٢٠٠٣، بل لأنّ سعدي انتقد زعيمَ الدولة التي يَمْنح احدُ امرائها هذه الجائزةَ. فأيّ استقلالية لهذه الجوائز؟!

للأسف نحن نفتقر إلى المثقّف العربي العضوي. ولأنّنا لم نَشْهد حركةَ تنويرٍ أو نهضة عربية معاصرة، فإنّ المثقف يَشْعر أنّ على عاتقه مسؤوليةَ خلق هامشٍ للحرية، يُمْكن أن يتّسع ليشملَ المجتمعَ العربي بأسره على الصُّعُد كافةً. نحن نفتقد المثقّفَ المؤمنَ بالأفكار التي يَحْملها ويروّج لها، بدليل أنّ هذا المثقّف سرعان ما يتخلّى عن أفكاره ويَخُونها عند أول امتحان! حتى أولئك الذين دفعوا ثمنَ أفكارهم إتلافَ سنواتٍ من عمرهم في السجون الرسمية سارعوا إلى استثمار هذا «الثمن» باللجوء إلى الأجنبي والاستقواءِ به على مصالح أوطانهم وشعوبهم انتقامًا من الأنظمة العربية التي زَجَّتهم سابقًا في سجونها، أو بتوظيف هذا «الرصيد» للظهور على القنوات الفضائية المشبوهة في سياق التحريض الصهيو ـ أميركي على الأقطار العربية المُستهدَفة من أجل تحقيق المشروع الشرق الأوسطي. وحدهم أولئك الذين تمّ اغتيالُهم، كغسّان كنفاني وناجي العلي ومهدي عامل، قضوا ثابتين على مبادئهم اليسارية!

في زمنِ الجمرةِ الخبيثة والقنابل العنقودية والألغام الذكيّة وأسلحة الدمار الشامل، يكتب الشاعرُ العربي نصوصًا تَقْطر عشقًا وشوقًا، ويَحْلم آخرُ بالكونيّة وباليوم الذي يُكتب اسمُه في الموسوعة العالمية. باختصار، هل خان الشاعرُ الطريقَ وتآمر على أمّته؟


وحدهم أولئك الذين تمّ اغتيالهم، كغسان كنفاني وناجي العلي ومهدي عامل، قضوا ثابتين على مبادئهم اليسارية!

في زمن الموت الذي أَشرتَ إليه يُفترض بالشاعر الحقيقي أن يكون أشدَّ ضراوةً جماليةً في مقاومةِ قُبح أسباب الموت وأشكاله. فأنْ تَقْطر النصوصُ عشقًا وشوقًا إلى الحياة وكائناتها المدهشة الجميلة، وأن يحتفي الشاعرُ بتجلّيات الحياة في لحظةٍ تاريخيةٍ من الكوارث السياسية والعسكرية والطبيعية، وأن تَنْبض نصوصُه حبًّا وحنانًا وأملاً يتفتّق عنه يأسُه وحزنُه النبيلان، فإنّه يكون عندئذ وفيًّا لطريق الشعر الأصيل ولا يتآمر إلاّ على الحقد والبغضاء وتقيُّحات الروح ليَفْتح كوّةً في الجدار الذي يَفْصل الأمةَ عن تقدمها نحو المستقبل.

لقد قَدَّم لنا الشعرُ العالمي أكثرَ من نموذج، أحبُّها إليّ مفخرةُ تشيلي بابلو نيرودا الذي مَجَّد نشيدُه الشاملُ عناصرَ الحياة، ودان مظاهرَ الموت وأسبابَه، وكَتَبَ بلغة شيِّقة أجملَ قصائد الحبّ وأعذبَ نصوص السيرة الذاتية. ولقد تَشرّفتْ جائزةُ نوبل بأن مَنَحت نفسَها لنيرودا لتتزيّن به، بينما يتذلّل بعضُ شعرائنا الآن طمعًا بأن تُدرَج أسماؤهم في سجلاّت نوبل، ومنهم مَنْ لاذ بالصمت إزاء معاناة شعبه من الاحتلال. هذا البعض من الشعراء يُحزنني حقًّا. ومثلما تعلّمْتُ منه وهو يعلو بالقصيدة العربية وتعلو به، أتعلّم منه وهو، يَسْقط بها وتَسْقط به إلى رداءةٍ لا يَحْجبها تراكمُ التقنيات الباهتة!

في ديوانك، في مهبّ الرغبات، تنعطف الكتابةُ عندك نحو الإيروسي وكتابةِ العشق الصافي، بعيدًا عن الإيديولوجيا التي كانت تَرْسم ملامحَ نصّك الشعري. وقد انفتح ديوانك بقصيدةٍ حملتْ عنوان «وداعًا.» فهل يعني هذا أنك ودّعتَ محرِّكَ نصِّكَ الشعري القديم وأعلنتَ إفلاسَه؟

قصائد **في مهبّ الرغبات** تعبِّر عن تجربة حبّ عنيفة استغرقتْ سنواتٍ من عمري في التسعينيات، لم أنقطع خلالها إلى الكتابة الإيروسية والعشق الصافي. فإلى جانب هذه القصائد، بموازاتها أو تداخلتْ معها، نصوصٌ لن نكون دقيقين إذا قُلنا إنّ الإيديولوجيا كانت مُحرِّكَها، لأنّ الصحيح هو أنّها كانت تُعنى بالشأن العامّ، تستوحيه وتكتبه شعريًا، تعيد صياغتَه من زاويةِ رؤيةٍ أكثرَ إدهاشًا وإحساسًا إنسانيًا وإمساكًا بنبض الحدث وحدسًا بالآفاق التي تتّجه إليها حركةُ الحدث. لقد كان العدوانُ على العراق والحصارُ الوحشي الذي تلاه وتداعياتُه في فلسطين هي عناوينُ الشأن العام، لكنّ المهمّ عندي كشاعر أنّني كنتُ أستوحيه وأكتبه شعريًا بعد تحوّله عندي إلى شأن خاصّ أيضًا، مثلُه مثلُ تجربة الحبّ الحارة التي ابتدأ كتابها بقصيدة «وداعًا،» التي ربما كنتُ بها أودِّع هذه التجربةَ، لتبدأ حياة أخرى معه لحظةَ استقرّتْ بين غلافيْ كِتاب.

إنّ الشأن العامّ سيبقى بعد تحوّله إلى شأن خاصّ محرِّكًا مهمًا لنصّي الشعري، ولكلّ نصّ شعريّ يعبِّر عن الوضع البشري في لحظةٍ تاريخيةٍ يحوّلها الشعرُ إلى لحظة أبدية بتلمّس الرموز. فالشاعر يحوِّل الإنسانيّ في الشأن العامّ إلى عمل فنيّ خالد، تمامًا كما يُسْتَخلص الذهبُ الخالصُ من التبر ويُصاغ في أشكال فنية جميلة، بغضّ النظر عن وظائفها الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها. وإنّ الإيديولوجيا الوحيدة التي تبقى مرجعيةً لكلّ عمل فني حقيقي، في كل زمان ومكان، هي إيديولوجيا

المقاومة: مقاومةِ الشرّ والقبح، مقاومةِ الظلم وسلبِ حقوق الشعوب واحتلالِ أوطانهم واستباحةِ كرامتهم وهدر دمهم وقيمهم، وأيضًا مقاومة الرداءة والتمحّل الوجداني والمعرفي والأخلاقي. هذه الإيديولوجيا لن تُفلس، رغم أنها قد تتعرّض للتزوير أحيانًا كما يحصل لها اليومَ على أيدي وسائل الاتصال العابرة للقارات التي تسيطر عليها الصهيونيةُ العالميةُ وتديرها الليبراليةُ المتوحّشة.

أنتَ من الشعراء المتّهمين بالبكائيّة. والحقّ أنّ الشعر العربي وُلِدَ في بركة من الدمع، وفي حفلةِ بكاءٍ كان امرؤُ القيس والخنساءُ يتناوبان فيها على إدارة أوركسترا النواح! حسب رأيك، لماذا صورةُ المظلوم تمثِّل القَدَرَ الذي يحاصر الشاعر ـ فهو المتروك والمحروم من الحبيبة ومن القبيلة، وهو المُبْعَدُ من النّجع ومن الوطن؟ ألا ترى معي أنّ الشاعر العربي كان هو المتسبِّب في مصيره هذا عندما اختار أن يكون تابعًا أو مدّاحًا للحبيبة أو للقبيلة أو للدين أو للسلطان أو للثورة؟

لا! امرؤ القيس كان يبكي مُلْكًا، والخنساءُ كانت تبكي أخًا، ولكنْ يجب ألاّ يفُوتَكَ أنّ الأحزاب «الليبرالية» و«الدينية» و«اليسارية الديمقراطية» هي التي تستقوي الآن بالروم المعاصرين على أوطانها وتُعْرِض ظهورَها على الأجنبي ليمتطيَها كأحصنةِ طروادة جديدةٍ لاحتلال العواصم العربية بغدادًا بعد بغداد! صحيح أنّ سعدي يوسف فَعَلَها مكرِّرًا جدَّه امرأ القيس وهو ينادي توني بلير كي يخلِّصَه من صدّام حسين، لكنْ يجب ألاّ نُلْقي باللوم على الشعراء وحدهم، بل علينا أن نتذكّر النقّاد وخصوصًا الذين يُفترض أن لا يَنْهَوْا عن شيءٍ ويأتوا مِثْلَه! ولنأخذْ هنا مثلاً محمد لطفي اليوسفي، الذي كنتُ أحسبه الأكثرَ جديّةً. فكيف تتفهّم أن يُقارنَ أحدَ شعراء البلاطات العربية بپول إيلوار شاعرِ الحرية؟! كيف لا نلُوم ناقدًا أكاديميًا وهو يَمْدح شاعرَ بلاط، بينما نَسْتسهل لومَ الشعراء على امتداح الحبيبة والثورة؟

حالُ الأمة والوطن، وحالُ مَنْ يَدَّعون أنّهم نخبُنا السياسيةُ والثقافية، هل يَليقُ بها غيرُ الهجاء المرّ والبكاء الأمرّ؟

ومع ذلك فأنت أوّلُ مَنْ يَزْعم أنّني مُتَّهم بالبكائية! فالحزن الذي يَجعل شعري بين الهجوم والانكفاءِ المتوعّد نحو العائلة الصغرى، كما يقول محمد علي اليوسفي، ليس ضربًا من البكائية. وأن أبدو شاعرًا مقاتلاً يتحلّى بالنبل في أقصى حالات الانتقام ويَسْتخدمُ لغةً خاصةً تغازل أو تقاتل بالمفردات العذبة، كما قال أحمد مطر عن شعري أيضًا؛ وأن يأتي حزني وانكفائي وقتالي النبيلُ بمفردات عذبة «ضمن إيقاعية على جانب كبير من الهدوء والرقة،» كما قال الراحل الكبير بلند الحيدري... إنّ ذلك كلّه لا يستقيم مع هذا الاتهام غيرِ الموفّق بالبكائية.

أمّا إنْ كنتُ أمتدحُ في شعري فممدوحي هو التجَلّياتُ الفاتنةُ لحياة الإنسان كقيمة عليا في كل زمان ومكان ـ هذه القيمة التي يدوسها الغربُ اليومَ تحت شعارات فرض الحرية والديمقراطية بالآليات المجنزرة والقاذفات المجنّحة.

■ الأحزاب «الليبرالية» و«الدينية» و«اليسارية الديموقراطية» تستقوي الآن بالروم المعاصرين على أوطانها ■

يعيش هادي دانيال من الكتابة، وهي معشوقته الأولى. أليس صعبًا أن تَعْشق الشيءَ وتبيعَه؟ ألا ترى معي أنّ إجبارَ الكاتب على العيش من قلمه يَحْمل نيّةً سيّئةً للإجهاز على مَلَكَة الكتابة عنده، فتتكسّر أقلامُه على أبواب أفران الخبز اليابس؟ وهل أثّر نشاطُك الصحفي في نتاجك الشعري؟

أنا لا أعيش من الكتابة الإبداعية، بل من «التحبير» على هامش الكتابة، من مهارات تقنية نكتسبها بسرعة من خلال مغامرة الكتابة الإبداعية. لكنْ كي نعيش، فإنّنا لا نحتاج إلاّ إلى توظيف هذه التقنيات في كتابةِ خبرٍ أو تقريرٍ إخباري لوكالة أنباء، كما هو حال اليوم.

لقد كنتُ محظوظًا، أو سيّئَ الحظّ، لأنّني في سنّ مبكّرة (الثامنة عشرة تقريبًا) اتخذتُ الكتابةَ مهنةً ووسيلةَ نضالٍ في آن. بدأتُ لأوّل مرة أتقاضى مرتّبًا شهريًا عن عملي محرّرًا ثقافيًا في مجلةِ **الصمود**، لسانِ حالِ «جبهة الرفض الفلسطينية.» وكان معلّمي وصديقي في هذه الفترة الأستاذ مؤيّد الراوي. حينها كان عبّاس بيضون، مثلاً، مناضلاً في حزب العمل الاشتراكي العربي، وهو الجناح اللبناني للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ويكْتب من الجنوب لمجلة الحزب: **الثوري**. في تلك الفترة كُنّا يوميًا نَسْهر حتى الفجر متنقّلين بين الفدائيين الذين يقومون بواجبات الحراسة الليلية: ندخّن، ونَشْرب الشايَ، ونثرثر ساخرين من بيروقراطية قيادات الثورة، ونُشْعل فضاءاتِ شوارعِ منطقة الفاكهاني بقهقهاتنا الصافية. وفي حين كان مؤيّد تروتسكيًا نشيطًا، هوايتُه المفضّلةُ شقُّ

الفصائل اليسارية، كنتُ ما أزال أقرأ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية بإشراف صديقي الكردي الأردني سيف الدين بدرخان الذي كان مُلاكمًا رقيقًا يحميني بقبضته القوية حين يحاول «قبضايات» الجبهة مهاجمتي ونعتي بالبرجوازي الصغير لكوني شاعرًا صغيرَ السنّ وصرتُ أتهرّب لاحقًا من واجب الحراسة الليلية. كنتُ أنْوسُ ـ إيديولوجيًا ـ بين لينينية سيف الدين وتروتسكيّةٍ مؤيّدًا!

المهم أنّني في **الهدف** وجدتُ حلاً للمعادلة الصّعبة بين الصحافة والكتابة الإبداعية، تتمثّل في تجربة غسّان كنفاني الفريدة. فغسّان هو الذي أسّس هذه المجلة، وكان مسؤولَ الإعلام والناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إلى أن فجّر الإسرائيليون سيارتَه واستُشهد في الحازمية أوائلَ السبعينيات. وبعد خلاف مع الصديق بسّام أبو شريف، رئيس تحرير **الهدف**، تمّ تكليفي بإصدار مجلة **الشبيبة** التي كانت واحدةً من ثمار اندفاعي الحارّ لتمثّل تجربة كنفاني، فأصدرتُ ستّة أعداد شهرية قبل أن يُجهضَ حزبيّو الجبهة الشعبية هذه التجربةَ، التي دعمني لإنجاحها أصدقاءُ مثلُ الراحليْن المصريّيْن عبد الرحمن الخميسي وعدلي فخري، ومثل الكتّاب الفلسطينيين فيصل درّاج ويحيى يَخْلف وخيري منصور، والعراقييْن قاسم حَوَل ويوسف الناصر، والمناضلة وداد قمري.

إذًا، في مناخ صحفي إبداعي، قد يؤثّر النشاطُ الصحفي إيجابًا في النتاج الشعري. لكنْ لاحقًا، وخصوصًا الآن، يَدْفعني الاهتمامُ بالخبر الصحفي بعيدًا عن المناخ الإبداعي الخصب ويَشْغل وقتي بما أكْتشف أنه ضربٌ من العبث واللاجدوى. ويُمْكنني القولُ إنّ شاعرًا كمحمود درويش أفاده ما أتاحه له الرئيسُ الراحل عرفات تحديدًا من إمكانات مادية تجعله يتفرّغ لكتابة الشعر، ويُصدر مجلّة **الكرمل** ضمن هذا الهاجس الإبداعي. وقد مَكّنت الثورةُ الفلسطينيةُ شعراءَ ومبدعين أقلَّ قيمةً من التفرّغ عمليًا للكتابة ولو بإمكانات مالية أقلّ. لكنّني شخصيًا، وربما لأنّي لستُ فلسطينيًا، وتحت وطأة الإحساس بأنني أتقاضى راتبًا من الثورة، كنتُ حريصًا على «تحليل» [من الحلال ـ الآداب] ما أتقاضاهُ شهريًا بعملٍ صحفيّ أسبوعيّ مجانيّ لمجلة **فلسطين الثورة** من تونس، وبعد إغلاقها، بكتابة مقالات سياسية في صحف فلسطينية وعربية دفاعًا عن القضية الفلسطينية. لكنّ هذه المقالات، التي تريح ضميري وتُشْعرني بأنّني فاعلٌ نسبيًا في ساحة النضال دفاعًا عن وجود هذه الأمة المهدَّدة، تصفّي قصائدي من الهاجس السياسي أو تجعله مرجعيةً للنص الشعري قد تزيده جماليّةً وتمنحه مفاتيحَ تلقٍّ تُغْري القارئَ وتجذبه إليه.

إنّني بالتأكيد أعاني من قسوة اللجوء إلى «التّحبير» على هامش الكتابة الإبداعية، وهو هامشٌ يتّسع ليَجْرفَ معه لحظاتِ البهجة الحقيقية، لحظاتِ الكتابة الشعرية. ولكنْ ليس لمثلي غيرُ أن يُكابِدَ، خصوصًا وأنّني لا أنتظر العثورَ على كنزٍ أو إرثٍ أو هِبَةٍ عليا!

في **الهدف** وجدتُ حلاً للمعادلة الصعبة بين الصحافة والإبداع، تتمثّل في تجربة غسان كنفاني الفريدة

قُلتَ في أحد الحوارات إنّك ألقيتَ في بيروت بمختارات لينين وأنجلز من النافذة في الطابق الرابع حتى تَخْلع عنك زيَّ السياسي لتعود إلى الشعر شاعرًا. هل تراك اليوم قد نجحتَ، أمْ أنّ لينين وأنجلز ركبا المصعد الكهربائي في تلك الليلة ليعودا إلى أوراقك وأقلامك؟

عندما شعرتُ أنّ محاولات مكثّفة لجذبي إلى عملٍ حزبيّ في الجبهة الشعبية، أو في مجموعات ماركسيّة كانت تعجّ بها بيروتُ، صارت تَضْغط عليّ كثيرًا، وفي الوقت نفسه فاض كيلُ الشاعر في داخلي الذي اختنق خارج مناخ التمرّد والجموح والحرية، كان إعلانُ تحرّري أمام ذاتي أن أُلقيَ بمختارات لينين ومختارات ماركس وأنجلز من الطابق الرابع. وقد شعرتُ حينها كأنّني تخفّفتُ من حملٍ ثقيلٍ كان يَرْبض بين كتفيّ. لكنّي بدون شكّ أفدتُ كثيرًا من قراءتي تلك المختارات وغيرَها من الكتب الماركسيّة لأنّها منحتني، وإلى الأبد، منهجًا ديالكتيكيًا في التفكير والتحليل يجعلني لا أحار في فكّ ما يبدو للبعض مُغْلقًا. والإفادة لا تقتصر على ما أكتبُه من تحليلات سياسية، بل تَشْمل الكتابة الإبداعية أيضًا. إنّ الذي تخلّصتُ منه هو **التعصّبُ** للماركسيّة وكأنّها عقيدة، وغدت الماركسيةُ عندي الآن مرجعًا فكريًا أساسيًا إلى جانب مراجع وروافدَ تُغْني معارفي وتغذّي الروحَ والوجدانَ. كما أنّني أتطيّر من محاولة دفعي إلى أيّ عملٍ حزبيّ، محتفظًا عندي بمكانةٍ خاصةٍ لأصدقاء أعزّاء يَدْعون إلى العمل الحزبيّ وينغمسون للحظات فيه بحماسة ونشاط، لكنّهم في الواقع أفرادٌ أحرارٌ يحلّقون بعيدًا عن كل سربٍ إيديولوجيّ بأجنحةٍ من الاستقلالية الفكرية. ومثل هؤلاء المفكّرين أو الناشطين السياسيين أُحبُّهم بعُمْق، وقد لا ألتقي بهم لعقود طويلة لكنْ ما إنْ نجتمع صُدْفةً حتى نفاجأَ سعداءَ بأنّ أفكارنا ومواقفنا إزاء قضايا لم يسبقْ أن تناقشنا حولها متطابقةٌ تمامًا، لأنّني

وإياهم نَعْتمد المنهجَ المادي الديالكتيكي في التفكير، ولا ينضبط فكرُنا لتوجيهٍ ما خارجنا، ونفكّر بحريّة، ولكن لدينا ثوابتنا الوطنية والقومية التي هي أيضًا ثوابتُ إنسانيةٌ وكونيةٌ في جوهرها.

قُلتَ يومًا في إحدى الصحف: «التجربة أقنعتْني بأنّ المبادئ والأفكار أوهامٌ وسرابٌ، وإنّ الكتابة التي أردتُها نورًا ضد الظلام كانت ثغرةً لإلحاق الأذى بي... لا أحد يقرأنا إلاّ الرقيب.» هل مازلتَ على رأيك؟ وهل كنت تنتظر أن تُحْمَلَ على الأكتاف لكونك كاتبًا؟ تاريخ الكاتب والكتابة يقول إنّ مصيرَ مُرْتَكِبِ الحرفِ الحقِّ هو السجنُ أو المشنقةُ أو المقصلة.

قُلت ذلك الكلامَ في تونس التي قَدِمْتُ إليها مهزومًا أمام جيش شارون الذي يَطْحن الآن أرواحَنا، ونحن نحاول التكيُّفَ والتأقلمَ بكياسةٍ وتسامح ـ هما في حالتنا إذعانٌ وضربٌ من المازوشية مع هذا العصر الصهيوني. تحت وطأةِ الشعور بالهزيمة الجمعية، وبأنّني كفرد خُذِلْتُ وخُدِعْتُ، خصوصًا حين يَخُون الفكرةَ / الوَهمَ ذاك الذي أقنعني بها، يَصْدر عنّي ردُّ فعلٍ كالكلام الذي سُقْتَه في سؤالك. لكنْ ما إنْ يَلُوح أمامي سرابُ أملٍ حتى يلتهبَ جَمْرُ الأحلام التي في داخلي ويضيءَ المبادئَ التي أرفعُ رايتَها ثانيةً بحماسة الفتوّة. كم من مرّةٍ هجوتُ أمّتي ووصفتُها بـ «الأمّة» [العبدة]، لكنْ ما إنْ تئنُّ حتى أتلوّى ألمًا، وأضطرمَ غضبًا، وأستلَّ قلمي من جرحي المفتوح، وأنافحَ عن حقّها في الحياة والوجود.

لستُ نادمًا، ولا أشكو أن أشير هنا ـ كما أشار شعري ـ إلى أنّني دَفَعْتُ وأدفعُ ثمنَ كلّ حرفٍ أخطّه، ولا أنتظر أن أُحمَلَ على أكتافٍ ارتَضَتْ أن تَحْمل إلى أوطانها الغزاةَ والمحتلّين. وبالتأكيد لا أكتب كي أصلَ إلى السجن أو المقصلة، بل كي أكون أكثرَ حريّةً وبهجةً وامتلاءً بالحياة. لكنّ أن أكتشفَ أنّنا لا نُقرأ إلاّ صُدْفةً، وأنّنا نُقرأ كمواقف في لحظاتٍ تاريخيةٍ لا كمبدعين، أي يُقرأ سلوكُنا ولا يُقرأ نصُّنا الإبداعي، فهذا بالتأكيد يؤلمني...

■

يؤلمني أنْ أكتشف أنّنا لا نُقْرأ إلاّ صُدفةً، وكمواقفَ في لحظات تاريخية لا كمُبْدعين!

■

أمّا الذي يقرأُنا، أنا وصديقنا سليم دولة مثلاً، ويؤوِّلُ كلَّ حرفٍ نخطّه في لحظة الإبداع الحرّة، فهو الرقيبُ الذي يسعى إلى الإطباق على رقابنا! غير أنّ ما نرنو إليه هو أن نُقرأ من عامّة الناس، وأن نَلْمحَ في عيونهم ضوءَ حروفنا تُشْعِلُ العقولَ والضمائر.

لماذا سَكَنَت الساحةُ الشعريةُ العربية ولم تعُدْ بذلك التاجّج الذي كانت عليه في السبعينيات مثلاً؟ هل أفلستْ تلك المشاريعُ، أم نحن نعاني اليوم أزمةَ شعراء أصلاً؟

إنّ المجتمع الاستهلاكي المعمَّم يُعمِّم قيمَه ورؤيتَه الواحدةَ إلى الإبداع. وسائلُ الاتصال في طفرة غير مسبوقة، وتُملأُ مساحاتُها بالرداءة الثقافية، بعيدًا عن الكِتاب والقصيدة. كما أَخَذَتْ متطلباتُ العيش شعراءَ كثيرين، حتى استنفدوا رصيدهم وصاروا يكرِّرون أنفسَهم حتى الاهتراء. وفي خضمّ هذا الارتباك تنطَّع إلى «الكتابة» التي تُزْعَمُ أنّها شعرٌ، صحفيون من الدرجة الثالثة، راحوا يقدِّمون أنفسَهم «شعراءَ جماهيريين.» ولئن تبادَلَ الشعراءُ المشْرِفون على المنابر الإعلامية الثقافية الخدماتِ في ما بينهم، فإنّ صحفيين استسهلوا الأمرَ ووَظّفوا وجودَهم على رأسِ هذا المنبرِ الثقافي أو ذاك لتسويق أنفسهم شعراءَ مزعومين أيضًا.

كلُّ مظاهر الانحطاط هذه تجعل الشعرَ الحقيقي يتراجع إلى عزلته ويترفّع عن الزجّ بنفسه في هذا الزّحام المتطفّل على الإبداع عمومًا وعلى الشعر خصوصًا. غير أنّي أعتقد أنّ المواهب الشعرية كامنةٌ وتنتظر أن يَبْلغ مدُّ الرّداءة أوجَهُ كي ترتفعَ هذه الفقاعاتُ جملةً وتفصيلاً. فالمخطوطات الشعرية المهمّةُ تكتظُّ بها الأدراجُ وربّما الوجداناتُ، وقد تُشعلُ شراراتُ الشعر وجمارُه الحرائقَ في هذا الخراب لتُضيءَ الطريقَ الصحيح نحو المستقبل.

تونس

في العدد القادم:

- آخر حوار مع المفكّر الباكستاني التقدُّمي طارق علي (أجراه: دايفيد بَرْسميان، ترجمة: سماح إدريس).

كفاية
وآفاق التغيير في مصر

ملف من إعداد: أحمد الخميسي
(مراسل الآداب في القاهرة)

المشاركون
(ألفبائيًا)

- أحمد بهاء الدين شعبان
- أحمد الخميسي
- أحمد عبد الرحمن

أصبح مطلبُ التغيير مطلبًا ملحّاً في العالم العربي. وتقوم الأنظمة العربية الحاكمة، في الكويت والسعودية والأردن وغيرها، بإجراء تغييرات على شكل الحكم السياسي تحت شعار «الديموقراطية والإصلاح السياسي.» وقد شَهدتْ مصرُ مؤخَّرًا حركةً واسعةً في هذا الاتجاه، بدأتْ حين ألَحَّتْ قوى المعارضة على تعديل المادة ٧٦ من الدستور المصري بحيث يُمْكن انتخابُ رئيس الجمهورية من بين أكثر من مرشَّح. ثم تمّ الإعلانُ عن استفتاء لتعديل تلك المادة بشكلٍ أثار غضبَ القوى المعارضة التي أخذتْ تعلن عن وجودها بقوةٍ في الشارع المصري.

فما هي حقيقة تلك القوى، وفي مقدِّمتها حركةُ «كفاية»؟

ثم ما هو مفهومُ التغيير لدى قوى المعارضة؟

وأخيرًا، أيةُ ملاحظاتٍ على طبيعة البرنامج الموجَّه لتلك القوى؟

وما مدى ارتباط حركة التغيير بالضغوط الخارجية؟

هذه الأسئلة، وأسئلة أخرى، يَطْرحها هذا الملفُّ ويحاول الإجابةَ عنها واستكشافَ أفق حركة التغيير، التي قد تصبح نموذجًا لتغييرات مماثلة في بلدان عربية أخرى.

الآداب

المعارضة المصرية ومفهوم التغيير

أحمد الخميسي

التغيير في مصر ضرورة

الحديث عن «التغيير» يَشْغل مصرَ كلَّها: أحزابًا معارضةً، وحركاتٍ سياسيةً، ونخبًا مثقفةً، وقضاةً، ومهندسين، وشرائحَ عمّاليةً، وأطبّاءَ، وكتّابًا. وإلى جانب ذلك، وقَبْلَه، فإنّ الواقع ذاتَه يَنْطق بأنّ استمرار الأوضاع الراهنة أمرٌ صعبٌ: فقد بلغ عددُ الفقراء في مصر ٣٤ مليون نسمة (**تقرير التنمية البشرية العامَ الماضي**)، وبلغ عددُ العاطلين عن العمل ٦ ملايين، ويعيش ١٢ مليون مواطن في أكواخ وداخل المقابر، ويتّسع نطاقُ الأمية ليشمل ٢٢ مليونًا، ويتضاعف التفاوتُ الطبقيُّ فيَحْصل أغنى ٢٠ ٪ من السكان على ٤٣،٦٪ من الدخل القومي، مع ارتفاعٍ حادٍّ مستمرٍّ لأسعار المواد الغذائية الأساسية بعد أن كَفَّت الدولةُ يدَها عن دعمها ودعم الخدمات العامة في التعليم والصحّة والثقافة وغيرِ ذلك... هذا ناهيك عن حرمان كتلٍ بشرية ضخمة من التعليم والماءِ النظيف والصَّرْف الصحي. وفي ظلّ هذا الانهيار العامّ قامت الدولةُ بإنشاء واحد وعشرين سجنًا جديدًا خلال العقد الأخير، كلَّفَ بناؤها ملياريْ جنيه مصري! أضفْ إلى ذلك الشعورَ المريرَ بالمهانة السياسية التي يعيشها الشعبُ المصريُّ في مواجهة العربدة الأميركية في المنطقة، وفي مواجهة إسرائيل التي تهدِّد مصرَ وقتما تشاء، دون أن يحرِّكَ النظامُ ساكنًا، ودون أن يجرؤ مسؤول على أن يَنْبس بحرف واحد.

ويتخلَّل هذه اللوحةَ فشلُ النظام المصري الذريعُ في التقدم بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية خطوةً إلى الأمام؛ ويكفي أن نَعْلم أنّ الدَّيْن الخارجي والداخلي على مصر وصل إلى ثمانمائة مليار جنيه، وأصبح صعبًا على النظام الاستمرارُ في استخدام الأثر المعنوي لإنجازيْن مضى عليهما ربعُ قرن هما: حرب أكتوبر، وما سمِّي بـ «الديموقراطية.»

وخلاصةُ الأمر أنّ تضخُّمَ الفقر، وعمقَ الشعور بالمرارة الوطنية، والإحساسَ بالتدهور العامّ والهوان، وَصَلَتْ بصوتها إلى سمع المؤسسات السياسية الحاكمة والنخب المعارضة، وتعالت الدعواتُ إلى التغيير. لكنْ أيُّ «تغيير»؟

يَصْعب التحدثُ عن تصور واضح ومتبلورٍ للتغيير في الوعي الجماهيري العامّ. ولكنْ من المؤكد أنّ مشروع التغيير لدى الغالبية العظمى مرتبطٌ باستياءٍ مبهمٍ جرّاء الوضع الاقتصادي والقومي، ومصحوبٌ بتصورات دينية عن العدل والأخلاق والتحرر. فذلك التغيير يعني تحسينَ مستوى المعيشة، وتوفُّرَ السكن والتعليم وغير ذلك، ويرتبط بالقدرة على مواجهة أميركا وإسرائيل. إلاّ أنّ تلك الحالة لا ترتقي إلى مشروع سياسي بكلّ معنى الكلمة، بل هي **مادةٌ** لمشروعٍ ما، قلقٍ، وغيرِ محدَّدٍ، وقابلٍ للتطوير حسب الظروف في اتجاهاتٍ عدة.

لكنْ ما هو مفهومُ ذلك «التغيير» لدى الأحزاب والنخب المعارضة التي يُفترض بها أن تَصُوغَ مشروعًا سياسيًا كفئًا للتعامل مع واقع محدَّد؛ مشروعًا قادرًا على حشد الجماهير خلفه وتطويرِ نضالها بشعاراتٍ معينةٍ، وتحديدِ أهدافها القريبة والبعيدة؟

أحزاب مصر الرئيسة والتغيير

بدايةً علينا أن نقول إنّ عدد الأحزاب غير الحكومية المرخَّص لها في مصر وَصَلَ إلى ١٩ حزبًا سياسيًا ـ بعد الموافقة الأخيرة على تأسيس «حزب الغد» ـ من بينها عشرةُ أحزاب تعيش حالةَ مواتٍ كامل. وأما عددُ الأحزاب التي رَفَضَتْ لجنةُ الأحزاب طلباتِ تأسيسها فقد بَلَغَ ما يَقْرب من سبعين حزبًا! وجدير بالذكر هنا أنّ تلك الأحزاب ظهرتْ بعد فترة طويلة من قرار حلّ الأحزاب في ١٦ يناير ١٩٥٣، وتحديدًا حين أراد أنور السادات في أغسطس ١٩٧٤ تجميلَ وجه النظام بانفتاح سياسي، فأصْدر ورقةَ تطوير الاتحاد الاشتراكي التي رَفَضَ فيها التعدديةَ الحزبيةَ لكنّه أقرّ بمبدإ تعدُّد الاتجاهات تحت اسم «المنابر.» وفي مارس ١٩٧٦ تمّت الموافقةُ على تأسيس ثلاثة منابر، تحوَّلتْ في نوفمبر ١٩٧٦ بقرار من السلطة إلى أحزاب سياسية. ونتيجةً لتلك النشأة، والقيودِ التي أحاطت بها السلطةُ حركةَ الأحزاب، وضعفِ إرادة تلك الأحزاب، فقد تمّ تفريغُها من مضمونها حتى تحوَّلَ معظمُها إلى مجرد صحف، وانتشرتْ نكتةٌ بأنّ هناك في مصر صحفًا تُصْدر أحزابًا! وظلت حركةُ تلك



صنع الله إبراهيم يحمل شعارَ «كفاية» في إحدى المظاهرات مؤخرًا

الأحزاب ومازالت ـ باستثناءِ لحظاتٍ نادرة ـ بعيدةً عن حركة الشارع المصري تمامًا، وأبعدَ ما تكون بنظامها وممارساتها الداخلية عن الديموقراطية والإصلاح اللذيْن تطالب بهما. كما أنّ حركتَها الفعلية وممالأتَها للنظام وصفقاتِها البرلمانيةَ معه ظلت منقطعةَ الصلةِ ببرامجها المعلنة. وقد اختزَلَت الكثيرُ من هذه الأحزاب وجودَها في شخصِ قادتها، الذين قضى بعضُهم ربعَ قرنٍ في القيادة دون تغيير!

جرت العادةُ في مصر على الحديث عن ثلاثة أحزاب رئيسة هي «الوفد» و«التجمع» و«الناصري»، إلى جانب قوة أساسية لم تَنتزعْ حقَّها بعدُ في تأسيس حزب هي «الإخوان المسلمون.» ويبدو مفهومُ التغيير واضحًا عند حزب التجمّع في «مبادرة الإصلاح السياسي» التي طَرَحَها في ١٧ مايو ٢٠٠٤. فقد جاء فيها «أنّ المدخل الصحيح والوحيد للتغيير الشامل هو تحقيق الديموقراطية وتوفير الحريات العامة وضمان حقوق الإنسان.» أما حزب الوفد فقد طالب هو الآخر في برنامجه للإصلاح المعلن في ٢٦ أغسطس ٢٠٠٤ بالإجراءات الديمقراطية باعتبارها الحلقةَ الأساسَ في تطوير المجتمع المصري. بينما دعا الحزبُ الناصري إلى تحويل مصر إلى جمهورية برلمانية. ثم بلورت الأحزابُ الثلاثةُ رؤيتَها المشتركة في ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ في وثيقة بعنوان «التوافق الوطني للإصلاح السياسي،» جاء فيها أنّ الإصلاح السياسي هو الطريقُ الوحيدُ لإنقاذ البلاد، وطالبتْ بأن يكون انتخابُ الرئيس المصري من بين أكثر من مرشَّح، وبإقامة نظام جمهوري برلماني يَكْفل إعادةَ تقسيم الاختصاص داخل السلطة التنفيذية. كما طالبتْ هذه الأحزابُ بإلغاء المادة ٧٤ من الدستور التي «تعطي لرئيس الجمهورية سلطاتٍ استثنائيةً،» وبإنهاء حالة الطوارئ، وإطلاق حرية تشكيل الأحزاب السياسية. وباختصار، وضعت الأحزابُ الثلاثةُ الكبرى ـ مع عدد من أحزاب صغيرة ـ رؤيتَها للتغيير في إطار الإصلاح السياسي المحدود للنظام، وهو إصلاحٌ قائمٌ في إطار التوجُّه الليبرالي الذي يقوم على خمسة مؤشِّرات هي: الفردية، والحرية، والتعددية، والعقلانية، والرأسمالية. لكنّ هذه الأحزاب حَجَبتْ في صراعها مع النظام القضيةَ الوطنيةَ، والتبعيةَ، وجوهرَ النظام الاقتصادي الاستغلالي. وسنرى لاحقًا أنّ هذه الرؤية هي التي تَحْكم حركةَ وتوجُّهَ باقي الأحزاب والحركات، بما فيها حركةُ «كفاية.»

ولما كانت برامجُ الأحزاب الأساسية والإخوان معروفةً تقريبًا، فإنّنا سنركّز على موقف الحركات الجديدة من التغيير، وفي مقدمة تلك الأحزاب: «حزبُ الكرامة» و«حزبُ الوسط» و«حزبُ الغد.»

الحركات الجديدة والتغيير

إذا نظرنا إلى وثائق «حزب الكرامة»[1] الذي يمثِّل تيارًا ناصريًا وطنيًا، فسنجد أنّه يدعو إلى أهداف وطنية عامة كالاستقلال الشامل، ونبذِ معاهدة السلام، واستعادةِ السيطرة المصرية على سيناء بالكامل، والوحدةِ العربية، والكفايةِ والعدلِ في المجال الاقتصادي، والاستعانةِ بالتكنولوجيا والعلوم، وتجديدِ الذات الحضارية، وسياسةٍ دولية متوازنة، والديموقراطية. لكنّ تلك الأهداف لا تكتسبُ سماتٍ محددةً وتظلّ أقربَ إلى الأمنيات النبيلة. ويَطْرح البرنامجُ صورةَ مجتمعٍ قادم، لكنّه لا يَطْرح آليةً للصراع مع المجتمع القائم، إلاّ عندما يدور الحديثُ عن تعديل الدستور وإلغاءِ حالة الطوارئ ونشرِ الحريات العامة. فالمطالب الأخيرة هي المطالب التي يمكن الاشتباكُ اليوم بشأنها مع النظام. لكنْ كيف؟

أما «حزب الوسط الجديد» فيعرِّف نفسَه في مقدِّمة وثائقه التي كتبها د. صلاح عبد الكريم[2] بأنه «حركةٌ سياسيةٌ تمثِّل فكرًا

١ ـ حزب الكرامة العربية، **البرنامج السياسي**، ٢٠٠٤.

٢ ـ **أوراق حزب الوسط المصري**، تقديم د. صلاح عبد الكريم، ١٩٩٨.

إسلاميًا حضاريًا معاصرًا» يَدْفع أصحابَها «إيمانٌ راسخٌ بتميّز الحضارة الإسلامية.» ومع اعتراف الحزب بالتعددية الدينية في مصر فإنّه يرى أنّ «المرجعية الإسلامية العامة في مصر محلُّ اتفاق المصريين جميعًا.» أما التغيير عند الحزب فيبدأ بتنشيط وضع نصّ المادة الثانية من الدستور موضعَ التطبيق، وهي المادة التي تنصّ على أنّ دين الدولة هو الإسلام وعلى أنّ مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع. ويدعو الحزبُ في مجال الأمن القومي إلى نزع أسلحة الدمار الشامل في المنطقة دون تحيّز لإسرائيل، وإلى رفض مشروع السلام الإسرائيلي الذي يرمي إلى تقطيع أوصال الأمة، وإلى إقامة اتحاد اقتصادي عربي إسلامي، وإلى عدم التفريط في مبدإ تحرير فلسطين والانتماء العربي للقدس، لكنّه لا يصل إلى حدّ رفض اتفاقيات السلام. ويَعْتبر الحزبُ أنّ التغيير الممكن في المجال الاقتصادي الداخلي يقوم على «ألاّ يكون المالُ دولةً بين الأغنياء فقط، وهذا يستدعي تشجيعَ دخول الأفراد إلى العمليات الإنتاجية وتملُّك أصولها،» ثم «قيام الأمة، أفرادًا وجماعاتٍ ومؤسساتٍ، بواجبها في تحقيق العدالة الاجتماعية.» ويؤكّد أيضًا «الدورَ التوزيعيَّ للدولة... لضمان حُسْن توزيع عوائد العملية الإنتاجية على الأسر المصرية.» ولا تختلف هذه الوثيقة كثيرًا عن وثيقته المنقّحة بعنوان «حزب الوسط الجديد.» ويتّسم هذا البرنامجُ الفضفاض ـ كعادة التيارات الإسلامية ـ بالغموض. كما أنّه لا يقوم بتمليك المواطن أيةَ أسلحةٍ للصراع مع الوضع القائم، ما عدا التأكيد على الفكرة الجذرية لدى التيارات الإسلامية المختلفة، وهي أنّ التغيير يبدأ بتغيير «اخلاق المجتمع» لا الأوضاع التي تؤسِّس لتلك الأخلاق. وأخيرًا فإنّ «التغيير» في ذلك البرنامج لا ينبني على أيّ اشتباكٍ محدّدٍ مع الواقع في أيّ مجال، أيْ أنّه لا يقدّم إجابةً على السؤال العويص: «ما العمل؟»

أما حزب الغد فحصل على ترخيص بمزاولة نشاطه من لجنة الأحزاب في ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤، لكنه خلال أقلّ من سنة أثار قدرًا من الضوضاء لا يتناسب مع حجمه أو برنامجه. فقد اعتقلت السلطاتُ رئيسَ الحزب أيمن نُور في يناير هذا العام بدعوى التزوير في أوراق التأسيس، ونَزَعتْ عنه حصانتَه البرلمانية، فأثار ذلك ضجّةً إلى حدّ أنّ وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليسا رايس أعربتْ في منتصف فبراير عن «القلق البالغ» للولايات المتحدة من ذلك الاعتقال! وعلى حدّ تصريحات نور فإنّ حزبه «ليس اشتراكيًا ولا إسلاميًا ولا ماركسيًا، لكنّه الوريث الشرعي للحركة الليبرالية في مصر.» ويأتي في مقدّمة برنامج الحزب أنّه «حركة ديموقراطية ليبرالية اجتماعية تَجْمع طليعةً من جيل الشباب المصري الساعي لمشاركة جادة للإصلاح السياسي والاجتماعي.» وإذا نحَّيْنا جانبًا ما تَحْفل به برامجُ معظم الأحزاب من الدعوة إلى محاربة الفساد وحلّ مشكلة البطالة وما شابَهَ، فإنّ برنامج هذا الحزب يرى التغيير في إصلاح سياسي يقوم على «إنهاء حكم الطوارئ المفروض منذ عام ١٩٨١، وتقييدِ صلاحيات الرئيس المصري الواسعة، وانتخابِ الرئيس من بين أكثر من مرشح، وانتزاعِ الحريات المختلفة.» وباختصار، فإنّ الحزب يضع نصبَ عَينيه إقامةَ «نظام الجمهورية البرلمانية الدستورية الديموقراطية.» وعلاوة على برنامج الإصلاح السياسي، يحدِّد الحزبُ أهدافه الأخرى كالتالي: اكتشاف الموهوبين، ومواجهة أزمة المياه، ومواجهة العنف بالثقافة، ومكافحة الإدمان، ومساعدة المعوَّقين. إلاّ أنّ التمايز الذي لَفَتَ الأنظارَ إليه هو أنّ ثلاثين بالمائة من قوام عضويته كانت للأقباط المصريين، الأمرُ الذي مَنَحَه ثقلاً خاصًا على أساس أنّه قد يمثِّل للمرة الأولى الوزنَ القبطي. وبطبيعة الحال فإنّ برنامج الحزب لا يشير إلى تقدير الإدارة الأميركية الخاصّ لأيمن نور، ولا إلى تمثيل حزب الغد النسبي للأقباط، ولا إلى علاقته بالجهات الأخرى ـ وهي الشروط التي أكسبتْه وزنَه الحقيقي. ويقودنا ذلك إلى ملاحظة عامة هي أنّ برامج الأحزاب المعلنة ليست في أغلب الأحيان سوى إنشاء وكلمات مرصوصة لا علاقة لها بواقع تلك الأحزاب ولا بحركتها الفعلية ولا أهدافها الحقيقية... ولا بسرِّ وجودها.



من شعارات التظاهرات الأخيرة في مصر: لا للتجديد، لا للتوريث

إذا نظرنا في برامج تلك الأحزاب الثلاثة الجديدة («الكرامة» و«الوسط» و«الغد») فسنجد أنّ عملية التغيير الفعلية تنحصر لديها في «تعديل الدستور وإلغاء حالة الطوارئ ونشر الحريات العامة» عند حزب الكرامة، وفي «تعديل الدستور وتنشيط المادة الثانية منه» عند حزب الوسط، وفي «نظام الجمهورية البرلمانية الدستورية الديمقراطية» عند حزب الغد. وماعدا ذلك فإنّه من الناحية الفعلية يندرج ضمن الشعارات والأهداف العامة، الوطنية عند «الكرامة،» والإسلامية عند «الوسط،» والليبرالية عند «الغد.» الأكثر من ذلك أنّ الحركات الجماهيرية التي وُلدتْ على خلفية التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية، وشجبِ الحربِ على العراق ـ مثلَ «لجان دعم الانتفاضة،» والحملة الشعبية للتغيير،» ثم «مؤتمر القاهرة،» وحركة «أجيج» المناهضة للعولمة، و«حركة عشرين مارس،» وانتهاءً بحركة «كفاية،» ثم «صحفيون من أجل التغيير،» و«كتّاب من أجل التغيير» ـ كانت كلُّها تضع نصب عينيها التغييرَ بالمعنى الليبرالي الديموقراطي، أيْ تغيير شكل النظام السياسي، وكسر الطابع الاستبدادي للحكم، دون مساس بمضمون النظام الطبقي، أو جوهره كنظام اقتصادي استغلالي، ودون مساس ـ ماعدا التيارات الناصريةَ أساسًا ـ برفض التبعية السياسية والاقتصادية لأميركا، ومقاومة مشروع الشرق الأوسط الكبير، واستكمال استقلال مصر السياسي بتحرير سيناء من القيود المذلّة لاتفاقية كامب ديفيد. ولعلّ أدقّ تعبير عن هذه الحالة هو أنّ حركة «كفاية» كانت شعاراتُها الرئيسية شعاراتِ الليبرالية والديموقراطية فحسب، دون خوض في الموضوعين الوطني والاقتصادي، وكأنّ الديموقراطية بحدّ ذاتها تمثّل حلاً سحريًا لمشكلات المجتمع المصري العويصة.

المهمة الوحيدة الممكنة الآن

لا شكّ أنّ المعارضة ـ بأحزابها الجديدة والقديمة وحركاتها الشعبية ـ قد صبّتْ كلَّ نيرانها على الشكل السياسي للحكم، معتبرةً أنّ تلك هي «الحلقة الأساسية للتغيير.» ولا شكّ أيضًا أنّ ذلك التركيز لم يأتِ من فراغ: فقد تعثّر المشروعُ القومي للنهضة الذي كانت التجربةُ الناصريةُ أسطعَ نماذجه، بينما تَبْذل قوى الاستعمار العالمي كلَّ جهدها لمحاصرته وإطفاء جذوته، في الوقت الذي أُغلقتْ فيه الطرقُ على المشروع الاشتراكي بعد زوال الاتحاد السوفيتي، وهمَّشت الأحزابُ الشيوعيةُ دورَها مكتفيةً بالدعوة إلى الإصلاح السياسي. ومن ثم لم يعد مرئيًا للحركة في الواقع الفعلي سوى أفق واحد، هو تعديل شكل الحكم السياسي وتطويره في إطار النظام ذاته، وذلك بطرح انتخاب الرئيس من بين أكثر من مرشح، وإلغاءِ حالة الطوارئ، وتوسيع دائرة الحريات العامة، وغيرِ ذلك. ويبدو أنّ تلك هي المهمة الوحيدة الممكنة الآن، التي يساعد تحقيقُها على خلق ظروفٍ أكثرَ ملاءمةً لنضال شعبي واسع من أجل الأهداف الوطنية والتحرر الاقتصادي والاجتماعي.

لكنْ إذا كانت الحركاتُ الجديدةُ تصطدم بالنظام فقط من زاوية شكل الحكم السياسي، فإنّ ذلك ليس مبرِّرًا للتهوين من شأن هذا الصِّدام؛ ذلك لأنّ معظم العواصف الجماهيرية كانت تنشأ من مجرّد عمليات احتجاج ضعيف، ثم تتجاوز ذلك إلى أفق رحب: فقد بدأت الثورةُ العرابيةُ باستياء الضبّاط من تفضيل الأتراك عليهم، ثم غضبهم لعدم حصولهم على رواتبهم؛ كما أنّ ثوراتٍ عديدةً بدأتْ بمجرّد مسيرات سلمية تتضرّع فيها الجماهيرُ إلى القياصرة والملوك لرفع الظلم، ولكنّها سرعان ما انقلبتْ إلى ثورات شاملة نتيجةً للقمع الوحشي.

الإخوان والشيوعيون

إنّ أحزاب وحركات المعارضة التي تعتنق كلُّها الليبراليةَ تقع بين طرفيْ نقيض: الأول هو قوى الإخوان المسلمين الذين يمثّلون الثقلَ الأكبرَ في الشارع المصري (يفوق عددُ الإخوان من أعضاء مجلس الشعب عددَ الأعضاء من جميع أحزاب المعارضة مجتمعين)، وشعارُهم: «الإسلام هو الحل.» والطرف الثاني هو الشيوعيون المعزولون تقريبًا: «الحزب الشيوعي المصري،» و«حزب الشعب،» ومجموعة «الاشتراكيين الثوريين» ـ والأخيرة لفتت الأنظارَ إلى نشاطها برفعها شعارَ إسقاط

الرئيس المصري صراحةً، ثم بمحاكمة بعض أعضائها في قضية نَظَرَتْها محكمةُ أمن الدولة العليا في مطلع ديسمبر ٢٠٠٣، وكانت أولَ قضية شيوعية تُنظر أمام المحاكم منذ ربع قرن وتُوجِّه فيها التهمةُ بتأسيس تنظيمٍ يدعو إلى إسقاط نظام الحكم.

أما عن مفهوم «الإخوان» للتغيير فإنّه لم يتبدّل كثيرًا منذ تأسيس الجماعة عامَ ١٩٢٨، كما لم يختلفْ سلوكُهم السياسي المناور والمراوغ. فقد صَرَّح المرشدُ العامُّ لهم محمد مهدي عاكف بشأن تصريحات الرئيس الأميركي بوش التي أشار فيها إلى ضرورة وجود رقابة دولية للانتخابات في مصر، فردّ يغازل الإدارةَ الأميركيةَ بقوله «إنّ مِنْ حقّ المنظمات الدولية والحقوقية أن تراقب الانتخابات.» وأكّد أنّ «الإخوان لا يسعون إلى الصدام مع الدولة،» وأنّهم «ليسوا أهل ثورة.» واستنكر تصريحاتِ حركة «كفاية» ضدّ الرئيس المصري، موضحًا أنّ «الرئيس رمزُ الدولة وأَرْفضُ سَبَّه مهما اختلفنا معه.» ووصَفَ الحركةَ المذكورةَ بأنّها «فئة ضالّة مُضِلّة،» وأنّ «لسانَها طويل.» وأفتى بأنّ من حقّ جمال مبارك أن يرشّح نفسَه. ورأى بعضُ المراقبين أنّ الإخوان تشجّعوا بحديث أميركا عن الإصلاح حتى لو أسفر ذلك عن وصول إسلاميين إلى الحكم، خاصةً بعد تجربة حزب العدالة والتنمية في تركيا، وإمكانيةِ التعامل مع الإخوان في مصر. وحين أَعْلَن الإخوانُ مطالبَهم الوطنية للإصلاح في مؤتمر صحفي في ٢٣ مارس هذا العامَ، جاء في مقدمة هذه المطالب: أولاً تعديل حقيقي للمادة ٧٦ من الدستور بما يَكْفل تكافؤَ الفرص بين المواطنين للترشيح لموقع الرئاسة؛ وثانيًا: إطلاق الحريات العامة بإلغاء حالة الطوارئ ورفع القيود عن تشكيل الأحزاب والحريات الأخرى.

وإذا كانت الحلقةُ الأساسيةُ للتغيير عند الإخوان هي «الليبرالية،» فإنّ الحزب الشيوعي المصري في بيان له في ١٤ مايو هذا العام يعتبر أنّه قد آن الأوان «لكلّ القوى الديموقراطية والوطنية التقدمية أن تتضافر جهودُها على طريق التغيير السياسي والدستوري الذي يفتح الطريقَ أمام التغيير الشامل.»

وتَعْتبر مجموعةُ «الاشتراكيين الثوريين» أنّ النضال الديموقراطي الذي تدور في إطاره كلُّ حركة المعارضة من أجل التغيير أمر ضروري لكنّه غير كافٍ، وتَطْرح الاعتمادَ على الجماهير، والاشتراكيةَ في إطار الثورة الدائمة.

ما هو مستقبل هذه المعارضة؟

سؤال تصعب الإجابةُ عنه، ولكنْ من المؤكّد أنّ حركة المعارضة مازالت بعيدةً عن الشارع، وأنّ القاسم المشترك بين تلك الحركات ـ وهو الجانب الليبرالي ـ قد يفجِّر حركةً شعبيةً في ظروف محددة، وقد ينحسر موجُ تلك المعارضة تحديدًا لأنّ المسافة بينها وبين الشارع مازالت واسعةً. ولا شكّ أنّ الانحسار أو التطور رهنٌ بظروف أخرى أو ضغوط جديدة، ورهنٌ أيضًا بتعميق المعارضة لمفهوم التغيير بحيث يتقاطع مع أماني الشعب المصري في حياةٍ أفضل ووطنٍ حرّ.

القاهرة

أحمد الخميسي

دكتور في الأدب. صحفي في **أخبار الأدب**. مراسل الآداب في القاهرة.

«كفاية»: الميلاد والمسار... الوعود والمخاطر

أحمد بهاء الدين شعبان

منذ أقلّ من عشرة أشهر، وُلِدتْ في مصر «الحركةُ المصريةُ من أجل التغيير» التي صار اسمُها المتداولُ ورمزُها وشعارُها صرختَها البارزةَ: كلمة «كفاية»، بما تَحْمله من دلالاتٍ ومعانٍ، وبما تتضمّنه من أشواقٍ وآمال. ومنذ ذلك الحين، ترك ميلادُ «كفاية» تأثيراتِه الملحوظةَ في الأوضاع المصرية جميعًا ـ في الحكم و«المعارضة» والشارع ـ بل وامتدّت هذه التأثيرات لكي تصل إلى المحيط الخارجي أيضًا: إلى الوطن العربي الذي تعيش بلدانُه ظروفًا شديدةَ الشبه بالظروف في مصر، وإلى العالم الذي تحتلّ مصرُ مكانةً لا يُمْكن تجاهلُها في صدارة مصالحه ومخططاته وأطماعه.

وبقدْر ما أثارت حركةُ «كفاية» من توقّعات، وأَنْعشتْ من أحلام، فإنّها أثارت تساؤلاتٍ تتعلّق بالنشأة والأفكار والبرامج ـ وكلُّها أسئلةٌ مشروعةٌ حتى ولو انطلقتْ من جهاتٍ مشكّكة ومن مواقع خصومها. ذلك أنّه لا يُمْكن حركةً عصفٍ سياسيٍّ اجتماعيٍّ ضخمة، مثلَ حركة «كفاية»، بكلّ توابعها الحاصلة والمتوقعة، ألاّ تثيرَ الرغبةَ العميقةَ في المعرفة أو تستفزَّ حاجةَ القديمِ المستقرّ إلى مقاومتها. فالحال أنّ هذه الحركة أصبحتْ، في هذه المدة الزمنية القصيرة، رقمًا لا يُمْكن تجاهلُه في معادلة الواقع والمستقبل في مصر، جنبًا إلى جنب مع جماعة الإخوان المسلمين التليدة، التي تَفُوقها عددًا وعدّةً وعمقًا تاريخيًّا وإمكاناتٍ، وإلى جانب الأحزاب السياسية الرسمية (المعارضة) كذلك، وعلى رأسها أحزابُ «التجمع» و«الوفد» و«الناصري» التي يزيد عمرُ أقدمها عن ربع قرن.

النشأة والانطلاقة

تعود نشأةُ حركة «كفاية» إلى شهر رمضان قبل الفائت، حين جَمَعَتْ مائدةُ إفطار عددًا من رموز الحركة السياسية المصرية الوطنية بتلاوينها المختلفة: من أقصى اليسار حيث الماركسية، إلى أقصى اليمين حيث المنتمون إلى جماعة «الإخوان المسلمين.» وبين هذيْن التلوينيْن عناصرُ من التيارات الناصرية الشابّة (حزب الكرامة) والإسلامية الجديدة (حزب الوسط) ـ وهما حزبان تحت التأسيس ـ وكذلك عناصرُ ليبراليةٌ ومستقلةٌ أخرى أغلبُها من جيل السبعينيات. ودار الحديثُ بعد الإفطار حول الأزمة الحادّة التي تُمْسك بخناقِ مجتمعاتنا، وكيفيةِ الخروج منها، بعد أن استباحت العنصريةُ الصهيونيةُ أرضَ فلسطين وشعبَها، واحتلّت الإمبرياليةُ الأميركيةُ العراقَ ونكّلتْ بشعبه، وباتت التهديداتُ العدوانيةُ تحيط بسوريا والسودان ومصر والسعودية وغيرها من البلاد العربية... فيما استبدّتْ نخبٌ سياسيةٌ باطشةٌ بثروات البلاد ومصائرها، وأحالت الأمةَ العربيةَ إلى سجنٍ كبيرٍ أُهدرتْ فيه كرامةُ المواطن، فأَخرجت الجماهيرَ العربيةَ من سياقِ معادلات القوة في المنطقة، ورَكَعَتْ تحت أقدام الولايات المتحدة والصهيونية.

وقد ارتأى الحاضرون اختيارَ بعض الأفراد من بينهم، من اتجاهات إيديولوجية وسياسية متباينة، لصياغة بيان سياسي مقتضب يَعْكس المخاوفَ المشروعة للمتحاورين من استمرار الأوضاع العربية والمصرية على ما هي عليه من تدهور، وينادي المهتمّين بالشأن العام من أجل التوحُّد لمواجهةِ ما تجابهه البلادُ من تهديدات ومخاطر، في إطار الحرص على تضمينه القواسمَ المشتركة التي تتفق عليها كلُّ هذه التيارات الوطنية.

ولما كانت القضيةُ المهيمنةُ التي تَشْغل بالَ الرأي العامّ في مصر وقتذاك هي قضيةَ التمهيد لترشيح الرئيس حسني مبارك لفترة رئاسية خامسة (يُكْمل بها حكمَ مصر لمدة ثلاثين عامًا متّصلة!)، وكذلك مسألة الاتجاه إلى توريث السلطة لنجله السيد جمال مبارك ـ وهما مسألتان استفزّتا الرأي العامَّ وقوًى سياسيةً متعددةً لما قدَّرتْه من انعكاساتهما السلبية على الواقع المصري والعربي ـ فقد كان من الطبيعي أن يكون المدخلُ الديموقراطيُّ هو المدخلَ المناسبَ لطرح كافة القضايا الوطنية والقومية، والسياسية والاجتماعية، التي هي بطبيعتها مرتبطة ولا يُمْكن الفصلُ بين مكوِّناتها.

وهكذا استقر المكلَّفون بهذا البيان على صيغته المعنونة بـ: «بيان إلى الأمة: مواجهة الغزو الأميركي الصهيوني والتدخل الأجنبي

سبيلُه الإصلاحُ الشاملُ وتداولُ السلطة.» وكانت الفكرةُ الأساسيةُ خلف هذا البيان هي أنّ الأمة العربية تواجه تحدّياتٍ خطرةً جَسَّدها الاحتلالُ الصهيونيُّ لفلسطين والاحتلالُ الأميركيُّ للعراق، وأنّ السلاحَ الناجعَ لمواجهة المشروع الإمبريالي الصهيوني للهيمنة على بلادنا لا بدّ وأن يتأسَّس اعتمادًا على إطلاق قوى الشعب المصادرةِ تحت وطأة الاستبداد، وعلى إعادة الاعتبار إلى الأمة المكبَّلة التي تئنّ تحت وطأة الفقر والفساد والظلم الاجتماعي والبطالة، عن طريق بناء مجتمع القانون والمواطنة، وإنهاء حالة الطوارئ الممتدة لعقودٍ في مصر، وإطلاق حقّ التعبير عن الرأي بمختلف السبل، وحقّ تكوين الأحزاب والهيئات الشعبية، وتحديدِ مدد وصلاحيات رئيس الجمهورية... إلخ.

وقد بادرت الجماعةُ التي صاغت البيانَ إلى حملةِ توقيعاتٍ عليه، جَمَعَتْ نحو ثلاثمائة اسم لكبار الوطنيين من المثقفين ورجال السياسة والفكر في مصر، أعْلَنتْ بعدَها الدعوةَ إلى عقد مؤتمرٍ لبحث الخطوة التالية يومَ ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٤، واختير توقيتُه مواكبًا لمؤتمر الحزب الوطني (الحاكم). وقد كان الهدفَ من المؤتمر طرحُ وجهة نظر كتلة شعبية في مواجهة وجهة نظر السلطة وحزبها. واحتشد في هذا المؤتمر أكثرُ من خمسمائة شخصية، انتهت مداولاتُهم إلى إعلان تكوين «الحركة المصرية من أجل التغيير،» كإطار حركي مَرِنٍ يَجْمع طيفًا واسعًا من الوطنيين المصريين للنضال المشترك من أجل تحقيق الأهداف التى عَبَّروا عنها في «بيان إلى الأمّة.» كما كَلَّفَ المؤتمرُ المجموعةَ التي صاغت البيانَ بإدارة العمل اليومي للحركة، وانتَخَبَ خمسةً وثلاثين عضوًا لتشكيل سكرتارية الحركة، أُضيف إليها فيما بعد نحو ٢٥ عضوًا هم منسّقو لجان الحركة المنتخَبون في مختلف محافظات مصر.

واختارت لجنةُ إدارة العمل اليومي، فى أولِ اجتماعاتها، أن تتصدَّر بياناتِها عبارةُ: «لا للتوريث.. لا للتمديد،» لا باعتبارها نهايةَ المطاف في أطروحتها، وإنما لتجسيد اعتراضها المبدئي على قضية احتكار الحُكْم، وعلى التمديدِ فترةً رئاسيةً جديدةً للرئيس مبارك ولمشاريع نقل السلطة إلى نجله، على أساس أنّ تلك هي قضيةُ الساعة في مصر، وستؤثّر ـ نظرًا إلى الطبيعة الرئاسية الفردية التسلطية للحكم عندنا ـ في مسارات البلاد وخياراتها الاستراتيجية لعقود طويلة قادمة. كما تبنّت اللجنةُ شعارَها الذي انتشر انتشارًا واسعًا فور إعلانه، شعارَ «كفاية،» لاستخدام شُحْنَتِهِ المفاهيمية الضخمة المعبِّرَةِ عن طاقة الاحتجاج والرغبةِ الهائلة في التغيير.

اجتياز الأسقف وعبور الخطوط الحمراء

بدأتْ حركة «كفاية» وجودَها في الشارع المصري عبر تنظيم سلسلة من التظاهرات السلمية المتعاقبة، في منطقة وسط البلد أمام «دار القضاء العالي،» يومَ ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤ (يوم حقوق الإنسان العالمي)، وفي شارع القصر العيني يوم ١٣ يناير ٢٠٠٥، وفي مداخل جامعة القاهرة (يوم عيد الطلاب العالمي، ٢١ فبراير ٢٠٠٥)، وفي خمس عشرة محافظة (في توقيت متزامن) يومَ ٣٠ إبريل، وغيرها. وكان لهذه التظاهرات دويٌّ هائلٌ يَرْجع إلى توفر عدة عناصر متداخلة:

أولاً، تجاوُزُ الحركة لكافّةِ الأسقفِ والخطوطِ الحمراء المتعارَفِ عليها في العلاقة بين السلطة والقوى السياسية التقليدية في المجتمع، وذلك عبر طرح موقفها الرافض لاستمرار حكم الرئيس مبارك أو لتوريث السلطة لنجله جمال ـ وهو أمرٌ جللٌ بالمقاييس المصرية والعربية، إذ لأول مرة تتجرّأ حركةٌ سياسيةٌ (ووليدةٌ أيضًا!) على التصدّي لـ «قدس الأقداس،» باعتباره رأسَ الأزمة، بوضوحٍ وقطعٍ ودون مداورةٍ أو وجل!

ثانيًا، النزول إلى الشارع مباشرةً، دون استئذان السلطة (التي كانت ستَرْفض حتمًا الترخيصَ للتحرك)، أو دون أخذ حالة الطوارئ وقوانين مصادرة العمل السياسي في الاعتبار، وذلك انطلاقًا من أنّ حقّ التظاهر حقٌّ دستوريٌّ مشروعٌ يؤدّي التنازلُ عنه إلى القبول بـ «الأسقف المنخفضة» التى خَضَعتْ لها

الأحزابُ الرسميةُ (فأفْقدتْها ثقةَ الشارع واحترامَه) ولإدراكٍ يقينيٍّ بأنّ الحرية لا توهَبُ بل لا بدّ من انتزاعها من براثن السلطة المستشرسة.

ثالثًا، الاستفادة من فكرة «السموات المفتوحة،» ومن قدرة الفضائيات العربية والميديا العالمية على نقل الحدث في أنحاء المعمورة، بالصورة والكلمة، متجاوزًا كُلَّ محاولاتِ السلطة من أجل محاصرة خصومها (كما كان يحدث في الماضي). وكان الهدف هو تشكيل سياج للحماية، نظرًا إلى حرص السلطة الاستبدادية على صورتها في الخارج، وهي صورةٌ تعتاش على تسويقها وتخشى من مغبّةِ الإساءةِ إليها أمام الدول الغربية والرأي العام العالمي.

كما كان لمواقف حركة «كفاية،» التي تميَّزتْ بالوضوح والحسم والعناد، دورٌ كبيرٌ في تأسيس سمعتها التي تجاوزت الحدودَ ووصلتْ إلى قطاعات واسعة من المصريين والعرب والأجانب. وهناك مثالان واضحان يَشْرحان هذا الأمرَ:

المثال الأول: حينما اتفق الحزبُ الوطني (الحاكم) مع أحزاب «التوافق الوطني،» المكوَّن من أحزاب التجمع والوفد والناصري، وآخرين، على تأجيل المطالبة بأيّ تعديل في الدستور إلى ما بعد الاستفتاءِ على منصب رئيس الدولة (سبتمبر ٢٠٠٥)، رفضتْ «كفاية» بصرامةٍ تأجيلَ المطالب الديموقراطية الشعبية إلى ذلك الحين، وأعلنتْ أنّها ستناضل من إجل إجراء التغييرات المطلوبة في الدستور فورًا. وكانت ردّةُ فعل أطراف السلطة وأجهزتها الإعلامية رفضًا حاسمًا؛ كما تهجَّمَ بعضُ رموز المعارضة «الرسمية» على الحركة بسبب هذا الموقف. على أنّ الأيام ادّخرتْ مفاجأةً كبرى لهذه الآراء، حين صَدَمها تراجعُ الرئيس مبارك نفسه بقبوله مبدأَ تغيير الدستور![1] وهكذا جاء إعلانُ قبول الرئيس مبارك مبدأَ اختيار رئيس الجمهورية **بالانتخاب** لا بالاستفتاء وكأنّه استجابةٌ مباشرةٌ لضغوط حركة «كفاية» وحدها في الداخل (إضافةً إلى ضغوط أخرى قادمةٍ من الخارج).



«كفاية» نزلت إلى الشارع دون استئذان السلطة ولا أخذ حالة «الطوارئ» في الاعتبار

والمثال الثاني هو موقف حركة «كفاية» الرافض للتمويل الأجنبي انطلاقًا من إدراك عميق لمخاطر التغلغل الأوروبي والأميركي في جمعيات المجتمع المدني. فقد رأت الحركة أنّ هذا التمويل قد خَرَّبَ قطاعًا واسعًا من النخبة السياسية وشَلَّ فعّاليتَها وجَعَلَها تروِّج لأجندةٍ غربيةٍ (أميركية أوروبية) لا تَعْكس ـ بالضبط ـ الواقعَ العربي واحتياجاته؛ كما أنّه خَرَّب أعدادًا غفيرة من ممارسي العمل العامّ، الذين تخلَّوْا عن مفهوم وفلسفة العمل التطوعي لصالح العمل المدفوع الأجر. وقد أشارت «كفاية» في بيان لها بتاريخ ١٤ مارس ٢٠٠٥ إلى مخاطر الانصياع لمبدإ تمويل جمعيات المجتمع المدني من الخارج، معلنةً أنّ «الاستبداد السياسي المحلي والعدوان الاستعماري الخارجي هما وجهان لعملة واحدة، لا يصحّ النضالُ ضدّ أيِّ طرف منهما بمعزل عن الطرف الآخر. وهذه الرؤية تميِّزها تمييزًا كاملاً عن كلّ الحركات السياسية التي تندرج تحت جدول أعمال الولايات المتحدة الأميركية والعدو الصهيوني في العالم، للهيمنة والتحكم في شؤونه.» وكانت الحركة واعيةً لمخاطر الاختراق الأميركي لعملية المطالبة بالتغيير الديموقراطي عن هذا الطريق، ولذلك لم تتوانَ عن مهاجمة الجمعيات غير الحكومية الستّ التي التقت بالسفير الأميركي وتسلَّمتْ منه شيكًا بمليون دولار أميركي (دعمًا لنشاطها!)، معلنةً (أي الحركة) اعتمادَها الكليَّ على مصادر تمويلها الذاتية وعلى نضال كوادرها في سبيل اكتساب حقوقها.

لذلك لم يكن نشازًا في سياق عمل حركة «كفاية» وأسلوب أدائها أن تردَّ بشجاعةٍ وثقةٍ على مزاعم الرئيس مبارك حينما ادّعى، في حواره مع أحمد جار الله، رئيسِ تحرير جريدة

١ ـ كان الدكتور رفعت السعيد، رئيسُ حزب التجمُّع، قد أعْلن أنّ الوقت لا يَسْمح بإجراء أية تعديلات دستورية قبل الاستفتاء، واصفًا حركةَ «كفاية» ـ ومَنْ يطالبون معها بعدم تأجيل إجراء التعديلات المطلوبة على الدستور إلاّ بعد إتمام الاستفتاء ـ بأنّ إدراكهم السياسي محدود!

السياسة الكويتية، أنّ «حركة كفاية تنظّم مظاهراتٍ مدفوعةَ الثمن،» وأنّه كان يَمْلك ـ لو أراد ـ مجاراتها في هذا الشأن بتنظيم مظاهراتٍ أكبر تهتف: «مشْ كفاية!» فلقد ردّت «كفاية» بأنّ مَنْ يقوم بتنظيم المظاهرات المدفوعة الثمن هم أعضاء حزب الرئيس (الحزب الوطني). كما أعلنتْ أنّها ستقوم بمقاضاة رئيس الجمهورية دفاعًا عن شرفها وسمعتها ونزاهةِ أعضائها، حتى يعتذرَ اعتذارًا واضحًا عما زَعَمه من اتهامات باطلة بشأنها! وقد أدّى هذا الموقف الحاسم إلى تراجع رئيس الجمهورية بعد ساعات معدودة عن هذه الاتهامات، بإصدار بيان باسم رئاسة الجمهورية يشير إلى أنّ صحيفة **الأهرام** ـ التي نشرتْ نصَّ الحديث ـ قد حَرَّفَتْ كلمات الرئيس، وهذا الأمر مَنَحَ الحركة مصداقيةً وزخمًا جديديْن، وساعدَ في ذيوع أفكارها.

مَنْ يخشى حركةَ «كفاية»؟!

ومع تصاعد وتيرة الصراع بين النظام وحركة «كفاية»، بدأت القوى السياسيةُ الأخرى في المجتمع تَشْعر بالقلق وتتحرك للمشاركة قبيْل فوات الأوان. وهكذا وجدنا جماعة «الإخوان المسلمين،» وهي الأكبر عددًا وعدّةً، تُجْبَرُ على مجاراة حركة «كفاية» بالنزول إلى الشارع، استجابةً لضغوط قواعدها، وبالذات الشباب الذين أثارهم عدمُ المشاركة في هذا الصراع الخطير الذي بدأ يهزّ المجتمعَ ويؤثّر في توجهاته. أما الأحزاب التقليدية، الرسمية، فقد انقسمتْ قسمين:

- أولهما الأحزابُ «المعارضةُ» الرسمية، مثل «التجمّع» و«الوفد» و«الناصري.» فقد حاولت احتواءَ توابعِ زلزال «كفاية» بالتجاهل وإدارة الظهر حينًا، وبالهجوم والرفض أحيانًا أخرى، لحماية قواعدها من التأثر بحيوية «كفاية،» خاصةً بعد أن لاحظتْ أنّ عددًا مهمًا من كوادرها المحْبَطة ـ بسبب عجز هذه الأحزاب عن تجديد دمائها والخروج من القوقعة المحبوسة داخلها ـ قد بدأتْ بالانجذاب إلى «كفاية» والمشاركةِ الفعّالةِ في أنشطتها.

- أما حزب الحكومة (المسمّى بـ «الوطني»)، فقد لجأ ـ بعد أن استنفد آخر إمكاناته ـ إلى شنّ حملات دعائية لتشويه الحركة باستخدام آلة الإعلام الرسمية الجبّارة، وإنْ كانت فاقدة التأثير والمشروعية، في الشارع. ثم لجأ إلى استئجار مجموعات من «البلطجية» ومعتادي الإجرام والخارجين على القانون، محمّلين بالأسلحة البيضاء وبالأدوات الحادّة، وفي حماية جهاز القمع البوليسي الذى عَمَدَ إلى محاصرة كوادر «كفاية» ومناضليها لدى نزولهم إلى الشارع، وتيسير السبل لاعتداء جموع المهمَّشين والغوغاء المدفوعي الأجر عليهم. وبلغ الأمرُ ذروتَه يومَ الاستفتاء (٢٥ مايو ٢٠٠٥)، حيث لم يتجرأ على النزول إلى الشارع لمجابهة حزب السلطة وأدواتِ قمعها سوى حركة «كفاية،» ونالها ما نالها من اعتداءاتٍ ومحاولاتٍ منحطّةٍ لانتهاك أعراض فتياتها، تحت مَسْمع ومرأًى من العالم كله! وقد شكّل ذلك فضيحةً دوليةً نَقَلَتْها الفضائياتُ، وتداولت أخبارَها المحافلُ، لكنّها ـ من جهة أخرى ـ ضاعفتْ من مصداقية الحركة، ودفعتْ بآلافِ الأعضاء الجدد للانضمام إلى صفوفها.

«كفاية»: صيحةٌ هزّت الضميرَ الوطني

لقد ساعد على الانتشار السريع لأفكار «كفاية» تهيُّؤُ المجتمع لقبول المطالب المشروعة بالتغيير في البلاد، بعد أن أصبحتْ وطأةُ الأزمة المجتمعية الشاملة ثقيلةً على الأكتاف. فقد جاءت صيحةُ «كفاية» في وقت مناسب تمامًا، إذ بدأ التململُ يعمّ المجتمعَ بطبقاته المختلفة وفئاته الاجتماعية المتباينة جرّاء التفكك الملحوظ في جهاز الدولة، وانتشار الفساد، والنزيفِ المستمرّ في الثروة الوطنية، وانهيار مستويات المعيشة (٣٥ مليون تحت حدّ الفقر)، وتزايُدِ جيوش العاطلين عن العمل (أكثر من ٧ ملايين عاطل معظمُهم من الشباب) إلخ... وشكّل ذلك كلُّه حاضنةً نموذجيةً لدعوة التغيير التي أطلقتْها حركةُ «كفاية.» ولهذا كان متّسقًا مع ما تقدّم أن تنتشرَ الدعوةُ من أجل التغيير في أوساط المجتمع المصري في هذه الفترة القياسية. هكذا شَهِدْنا تكوينَ تشكيلات الحركة من أجل التغيير في قطاعات متعددة: أساتذة



اعتُدي على الفتيات تحت مَسمع ومرأى من العالم كلّه!

من أجل التغيير (في الجامعة) ـ شباب من أجل التغيير ـ أطبّاء من أجل التغيير ـ مهندسون من أجل التغيير ـ صحفيون من أجل التغيير ـ أدباء وفنانون من أجل التغيير... وكلُّها تجمعاتٌ فئويةٌ تنادي بالتغيير الديموقراطي في المجتمع، على نحوِ ما طرحتْ «كفاية» من أفكار، إضافةً إلى مطالب التغيير الديموقراطي فى مجال تخصُّصها (الجامعة ـ الصحافة ـ الأدب ـ الطبّ ـ الفنّ.. إلخ) بعد أن طاولها الفسادُ من كل ناحية ولم يعد أمامَها من مهربٍ سوى إعادة ترتيب أوضاعها على أسس الديموقراطية والمساءلة.

وأكثر من ذلك، فلقد بدأتْ حركةُ «كفاية» فى الانتشار أفقيًا في كلّ محافظات مصر تقريبًا، وبين الفلاّحين والعمال، الذين أنشأوا «فلاّحين من أجل التغيير» و«عمّال من أجل التغيير» للدفاع عن قضايا الطبقة العاملة والفلاحين الاجتماعية، وبالتوافق مع كلّ جماعات الوطن التى تَنْشد التغييرَ الديموقراطي الشامل. والمهمُّ أيضًا أنّ مثال حركة «كفاية» قد دَفَعَ إلى الحركة قطاعاتٍ مجتمعيةً كانت خارج الحراك السياسي بصورة كاملة، مثل القضاة الذين عَقَدوا مؤتمرًا حاشدًا يوم الجمعة ١٣ مايو الماضي أكّدوا فيه مطالبَهم باستقلال الكيان القضائي عن تدخُّلات السلطة التنفيذية، وكذلك مطالبتهم بالإشراف على الانتخابات القادمة (انتخابات الرئاسة ومجلس الشعب) دون تدخُّل الأمن وهيئات الدولة، وإلاّ تنحَّوْا عن المشاركة فيها ـ وهذا ما يضع النظامَ في مأزق حرج إنْ قَبِلَ هذه المطالب... وإنْ رَفَضَها أيضًا!

كما تجاوَزَ صدى تكوين وتحرُّكات «الحركة المصرية من أجل التغيير ـ كفاية» الواقعَ المصريَّ إلى الواقع العربيّ، بحُكْمِ ما تحتلّه مصرُ من قيمةٍ موضوعية وموقعٍ رياديّ فى الوطن العربي والمنطقة. فتكوَّنَتْ حركاتٌ متعددةٌ في ليبيا واليمن والأردن وغيرها من البلدان العربية تحت مسمَّى «كفاية» أو مترادفاتها. وهذا ما يشير إلى أهمية هذا الشعار وتماسّه مع تطلّعات ومطالب الجماهير العربية في كل أنحاء العالم العربي.

ملاحظات شكلية على علاقة الداخل بالخارج

لم تكن السلطة المصرية وبعضُ أحزابها الرسمية هي وحدها التي صبَّت جامَ غضبها على حركة «كفاية»، التي هبَّت كالرياح العفيّة فهزَّت ركودَها وركودَ الحياة السياسية في المجتمع، وسَحَبت البساطَ من تحت أقدام الكثيرين من المنتسبين إليها. وإنما تعامَلَ مع «كفاية» بشكل سلبي أيضًا عناصرُ وطنيةٌ طيبةُ النوايا، مَنَعَتْها من التجاوب معها خبرتُها السياسيةُ المحدودةُ، وغيابُ التصاقها بنبض الواقع، وعجزُها عن تحسُّس ما يعتمل في الأرض المصرية والعربية من تفاعلات حادة تَعْكس لحظةً حرجةً ومصيريةً لا يمكن تأجيلُها، أو مَنَعَها من ذلك الهربُ من استحقاقاتها تحت زعم «الأولوية المطلقة للنضال ضد الإمبريالية والصهيونية،» دون وعيٍ لترابط قضيتي الديموقراطية ومعاداة الإمبريالية ترابطًا موضوعيًا لا يُمْكن فصلُه بأيّ حالٍ من الأحوال. فكأنّي بهذه الأصوات المحدودة ترى تأجيلَ أيّ مَطْلبٍ بالحرية والديموقراطية إلى أن يتمّ الخلاصُ من الاحتلال والعدوان الصهيوني الإمبريالي، لكنْ دون أن تقول لنا **كيف** يُمْكن تحقيقُ هذا الأمر في ظلّ استبداد أنظمةٍ فاسدةٍ تَحْكم بالحديد والنار، وتَمْنع من توافر الحدّ الأدنى من الشروط الضرورية اللازمة لتعبئة الشعب في المعركة ضد الإمبريالية الأميركية والصهيونية. فالحال أنّ ذلك لن يكون ممكنًا إلاّ بقيادة نضال ديموقراطي حقيقي، يتمّ عبرَه ـ لا عبر الوعود الأميركية الوهمية ـ انتزاعُ الحقوق الديموقراطية الشعبية. وهذا ما يتيح للجماهير الوطنية الفرصةَ لتنظيم صفوفها دفاعًا عن مصالحها، وضدّ الاستغلال والاستبداد الداخلي من ناحية، وضد الهيمنة والعدوان الأميركي والصهيوني من ناحية أخرى. فالحقّ أنّه لا سبيل إلى مواجهة العدوان الخارجي على الأمة، والعدوانِ الداخلي على الشعب، إلاّ عبر هذه العلاقة الجدلية بين النضال الديموقراطي والنضال الوطني/القومي، على النحو الذي تبنَّتْه حركةُ «كفاية» وحاربتْ فى ضوئه كلَّ معاركها حتى الآن.

والغريب في الأمر أنّ هذه الأصوات التي ارتفعتْ للهجوم على حركة «كفاية» تَصْطنع إسقاطاتٍ بعيدةً عن الواقع، بين ما حَدَثَ

في بعض دول أوروبا الشرقية وما يَحْدث في بلادنا، متجاهلةً اختلافَ الظروف بين البيئتين، واستحالةَ تجاهُلِ حضور الاحتلال الصهيوني في فلسطين والاحتلالِ الأميركي في العراق على أجندة أيّ حركةٍ تغييرٍ في بلادنا. كما أنّها تتجاهل بشكل قصديّ كلَّ ما تضمَّنَتْه وثائقُ حركة «كفاية» من إشاراتٍ حاسمةٍ إلى موقفها المبدئي المضادّ للإمبريالية الأميركية، والصهيونية، والتمويل الأجنبي، وغيرها مما لا يُمْكن لأيّ رأيٍ موضوعيّ تجاهُلُه.

كما أنّها تتجاهل أيضًا حقيقةً مفادُها أنّ قادة حركة «كفاية» جميعَهم، قد تربَّوْا في مدرسة الوطنية والقومية، وأنّهم - بأنفسهم - مؤسِّسو كلّ لجان مقاومة الصهيونية والتطبيع مع العدو الصهيوني، ولجان مقاومة العدوان الأميركي على الشعب العراقي، ولجان المقاطعة الشعبية للسلع والشركات الصهيونية والأميركية، وأنّ تاريخهم النضالي يجعلهم قادرين على حماية حركتهم من أية مخاطر قد يتصوَّر البعضُ حدوثَها. والحقّ أنّ دافعَ مؤسِّسي «كفاية» إلى تأسيس حركتهم لم يكن التهرُّبَ من الاستحقاقات الوطنية والقومية، وإنما الحاجة إلى توفير الشروط الموضوعية الضرورية لتحقيق هذه الاستحقاقات؛ ذلك أنّ حرق ألف علم أميركي أو صهيوني لن يحرِّكَ الوضعَ قيدَ أنملة مثلما يحرِّكُها حكمُ مصرَ بنظامٍ وطني حقيقي، وقومي حقيقي، وديموقراطي حقيقي، يَدْفع بالقدرة المصرية الهائلة المجمَّدة إلى صلب معركة البناء والاستقلال والحرية - وهذا هو حالُ كلّ الدول العربية بدون استثناء!

ولعلّ من حسن الطالع أنّ برنامجَ التغيير الديموقراطي، الذي بادرتْ حركةُ «كفاية» إلى طرحه والسعي لاستقطاب الإجماع الوطني حوله، يجيء في سياق رؤية واضحة للمصالح الوطنية والقومية العليا، التي تمثِّل فيها قضيةُ الصراع العربي - الصهيوني - الإمبريالي، وتحرير المنطقة من الاحتلالَيْن الصهيوني والأميركي، ومواجهة مشاريع الهيمنة الإمبريالية في منطقتنا، موقعًا رئيسيًا.

إنّ إلحاحَ الحاجةِ إلى استبدال أنماط الحكم الفاسدة والاستبدادية المسيطرة على البلاد، بما يسبِّبه من انهيارات اقتصادية واجتماعية، كان سيَفْتح البابَ أمام أية قوة أو فرد أو مجموعة أفراد مدفوعين من الإدارة الأميركية إلى رفع شعارات «الديموقراطية» من أجل تجييش الملايين من المتطلِّعين إلى التغيير، وفي اتجاهٍ معادٍ للمصالح والأماني القومية، لو لم تتقدّم حركةُ «كفاية» بكل منظورها المعادي للهيمنة الأميركية والصهيونية، والمنحازِ للشعب وطبقاتِه الأفقرِ والأكثرِ معاناةً، وبتاريخ مؤسِّسيها المعروفِ في النضال ضد الصهيونية والتطبيعِ والهيمنة الأميركية - الأمرُ الذي هيَّأ لها قبولاً واسعًا في المجتمع المصري وخارجَه.

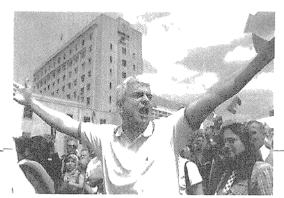
حركة «كفاية»: التحدِّيات والاستجابات

غير أنّ حركة «كفاية»، ونتيجةً للقبول العامّ الذي حقّقته في فترة وجيزة، تواجه مجموعةً كبيرةً من التحدِّيات، ومنها على سبيل المثال:

(١) تحدِّي بناء هيكل تنظيمي للحركة يَسْتوعب التدفُّقاتِ الهائلةَ للراغبين في الانضواء تحت لوائها، مع حلّ معضلةِ أنّ الحركة ليست حزبًا (وليس من ضمن توجُّهاتها الراهنة أن تتحول إلى حزب)، ولا يُمْكنها أيضًا الاستمرارُ وسط هذا «الفيض البشري» دون حدٍّ أدنى من مَأْسسة العلاقة بينها وبينهم.

(٢) تحدِّي طرح برنامج عامّ للتغيير الديموقراطي في البلاد يستجيب للمطالب الملحّة، ويتضمَّن رؤيةً اجتماعيةً تتجاوب مع مطالب الطبقات الشعبية (وفي المقدّمة العمّالُ) في الارتباط بالحركة والتفاعل مع أنشطتها، ويحافظ - في الوقت نفسه - على وحدة مكوِّناتها المختلفة المصادر (يسارية - قومية - إسلامية - ليبرالية).

(٣) تحدِّي السعي إلى بناء جبهةٍ للعمل المشترك مع باقي الحركات والقوى والأحزاب السياسية، في ضوء توجُّس هذه الأخيرة من فاعلية حركة «كفاية» وحيوية أدائها، وما يمثِّله من



المواطن الحرّ وحده هو الذي يقاتل من أجل حريّته ووطنه وأمّته!

خطرٍ على بنيانها المحافِظِ المقيَّد، من جهة؛ وفي ضوء حقيقةٍ أنّ عمليةَ التغيير الديموقراطي ـ الاجتماعي في البلاد مهمةٌ شديدةُ الثقل لا يُمْكن طرفًا واحدًا من أطراف العملية السياسية أن يَنْهض بعبئها وحده.

(٤) تحدِّي حماية الحركة من محاولات الاختراق، الداخلية والخارجية، من طَرَفِ السلطة والقوى المضادّة في الداخل، ومن الولايات المتحدة والقوى التابعة في الخارج، ممّن يرفعون شعارات الديموقراطية المزيَّفة وسيلةً للقفز على النضالات الوطنية والقومية، ولحرف مشاريع التغيير الديموقراطي الوطنية عن مسارها الأصيل. غير أنّ وعي قادة حركة «كفاية» وأعضائها وأصدقائها لهذه التحدّيات يساعد في بلورة موقف صحيح في مواجهتها من أجل استشراف رؤية مجتمعية شاملة يتضمَّنها برنامجُ التغيير الديموقراطي المقبل الذي يحقِّق السيطرةَ الوطنيةَ على مجريات هذه العملية.

ولبحث مستقبل حركة «كفاية» بعد الشوط الكبير الذي قطعتْه في المدى القصير المنصرم، فقد دعت الحركةُ إلى مؤتمر كبير، يشارك فيه خمسمائة من كبار المثقفين ورجالات السياسة والفكر والمعرفة والوطنية والقومية في مصر بهدف التداول حول القضايا الرئيسية المطروحة، ولبحث سبل مواجهة التحدِّيات التى تجابهها الحركة.

إنّ حلم التغيير الديموقراطي في مصر، وفي باقي أرجاء وطننا العربي، ليس حلمًا مجانيًا لدى شعوبنا التي عانت طويلاً من الاستبداد والفساد، وهي تدرك عن يقينٍ وخبرة أنّ أيّ تشدُّق بتعليق تحقيق الحريات الإنسانية الأساسية لأمتنا تحت زعم أنّه «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» هو الآن محضُ هراءٍ وسفهٍ، فالمواطنُ الحرُّ وحده هو الذي يقاتل من أجل حرية وطنه وأمته، وأما العبيدُ فلا يصنعون الحرية!

لقد أَطلقتْ حركةُ «كفاية» وعودًا بالتغيير، وحَرَّكتْ آمالاً في الحرية (حريةِ الوطن والمواطن)، وعبَّأتْ مشاعرَ حميمةً بالتواصل والرغبة في النضال المشترك لإنقاذِ مَرْكبِ الوطن من العواصف الغادرة التي تَعْصف به من كل جانب. وحتى الآن، فإنّ مسيرة حركة «كفاية» قد نجحتْ ـ بدرجةٍ أكبرَ من كلّ التوقعات ـ في إعادة الروح إلى مجتمع كان قد خاصَمَ السياسةَ وأدار ظهرَه للشأن العامّ، واستطاعتْ ـ بالحَجَرِ الذي ألقت به في البركة الآسنة التي لم تتحرك لعقود ـ أن تعيد إلى بؤرة الضوء قوةً هادرةً كانت مهمَّشةً وثانويةً، هي قوةُ جماهير الشعب التي أَطلقتْ صيحتَها المدوِّية:

«كفايـــة، كفايـــة، كفايـة إحْنـــا وصلْنـــا النهايـــــة!»

ولعلّ هذه الصيحة المدوِّيةَ، التي خرجتْ من القلوب قبل الحناجر، أن تكون إيذانًا بنهايةِ عهدٍ، وبدايةِ عهدٍ جديد.

القاهرة

أحمد بهاء الدين شعبان

عضو مؤسِّس في «الحركة المصرية من أجل التغيير ـ كفاية.»

اختزال مطالب التغيير

أحمد عبد الرحمن

الإصلاح أميركيًا

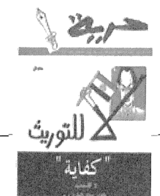
بدايةً ينبغي التأكيدُ أنّ التركيز على الإصلاح السياسي في مصر كمدخل لمواجهة الاستعمار يَحْمل في طيّاته مخاطرةَ أن تكون الحركةُ وقودًا للقاطرة الليبرالية الموالية لأميركا التي تَرْفع شعاراتِ الإصلاح السياسي أيضًا، لكنْ مفرغةً من أيّ محتوًى وطني يَرْفض الهيمنةَ الاستعماريةَ وسياساتِ الإفقار. فالحال أنّه لا يُمْكن حشدُ الطاقات الشعبية تحت راية «الإصلاح السياسي» بالمفهوم الأميركي لأنّه يَحْصره في نطاقٍ انتهازيّ يَخْدم النخبةَ السياسيةَ الجديدة المرتبطة بالولايات المتحدة التي لا يُمْكن أن تُفْرز سوى نماذجَ أكثرَ تبعيةً مثل قرضاي وعلاّوي ترتدي عباءةَ الديموقراطيةِ الممهورة بالمباركة الأميركية. إذن، من الأهمية بمكانٍ الربطُ بين الاستقلال الوطني والحرية السياسية بوصفهما هدفًا واحدًا، لأنّه لا حرية سياسية في إطار التبعية، ولا استقلال وطني من دون إطلاقِ الطاقات الشعبية وتحريرِها من قيود الحكومات الشمولية.

الفصل بين القضية الوطنية والإصلاح

إنّ الحركات الداعية إلى التغيير في مصر تؤكّد أنّها تجمّعتْ لمواجهة أمرين كلٌّ منهما سببٌ ونتيجةٌ للآخر، وهما «الغزوُ والتدخّلُ الأجنبي» من ناحية، و«الاستبداد الشامل في حياتنا» من ناحية أخرى. وقد جاء في وثائق تلك الحركات أنّ «أُولى خطوات مواجهة الغزو والتدخُّل الأجنبي هي الإصلاح السياسي والدستوري الذي يوفِّر للأمة كلَّ الضمانات الممكنة لملاحقةِ وهزيمةِ المشروع الاستعماري الكريه.» ولكنّ الحقيقة هي أن هذا الإصلاح وحدَه لا يوفِّر مثلَ هذه الضمانات. إضافةً إلى ذلك، فإنّ هذا المنهجَ التتابعي، أي البدءَ بإصلاح سياسي ودستوري يُمكّننا من «ملاحقة المشروع الاستعماري» إنّما يتناقض مع ما ذَكَرَتْه الوثائقُ من أنّ كلا القضيتيْن (مواجهة الاحتلال والتدخُّلِ الأجنبي، ومواجهة الاستبداد) سببٌ ونتيجةٌ للأخرى؛ أيْ أنّهما مترابطتان ولا يُمْكن فصلُهما.

إنّ منهجَ إعطاء الأولوية لجانبٍ من التغيّرات على حساب جانب آخر يضع الأمورَ في إطار يَسْهل توظيفُه من قِبل أعدائنا، كما حدث بالنسبة إلى **تقرير التنمية البشرية** الذي حَجَبَ دورَ الإمبريالية في عَوْقِ التنمية. كما أنّ هذا المنهج يَصْرف الأنظارَ أو على الأقلّ يَخْفض الاهتمامَ بالقضايا الوطنية، في وقتٍ يتصاعد فيه الهجومُ الإمبريالي ـ الصهيوني على أمتنا بأسرها، ويَسْتعر الصراعُ بين المقاومة العراقية البطلة وبين قوات الاحتلال الأميركي، ويتواصل نضالُ الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني، ويحاول فيه الاحتلالُ في العراق وفلسطين تشكيل الأطر السياسية والأمنية بما يكرِّس أهدافَ الاستعمار العدوانية تحت شعارات «الديموقراطية والإصلاح والتغيير.» وتحت الشعارات نفسها تمارس الإمبرياليةُ الأميركيةُ الضغوطَ على السلطة المصرية القائمة، مستغلةً ضعفَها وعدمَ شعبيتها، لتَفْرض عليها تنازلاتٍ خطيرةً مثل تعديل اتفاقية كامب دايفيد لصالح المزيد من الدعم الأمني لإسرائيل، وتمرير اتفاقية الكويز التي تسهِّل تغلغل النفوذ الصهيوني في الاقتصاد المصري، ومثل المزيد من قبول التدخل في الشؤون الداخلية، وتقديمِ المساندة للاحتلال الأميركي ضد المقاومة العراقية، ومساندةِ الضغوط الأميركية والصهيونية لإسكات صوت المقاومة الفلسطينية ومن أجل تمرير مشروع الشرق الأوسط الكبير. كما تستخدم الإدارة الأميركيةُ شعاراتِ «الإصلاح والديموقراطية في كافة البلاد العربية» فقط كسلاح لفرض المزيد من التنازلات والتفريط في القضايا الوطنية والقومية على أنظمة الحكم العربية.

قد يتبادر إلى ذهن البعض أنّ منهجنا هذا أمرٌ مريحٌ للسلطة الاستبدادية المحلية التي طالما سعت إلى صرف الانتباه نحو التهديد الخارجي لتبرير ديكتاتوريتها. ولكنْ مَنْ قال ـ غير الديكتاتوريين ـ إنّ الديموقراطية تتناقض مع مواجهة التهديد الأجنبي؟ إنّ الحرية والديموقراطية شرطٌ أساسيٌّ لا غنى عنه لمواجهة العدوان الأجنبي. ثم ما هو الداعي أصلاً لاستخدام تلك الحجّة في ظلّ نظامٍ لا يَحْفل كثيرًا بالتهديد والتدخل



هل يمكن الحركة الوطنية المصرية أن تصفِّق لإسقاط النظام الحالي لكي يحلّ محلّه نظام أكثر قدرةً على تمرير المخطّطات الأميركية تحت مسحة ديموقراطية؟

الأجنبي، بل ويَعْتبر العدوَّ الأميركي صديقًا والعدوَّ الصهيونيَّ جارًا قادرًا على المساهمة في صنع السلام؟!

إنّ أقسامًا من النخبة السياسية المعارضة تقوم ـ بوعي أو من غير وعي ـ بتبرئة العدو الأميركي من مسؤوليته عن توطيد الديكتاتورية في مصر حين تَنْظر إلى ذلك العدو باعتباره مجردَ نتيجةٍ للاستبداد والديكتاتورية المحلية في بلادنا.

كما أنّ بيانات حركة التغيير ـ رغم تعدادها (بشكل عامّ) «المخاطرَ والتحدِّياتِ الهائلةَ التي تحيط بأمتنا وبما يَسْتتبع حشدَ الجهود لمواجهة شاملة على كل المستويات» ـ لم تَذْكر قضايا أو مجالاتٍ أو وسائلَ محددةً لهذا الحشد كما فَعَلَتْ عندما تحدّثَتْ عن الإصلاح السياسي والدستوري. بل لقد التزمت هذه البياناتُ الصمتَ ـ حيث لا يجوز الصمتُ ـ عن الدعوة إلى اتخاذ موقف يتعلق بصراع جارٍ يتوقف عليه مستقبلُنا (بما في ذلك الديموقراطيةُ التي نَحْلُم بها)، أيْ باتخاذ موقفٍ من المقاومة العراقية، والفلسطينية، ومشروع الشرق الأوسط الكبير. كما تجاهلتْ تلك الوثائقُ علاقاتِ التبعية الاقتصادية والسياسية والعسكرية للإمبريالية الأميركية وللصهيونية، التي يتعارض الاستمرارُ في الخضوع لها مع استقلالنا وتطورنا والمصالح المباشرة لشعبنا. وكان من واجب بيانات حركة التغيير أن تضع هذه القضايا البالغةَ الأهميةِ في إطارٍ مختلفٍ تمامًا يميِّزُها عن إطار الإصلاح الأميركي، الذي لا يزيد عن كونه مجردَ قناعٍ للسيطرة الاستعمارية.

إنّ السكوت عن هذه القضايا يلبِّي متطلَّبات التفسير الأميركي الملفَّق لأزمتنا، ويُخلي مسؤوليةَ الإمبريالية والصهيونية عن الأزمة، ويلبِّي احتياجات التوجُّه الأميركي إلى إقامة نظام حكم يمارس ـ بصورة «أفضل» وبوجوهٍ غير مستهلَكة ـ سياساتِ الخضوع والارتباط نفسَها. كما أنّ تبريرَ البعض إعطاءَ الأسبقية والأولوية للإصلاح السياسي بالمعنى الضيِّق (حرية تداول السلطة الذي يَعْنون به حريةَ تداوُلِ الحكم)، وتحديدًا رفضَ التمديد للرئيس المصري باعتبارِ ذلك مفتاحَ التغييرَ، أمرٌ عجيب حقًا. وإذا نحَّينا موقتًا مسألةَ مفتاح التغيير الحقيقي، فإنَّ مَنْ يختلف حول القضايا الوطنية وأولويّتها هم المطبِّعون مع الكيان الصهيوني والإمبريالية الأميركية، أو الذين لا يَجِدون غضاضةً في التمويل الأجنبي الأميركي والأوروبي لأنشطتهم ولا يعتبرون ذلك التمويلَ تدخلاً أجنبيًا أو تعاملاً منهم مع أعداء بلادنا وشعبنا.

وليس من قبيل المصادفة أن تَذْكر صحيفةُ **واشنطون پوست** الأميركية في افتتاحيتها في ١٨ يناير هذا العام تحت عنوان «كفاية» ـ في إشارة إلى شعار الحركة ـ أهميةَ فرض «الحرية والديموقراطية» في مصر! وقالت الصحيفة: «أملاً في أن يكون مِسْتر بوش جادًا في عزمه على التدخُّل لفرض الديموقراطية، شكَّلتْ حركاتُ المعارضة المصرية تحالفًا للمطالبة بإصلاحات أساسية: إنهاء حالة الطوارئ التي تقيِّد النشاطَ السياسي، وانتخاب رئيس مِنْ بين أكثر من مرشّح، وإجراء تعديلات دستورية للحدّ من صلاحيات الرئيس القادم.» وكان من الغريب والمؤسف حقًا أن يَسْتحسن بعضُ قادة الحركة إطراءَ هذه الصحيفة الأميركية وهذا التدخُّلَ الصريحَ، وهو أمرٌ لا يستحسنه إلاّ مَنْ يتصور أنّ ضغوطَ الإدارة الأميركية قد تساعده في تحقيق الإصلاحات! وفي الوقت ذاته أدلى جورج إسحق، المنسِّقُ العامُّ لحركة «كفاية،» بحديث إلى صحيفة **ديلي ستار** في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٤ قال فيه: «إنّ المعارضة الشعبية الأوكرانية خلال الانتخابات الرئاسية تَرَكَتْ تأثيرًا كبيرًا في النشطاء المصريين وفي آخرين في العالم العربي الذين يُؤْمنون أنّ العرب يجب أن يتمتّعوا بالاحترام الديموقراطي والحقوق نفسها مثل مواطني أوكرانيا والبلاد الأخرى.» لكنْ من المعروف أنّ النموذج الأوكراني (الثورة البرتقالية) الذي يَسْتشهد به المنسِّق العام لحركة «كفاية،» مثلُه مثلَ النموذج الجيورجي (الثورة الزهرية)، يعبِّر أقوى تعبير عن الاختراق الأميركي للنخب السياسية في تلك المجتمعات، وعن دور المنظَّمات المموَّلة أجنبيًا والمسمّاة «منظَّمات المجتمع المدني،» وعن دور رجال الرأسمالية العالمية من أمثال سورس، ويضاف إلى كلّ ذلك دورُ

فريق عملٍ أميركيٍّ كانت مهمَّتُه التخطيطَ الدقيقَ لتوظيف التذمُّر الشعبي والتوتّر الاقتصادي والعرقي والاجتماعي لصناعة «ثورات ديموقراطية» يُمْكن عَبْرها تشديدُ القبضة الأميركية على تلك البلدان. فهل هذا هو نموذجُ الثورة الذي يتطلّع البعضُ إليه في مصر؟ ألا يدعونا ذلك إلى التساؤل عن سبب ظهور اللون الأصفر في مظاهرة حركة «كفاية» يوم ١٢ ديسمبر العامَ الماضي؟ هل كان ذلك تيمُّنًا باللون البرتقالي في أوكرانيا، وتحضيرًا لثورةٍ ديموقراطيةٍ «صفراء» مدفوعةِ الأجر تأتي بحكومةٍ أكثرَ ولاءً لأميركا وأقدرَ على قهر الشعب لكنْ تحت شعارات برّاقة؟ أمْ أنّ ذلك كان مجردَ تقليدٍ أعمى لا غير؟

والآن، هل يُمْكن الحركةَ الوطنيةَ المصريةَ أن تصفِّق لإسقاط النظام الحالي لكي يحلّ محلَّه نظامٌ أكثرُ تبعيةً وموالاةً وقدرةً على تمرير المخططات الأميركية تحت مسحة ديموقراطية؛ نظامٌ يَقْمع الغضبَ الشعبيَّ على إسرائيل وأميركا، ويَحُول بين وسائل الإعلام الحكومية وبين التعبير عن ذلك الغضب؟ ألم تشكُ صحيفةُ **واشنطون بوست** من وسائل الإعلام في نظام حكم مبارك؟ أمْ أنّ علينا أن نَسْلك الطريقَ الصحيحَ الوحيدَ، وهو مواجهة التدخل الاستعماري والتبعية والديكتاتورية **في آنٍ واحد** وبالاعتماد على شعبنا؟

وفي البيان الذي أصدرتْه حركةُ «كفاية» في سبتمبر العامَ الماضي بعنوان «مواجهة الغزو الأميركي الصهيوني والتدخُّل الأجنبي سبيلُه الإصلاحُ الشامل وتداولُ السلطة،» كانت صيغةُ البيان تتيح الفرصةَ أمام النشطاء المموَّلين أجنبيًا للتوقيع عليه، بل تتيح اجتماعَ بعضهم مع وزير الخارجية الأميركية في فندق سميراميس بالقاهرة! إنّهم أولئك الذين نَصبُوا أنفسَهم ممثِّلين لما يُسمَّى بـ «المجتمع المدني المصري» الذين شاركوا في فعّاليات منتدى الجمعيات الأهلية في المغرب في ديسمبر الماضي، وكانت مشاركتُهم جنبًا إلى جنب مع وفود الحكومة المصرية والحكومات العربية وفقًا للمخطَّط الذي وضعتْه للمشروع قمةُ الثمانية الكبار في «سي إيلاند» بولاية جيورجيا الأميركية في يونيو العامَ الماضي. إنّهم أيضًا أولئك الذين يسارعون إلى إرسال برقيّات التهنئة بالانتخابات العراقية بدلاً من فضحها وتعرية أهدافها الإجرامية. وهم أيضًا أولئك الذين يَعْتبرون عمليّاتِ المقاومة الاستشهادية خرقًا لحقوق الإنسان. والسؤال الآن هو: كيف يستقيم لعملٍ عنوانُه «مواجهةُ الغزو الأجنبي» أن يَشْمل مَنْ يَقْبلون التدخُّلَ الأجنبي، سواءٌ عن طريق التمويل الأجنبي أو عن طريق غيره من أشكال الارتباط والتعاون التي تشوِّه محتوى العمل الوطني والأهلي؟ أم أنّ توسيع المعارضة أصبح هدفًا في حدّ ذاته، دون أية قيود مبدئية؟

هناك سؤال آخر: هل يَصْلح نضالُ الشعب المصري فقط لانتزاع الحرية والديموقراطية، في حين أنّه لا يَصْلح لمقاومة الإمبريالية والصهيونية؟! أمْ أنّ حركة التغيير هذه ستعتمد على شيء آخر غير الحركة الشعبية للقضاء على الديكتاتورية؟! لقد غاب عن وثائق الحركة أنّ أيّ حُكْم ديموقراطي (وهو ما تسعى إليه الحركة) لا بدّ أن يضع في حسابه مصالحَ الشعب، أيْ أن يضع في حسابه القضيةَ الوطنيةَ في المقام الأول. أمّا اختزال التغيير في مجرد تعدُّد المرشَّحين للرئاسة، وعددِ مرّات الرئاسة، وسلطاتِ الرئيس، فإنّه يتيح الفرصةَ لمواصلة النظام الديكتاتوري لوجوده متخفِّيًا بمظهرٍ ديموقراطيٍّ زائف، بدلاً من نظام ديكتاتوري قديم تابع فَقَدَ صلاحيَّتَه. إنَّ الديموقراطية لا وجود لها في أية دولةٍ تَفْقِد قرارَها الوطني المستقلّ. أمّا عن شعار حركة «كفاية» المستخدم وهو: «لا للتمديد.. لا للتوريث.. كفاية» فقد أصبح مجردَ ستارٍ لتمرير إصلاح ليبرالي جديد يوطِّد سلطةَ رأس المال الكبير المُرتبط بالاستعمار في محاولةٍ لمنع زعزعة هذه السلطة. ذلك أنَّ الدعوة إلى الإصلاح قد خَلَتْ من أية مطالب أو إشارةٍ حقيقيةٍ إلى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية الضرورية والعاجلة للطبقات الشعبية، وهو ما يَجْعل الإصلاحَ قاصرًا على تداول الحكم لتفعيل السياسيات الحالية للدولة. وقد حَسِبَ مَنْ صاغوا تلك الوثائق، وخاصة اليساريون، أنّهم تخلَّصوا من هذا المنزلق الليبرالي الجديد بعبارة «إنهاء احتكار الثروة،» لكنّ هذه العبارة لا تعدو كونَها مجردَ إنشاءٍ لفظي لا يَحْمل أيَّ مدلول عملي، وهي تذكِّرنا ــ مع



«كفاية» اختزلت «الإصلاح» بالحريات وتداول الحكم!

اقترانها بعبارة أخرى في البيان عن «إنهاء احتكار السلطة» ـ بثنائية اقتسام السلطة والثروة في جنوب السودان ولدى متمرِّدي دارفور. فهل كفَّت اللغةُ العربيةُ عن تزويدنا بالكلمات المعبِّرة عمّا نتحدث عنه فنستدعي ـ دون فطنةٍ ـ نموذَج اتفاقية إنهاء الحرب الأهلية في جنوب السودان في معرض الدعوة إلى التغيير والإصلاح في مصر؟!

ولقد دعت حركة «كفاية» إلى «الإصلاح الشامل.» لكنّ ذلك الإصلاح الشامل الذي يَشْمل، بالتعريف، كلَّ القضايا الأساسية (الوطنية والقومية والسياسية والاقتصادية) قد اختُزِلَ في بيانات الحركة إلى قضيةِ الحريات وحدها وقضية تداولِ الحكم. أما الخروج ممّا سُمّي «الأزمة الطاحنة والشاملة» في مصر فقد اختُزِل إلى إصلاح سياسي يُنهي احتكارَ الحزب الحاكم للسلطة وحالةَ الطوارئ، ويَسْمح بالحريات العامة، وبانتخاب الرئيس مِنْ بين أكثر من مرشح. فهل هذه هي سِماتُ «الأزمة الطاحنة الشاملة»؟ لقد اختُزلتْ هذه الأزمةُ بأبعادها المختلفة في «ديكتاتورية الحكم،» ثم اختزلتْ هذه الديكتاتوريةُ ذاتُها في مجرد تداول الحكم من عدمه. وهذه هي مبادئُ الليبراليين الذين يقدِّسون اقتصادَ السوق وسلطةَ رأس المال. إنّها مبادئُ الليبراليين الجدد الذين تخلَّوْا عن قضايا الاستقلال الوطني، خلافًا لليبرالية الوطنية المصرية في ثورة ١٩١٩ ولشعارها الشهير «الاستقلال والدستور.»

أزمتنا مركّبة، فالتغيير مركّب!

إنّ الأزمة التي تعانيها بلادُنا وشعبُنا أزمةٌ مركّبةٌ تتضافر فيها علاقاتُ التبعية والخضوع السياسي والاقتصادي والعسكري للإمبريالية والصهيونية ونظام الحكم غير الديموقراطي الموالي للإمبريالية. وإذا لم يَسْتهدف برنامجُ التغيير مواجهةَ **كافة** الأسباب الأساسية للأزمة، واقتَصَرَ على مسألة حرية تداول الحكم، فإنّ نتيجتَه الممكنةَ والوحيدةَ هي صعودُ نخبةٍ ليبراليةٍ جديدةٍ إلى سدّة الحكم لتحقِّقَ للعدو الإمبريالي والصهيوني كلَّ ما يريده... ولكنْ بأشكال وأقنعة جديدة.

وفي كل الأحوال ينبغي ألاّ يغيب عن إدراكنا أنّ الرغبةَ العامةَ المتناميةَ في تغيير النظام السياسي القائم لا يواكبُها حتى الآن ـ أو لا يواكبُها بالقدر الملموس ـ تطوُّرُ الأسس اللازمة لإنجاز التحول الوطني الديموقراطي. وهذا يهدِّد بإجهاض حركة التغيير، إمّا من قِبل النظام القائم، أو من قِبل الإمبريالية عن طريق توظيفها لصالحها، أو كليْهما. إنّ لضعف أُسس التحول أسبابًا عديدة، لكنّ أحدَ أخطر تلك الأسباب هو غيابُ الحدِّ الأدنى المقبول لبرنامج وطني ديموقراطي للخروج من الأزمة الراهنة بكل مظاهرها مجتمعةً. ولا تمثِّل الشعاراتُ التعبويةُ مثل شعار «لا للتمديد ـ لا للتوريث ـ كفاية،» ولا حتى نجاحُ هذه الشعارات في جذب جماهير واسعة، ضمانةً لاستمرار الحركة، ما لم يكن ذلك ضمن برنامج وطني ديموقراطي واضح يتمّ نشرُه بين صفوف الشعب. لذلك فإنّ صياغة مثل ذلك البرنامج، وخلقَ آليّات تَدْفع الجماهيرَ الشعبيةَ إلى ساحة العمل السياسي من أجل التغيير، يجب أنْ يشكِّلا المهمةَ الأولى الآن.

القاهرة

أحمد عبد الرحمن

كاتب مصري.

مؤسسة عبد المحسن القطّان

(برنامج الثقافة والعلوم)

تُعلن عن

مسابقة الفنان الشاب للعام ٢٠٠٦

يعلن برنامج الثقافة والعلوم في مؤسسة عبد المحسن القطّان أنه ابتداءً من الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥ سيتم فتح باب المشاركة في مسابقة الفنان الشاب للعام ٢٠٠٦ في أيّ مجال من مجالات الفنون التشكيلية، بما في ذلك الرسم، والنحت، والتصوير الفوتوغرافي، والتركيب المتعدد الوسائط وغيرها. ويجب أن يكون المرشح من والدين أحدهما فلسطيني/ـة، وأن يكون عمره/ها ما بين ٢٢ و ٣٠ عامًا (ما بين مواليد ١٩٧٥/١/١ و ١٩٨٤/١٢/٣١)، وأن يلبي عددًا من المعايير المتعلقة بحجم الأعمال وتنوُّعها وأصالتها. وسيعطَى أفضل عشرة مرشحين يقع الاختيارُ عليهم من قِبل لجنة التحكيم للمشاركة في المرحلة النهائية للمسابقة فترةً تصل إلى ستة أشهر لإعداد أعمالهم وتقديمها إلى مسابقة في صيف ٢٠٠٦. وتحتفظ المؤسسة بحق نشر المشروعات المشاركة، سواء عن طريق إصدارها في كتاب خاص أو كتالوج أو غير ذلك. ويبلغ مجموع الجوائز المرصودة لهذه المسابقة ٢٢ ألف دولار.

تُرسل الوثائق التالية في المرحلة الأولى (مطبوعةً باللغة العربية):

١ ـ سيرة ذاتية مفصّلة، وصورة شخصية حديثة، وصورة عن بطاقة الهوية الشخصية أو جواز السفر.

٢ ـ ورقة لا تزيد عن ألفيْ كلمة يعبِّر فيها المرشّح/ـة عن مشروعه/ها الفني الذي ينوي/ تنوي تقديمَه إلى المسابقة، مع ذكر التكلفة المالية المتوقعة للمشروع، واضعًا/ـة هذا المشروع في سياقِ أعمالِ وخبراتِ المرشح/ـة السابقة ومشاريعه/ها المستقبلية.

٣ ـ رسائل من ٣ أفراد و/أو مؤسسات تشير إلى جدية المشارك/ـة في فترات دراسته/ها أو خبراته/ها الفنية السابقة.

٤ ـ نسخ واضحة عن أفضل خمسة أعمال للمتقدم/ـة، إما على صور أو شرائط فيديو أو قرص مدمج (CD ROM) وغيرها.

٥ ـ أيّ وثيقة أخرى يرى المشارك/ـة أنها ستساعد المؤسسة في اتخاذ قرارها

فترة الترشيح: تقبل المؤسسة الطلبات الأولية قبل تاريخ ٣١ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦، وتحدد لائحة المرشحين المقبولين للمشاركة في المسابقة قبل ٢٨ شباط (فبراير) ٢٠٠٦. تقدّم الأعمال للمسابقة في موعد أقصاه ١٥ آب (أغسطس) ٢٠٠٦، ويعلَنُ عن الفائزين في الحفل الختامي لبرنامج الثقافة والعلوم خلال خريف ٢٠٠٦.

كما يتضمن البرنامج مسابقةَ الكاتب الشاب للعام ٢٠٠٦ في مجالي الشعر والقصة القصيرة، ومنحةَ القطّان للموسيقى، ومنحًا في المسرح والفنون الاستعراضية في مجال الإنتاج والدراسة ودعم العروض، ومنحًا في مجال الإقامات الفنية، إضافةً إلى العمل على نشر عدد من الإصدارات في مجالي الفنون والأدب، ودعم نشاطات وفعاليات فنية وثقافية مختلفة.

ملاحظة هامة: لا يحق لمن سبق وأن فاز بالجائزة الأولى في مسابقة الفنان الشاب ٢٠٠٤ التقدُّمُ للمشاركة في هذه المسابقة. كما لا يحق للفائز الأول في أيّ حقل من حقول البرنامج الأخرى التقدم للمشاركة في الحقل الذي حصل فيه على المنحة أو الجائزة في الدورة اللاحقة لتلك التي فاز بها بالمنحة أو الجائزة.

للمشاركة والاستفسار، الرجاء الكتابة إلى:

محمود أبو هشهش- مدير برنامج الثقافة والعلوم

mahmoud@qattanfoundation.org

أو العنوان البريدي التالي:

A.M. Qattan Foundation, 5 Princess Gate, London SW7 1QJ, UK

CSP@uk.qattanfoundation.org

لمزيد من المعلومات الرجاء زيارة موقع المؤسسة: www.qattanfoundation.org/csp



مؤسسة عبد المحسن القطان في دعم التربية والثقافة في فلسطين والعالم العربي

مُربَّع نور

مارك حداد*

المثليون حملوا علمهم وشاركوا في مظاهرة المتحف

شارك عشرةُ مثليين في المظاهرة التي انطلقتْ من منطقة المتحف حاملين علمهم العالمي: علمَ قوس قزح. وهذه هي المرة الاولى التي يشارك المثليون في بيروت بحدث كهذا، معلنين هويتهم أمام الملإ. احدهم قال في حديث مع النهار، «نحن احرار» ولم يوافق على الحديث إلا بعد الموافقة بأن لا يُنعتوا بالمنحرفين.

ـ لماذا تشاركون اليوم في هذه المظاهرة؟

ـ نحن نرفض الحربَ وكلَّ أنواع العنف، ولا نؤيد الديكتاتوريات.

ـ الا تخافون من أن يتعرّض لكم أحد؟

ـ كلا، فنحن لنا الحقُّ في الوجود وعيشِ هويتنا مثل الجميع.

النهار، ١٦ آذار ٢٠٠٣، الصفحة ٤.

ـ ١ ـ

ينيرُ ضوءُ الشمسِ الغرفةَ الصغيرةَ في أحد أبنية بيروت القديمة، ويَرْسم مربَّعًا من نور على أرضها. يجلس الستةُ من حولِه، ويبقى كرسيٌّ سابعٌ في انتظار المجهول. ينساب النسيمُ بينهم مُحَمَّلاً برائحة الياسمينة التي احتضنت النافذة، ويخيِّم الصمتُ المريضُ عليهم، كالصمت في غرفِ انتظارِ المستشفيات.

فجأةً... يدخلُ طيرٌ صغير. يَجْفلون، وتَشْخص عيونُهم صوبه بخوفٍ وعدائية. يتبادلون نظرات الاستفسار السريعة. لكنّهم يكتشفون أنه مجرد طائر، لا يهدّدهم وجودُه. تهدأ أنفاسهم. يبتسم ياسر الذي التصق بالحائط المواجِه للنافذة حين دخل الطير. يقترب منه بحبّ، ويَرْكع على ركبته مادّاً يدَه صوبَه.

يراقبونهما.

يغرِّد العصفور مرتين ويقفز مرتين، ويغادر على عجل. يَنْهض ياسر لاحقًا به صوب النافذة بلهفة، ويَشْهق بصوت خفيف كأنه يقول له «لا تتركْني هنا وحيدًا. خذني معك!»

يسود السكونُ مجددًا.

كاد هذا اليوم أن يكون عاديّاً، وكادت تلك المظاهرة أن تمرّ بسلام. كاد مربَّعُ النُّور على أرض الغرفة الصغيرة أن يغادرها طبيعيّاً، معلنًا غيابَ شمسٍ آخرَ. ولكنّ رمل الزمن توقّفَ عن الانزلاق وتعلّقت حُبَيْباتُه في الفضاء. أصبحت الثواني دقائقَ، والدقائقُ ساعاتٍ، والانتظارُ ـ كالخشب ـ يزيد نارَ القلق الذي يوسّخ هبابُه وجوهَهم بألوانٍ رماديةٍ شاحبة.

تبتعد زقزقةُ عصافير المدينة هامسةً بالأمل.

ـ مِش رَح يخْلَص هَا النّهار عَ خَير...

يَهْمس مارك في أُذن سنا بكلماتٍ ترتعش، فتشدّ على يده مشجِّعةً، فتنتقل إليه كهاربُ خوفها السريّ. يدقُّ قلبه أسرعَ، ويحسّ بحرارةٍ شريرةٍ ترتفع من صدره إلى وجهه وأذنيْه. يُفلِت يدَه من قبضتها التي بدأتْ تُوجِعه من ضغطها المتزايد. يضع رجليْه على الكرسي، ويحتضن ركبتيْه، ويَخْفض رأسَه بينهما.

---

* ـ كاتب شابٌّ من لبنان. وهو اسمٌ مستعار. (الآداب)

منذ سنتين اختلطتْ أفكارُ مارك بأزرقِ الحبر وأبيضِ الورق ورائحةِ الكتب، فكَتَبَ عشراتِ القصص القصيرة التي التصقتْ بحلم المثات ورَوَتْ معاناتَهم وفرحَهم. كتب كلَّ الحبِ الذي لم يستطع يومًا أن يَبُوح به لأيٍّ كان. كَتَب ليُفْرِغ كلَّ الحقد والقهر على الورق.

تستعيد سنا رباطةَ جأشها. تأخذ نَفَسًا عميقًا. تمدّ يدَها ببطء نحوه وهي تميل بجسدها لتحتضنه. تمرِّر أصابعَها بين خصلات شعره الطويل الأسود الفاحم وتداعبه بحنان.

ـ ما تْخَفِش.. وفَكِّرْ إنُّو إذا إحْنَا صَرِلْنَا إشِي، في غيرنا راح يِقْدَر يعيش أحسَنْ وبكرامة أكثر.

تحرِّر جملةُ سنا هذه دمعةً حاول مارك اعتقالَها لدقائق، فتفرّ من سجنِ مقلته مُشْبَعةً بالخوف على أهله من هول الفضيحة وخيبة الأمل. يفكِّر:

سينام العارُ على سريري ويَرْتع في زوايا منزلٍ طَردني منه. سيتحكَّم بأهلي ويُجْبِرهم على كرهي. يجب على أهلي أن يقاتلوه، وبشراسة؛ فحربُهم ليست سهلة، ولن تكون ضدَّ ما آمنوا به منذ أجيالٍ فحسب، بل ضدَّ مجتمع برُمَّته.

ماذا سيحصل لي إذا دخلتُ السجن؟ كيف سأُكْمل حياتي بعد خروجي؟ هل سأتحمَّل كل هذا؟ لماذا شاركتُ في تلك المظاهرة السخيفة؟ ولكنْ إذا لم أكن أنا مِنَ بين البادئين، فمن سيكون؟!

يَمْسح مارك دموعَه. يعدِّل جلستَه. ينظر في عينيْ سنا ويَهْمس كي لا يشوِّش سكونَ الغرفة:

ـ قَوْلِكْ، إذا بقينا هون، وتركناهم يكمشونا، رح نقْدر نغيِّر شي؟

ـ وَلَكْ أكيد، حبيبي. إحنا ما عْمِلْنَاش إشِي غَلَطْ...إحنا وقفنا مثلنا مثل الكُلّ ضدّ الحرب على العراق. ما إلْهُمْش الحق إنو يِمِسْكونا.. طمِّنْ بَالك يا خُوي.

ـ بس نحن كنا حاملين عَلَم قوس قزح.

ـ قوس قزح ولاّ غيرو يا خوي.. فكْرَكْ راح يعِرفوا شو مِعْناتها هالألوان؟ طمِّنْ بالك، بيقدَروش يعمَلوا إشي ماعانا.

يبتسم لها مارك نصفَ ابتسامة. يذكِّرُهُ تطمينُها له بأمّه. يستدرك فجأةً أنّ أمه وحيدةٌ في المنزل؛ فوالده يعمل ليلاً وإخوته في بيروت. يَصْرخ وهو يَنْظر صوب سلمان:

ـ لازم دقّ لنادية لتكون حدّ إمِّي، إذا أنا صَرْلي شي.

يعطيه سلمان الخَلَوي بنخوةِ أهالي الجبل ويمازحه علَّه يَنْجح في سرقة ابتسامةٍ من شفتيه:

ـ عاملِتلِك سَنترَليسْت أنا؟! خِدِي إحكِي. اليوم ببلاش، بُكْرا بمصاري.

ـ ٢ ـ

يغيب الأبُ عن حياة ابنه سلمان وتستشرس الأم في حماية ولدها، ناقلةً إيّاه من ملجإ إلى آخر، ومن قريةٍ إلى أخرى. تُشَلِّع الحربُ استقرارَه، وترميه جثةً هشَّةً على حدود الجاه. يلملم أشلاءَه بعد الحرب ويَجْمعها، محاولاً بناءَ شخصية مستقلة عن كلِّ ما آمن به أهلُه. فيغدو كريمًا كثيرَ المزاح والابتسام، لكنّه معرَّضٌ لنوباتِ قلق تُتَرجَم سكوتًا مفاجئًا، فيَشْرد مفكِّرًا في عبثية الحياة والموت ومعنى الإنسانية والظلم. وحين يشعر بأنّ هناك مَنْ يراقبه، يبتسم، ثم يضحك بهستيرية ويخبرك عن أكثر المواقف إحراجًا في تاريخ عائلته.

انضمّ سلمان إلى «المجموعة» منذ سنة، وأَقْنع الجميعَ بأنّ سببَ عمله في مجموعةٍ تناضل لتحرير المثليين في لبنان هو النشوةُ من هذه المغامرة المجنونة ـ وهو صاحبُ المغامرات الأكثر جنونًا. يبتسم سلمان بخبثٍ حين يصدِّق سامعوه أسبابَه الواهية. ثم تَشْرد أفكارُه بغضبٍ حزينٍ حين يتذكر تلك الليلة التي حفرتْ في ذاكرته قهرًا، وعلى وجهه ندبةً.

ـ خلّونا نربطّ هالمخنَّث بالسيّارة من ورا ونجرّوا بالشارع، بَلْكي بيتعلّم يصير رِجّال.

لم يصدِّقْ سلمان ما سمع. لم يستوعبْ أنّ شباب الحيّ، أصدقاءَ طفولته، يتحدّثون عنه. تختفي الابتسامةُ عن شفتيْه وتَجْمد يدُه التي كانت ممدودةً صوبَهم للسلام عليهم.

ـ يا شباب، شو القصة؟

ـ القصة، يا مَنْيَكْ، إنّو شافوك عم تِتْمِحِنْ على شباب بالأسيد[1] نهار السبت.

يَنْطق أحدُهم بهذه الجملة ويتقدم الثلاثةُ صوبه خطوتيْن. يتراجع سلمان خطوةً، ويَنْظر نحو إبراهيم متوسِّلاً؛ أوَليس هو صديقَه الأقرب؟

ـ إبراهيم...

يَصْرخ سلمان بذلك الاسم وهو مليء بالأمل.

ـ إكمشوه.

ـ إبراهيم...

يَصْرخ سلمان بذلك الاسم، ولكنْ هذه المرة لومًا وكرهًا. يَكْمشه اثنان منهم، ويُخرِج الثالثُ حبلاً من سيارته ويبدأ برميه حول عنق سلمان، الذي ينتفض صارخًا وضاربًا في محاولة يائسة للنجاة بحياته. لم يعد سلمان يتذكر مَنْ ضربه، ومَنْ شتمه، ومَنْ ربطه بالسيارة. كلُّ ما يتذكره هو الوجعُ في حنجرته مع كلِّ صرخةٍ يُطْلقها.

يلتمّ الدركُ على صوت الخناق ويقتادون الأربعةَ إلى مركز الشرطة.

ـ واحد لُوطي بدّو ذبح.

يَصْرخ إبراهيم موجِّهًا حديثَه إلى ضابط التحقيق، باصقًا على وجه سلمان، الذي تختلطُ دموعُه بالدمِ النازفِ من خدِه الأيسر.

يبتسم سلمان له باستهزاء. ويفكّر: أنا مثليّ... وإبراهيم شاذّ! فأنا أعيش مقتنعًا بما أنا عليه وفخور بمثليتي. لا أخاف من حالي، ولا أعاقِبُ الآخرَ على ما لم أُحسِنْ تقبُّلَه في نفسي، ولا أغار ممن يعيش في سلام. وأما إبراهيم... فشاذّ.

بعد يوميْن من الاستجواب تمّ إطلاقُ سراح الثلاثة، واستُبقِيَ سلمان لاستكمال التحقيق معه حول ميوله الجنسية ولعرضه على الطبيب الشرعي.

تحمّل سلمان كلَّ هذه الاستباحة بسكوتٍ مُرٍّ واستسلامٍ حارق. فقد فَقَدَ إيمانَه بكلّ شيء، ولم يعد يبالي بتعليقات رجالِ الشرطةِ والمساجين.

في الليلةِ الأخيرةِ لاعتقاله اقترب منه أحدُ المساجين في عتم الزنزانة وكَمَشَ عضوَه وخصيتيْه، هامسًا في أذنه وهو يَلْحسها:

ـ أنا رَحْ عَلْمَكْ كيف بيستعملوا الاير...

واغتصبه.

ـ ٣ ـ

يَطْلب مارك رقمَ نادية بحركات مضطربة ويصلّي أن تردّ. يرنّ الهاتف. توت... توت... توت... توت... لا جواب. يلعن أُختَ الهاتف، وتلفُّه عباءةُ الخوف السوداء. يعيد طلبَ رقم نادية بارتباك وعنف. توت... توت...

ـ ألو.

---

١ ـ Acid: مَرْبع ليلي للمثليين جنسيًا في منطقة سنّ الفيل.

ـ آلو نادية... بشكر الربّ إنُّو لقيتِكْ.

ـ تُقبر قلبي إنْ شاالله.. شو باكْ؟

ـ نْزلي لعنّا عالبيت، وخلّيكي حَدّ الماما.

ـ مارك، وينك؟ شو في؟ شغلتلي بالي!

ـ ما فيِّي إحكي. يمكن الخطّ مراقَب..... باي.

ـ مارك!

ـ نادية، عَمْ وصّيكي بإمِّي، أُوعا تتركيا وَحْدا...أُوعا تخلّيها تبكي. باي.

يُقفل مارك الخط وينخرط في بكاءٍ حارّ من غير صوت. يَرْكع ياسر أمامه، ويُمْسك صدغيْه براحتيْه وهو يتنهنه:

ـ پليز حبيبي، ما تبكي. پليز حبيبي خلص. كِرْمالي پليز.

ـ خلّونا نفِلّ، يقول مارك.

يردّ سلمان:

ـ ولِك على شو خايفانة؟ ما الحبس للرجال... بلكي بتطلعيلِكْ بُكرا بشي واحد.

ـ أنا مش جابِرْ حدا يضلّ، بس أنا مش فالِلْ، يقول عامر بوقاره المعهود.

ـ كُلّياتنا راح نضلّ هون، منتركش هالغُرْفة.

تهدأ أعصابُ مارك قليلاً ويعود إلى ذكرياته، فيتخيل أمّه وهي تغني له «ضاع شادي،» ويتذكر رحلتَه مع نادية.

نادية، البنتُ الريفية البسيطة، بنتُ قريته التي أحبّتْه من دون مقابل. أحبّته بصمت وعن بعد. حافظتْ على مسافةٍ تكفيها لتسانده وتحِسَّ بجسده، من دون أن تُشعِرَه بالاختناق من وجودها. أحبّتْه بالرغم من هربه الذي بدأ عندما عَرف بعشقها له. عَرفتْ نادية كيف تقدِّر الإنسانَ داخل مارك، بالرغم من جفائه وغموضه. فكانت تربِّت على كتفه قائلة:

ـ مارك، إنتَ إنسان منيح.

نادية تلك الفتاة التي صدَمَها اعترافُه لها بأنه مثليّ، فعضّتْ على الجرح بصمت، وسالت دموعُها على حلمٍ تحطّم بصمت، وحاولت النومَ معه علّه يستقيم، ودَفَنَتْ أملاً مات بصمت.

نادية تناستْ ألمها ووقفتْ مصمِّمَةً على تقبّلِ مَنْ تحبّ كما هو، وعلى فَهْمِ تلك الشخصية التي طالما أثارتْ حشريتَها. هنا بدأتْ تتقبل اختلافَها وتَفْهم جسدَها.

نادية كَسَرَتْ جدرانَ التقاليد التي سَوّرَتْ حياتَها بالعيبِ والممنوع، لتكتشفَ جسدَها الذي كان غريبًا عنها ومزنَّرًا بالعورات والمحرَّمات. وقفتْ أمام المرآة عاريةً. أزاحت يدَها اليسرى عن نهديْها الصغيرين بتردد، ويدَها اليمنى عن فرجها بخجل. وقفتْ أمام المرآة لتكتشف كم هي جميلة. لقد علّمها مارك، بتقبُّله لمثليته، كيف تحبّ نفسَها وكيف تقتل خَجَلَها من كونها أنثى، وكيف تَسْبح من قعر الدونية صوب السطح ـ صوب النور والهواء. عَلّمَها كيف تُحِبّ وتُحَبّ.

نادية، المحامية، ساندتْ حلمَ المثليين في لبنان، ودافعتْ عن حقوقهم في المحاكم وفي دراستها وكتابتها. فقد رأت أنّ تحرُّرَ المثليين وتحرُّرَ المرأة لن يتمّا من غير تحرير العقلية اللبنانية من المفاهيم المخجلة، كجرائم الشرف ومفهوم العيب وغيرها. وعَرفتْ أنّ حربها ستكون ضاريةً وموجعة في مجتمع لم يكفّ سوسُ الذكورية المريضة عن نخر عظامه، فكتبتْ تقول: «لا حريةَ للمثليين منفصلةً عن حريّة المرأة، ولا حريةَ للمرأة بعيدةً عن حرِّية المثليين.»

ـ ٤ ـ

يَسُود الصمتُ الثقيلُ مجددًا، كالصمت بين نهايةِ المجزرة والصرخةِ الأولى للناجي الوحيد. تبكي أوراقُ الياسمينة حين يصفعها النسيمُ، ممزِّقًا قشرةَ الأمان التي التحف بها الستةُ. يزحف مربّعُ النور على أرض الغرفة الصغيرة بعيدًا عن النافذة. ينزلق صوتُ أحدهم يغنّي متحدّيًا ساديّةَ السكون: «لو لاقاكم حبيبي سلّمولي عليه / طمّنوني الأسمراني عاملة إيه الغربة فيه...»

يتمايل ياسر، أصغرُهم، وهو يغنّي، بحركاتِ رقصٍ شرقيةٍ محترفة. يغنّي بعذوبةٍ وفرح. ويجرّه الحنينُ إلى ماضٍ سحيق، إلى ثماني سنوات خلت. يكلّم نفسه:

لا أريد أن أكبر. أريد أن أعود طفلاً، وأن أصْغر يومًا مع بدايةِ كلّ يوم. يختفي الشعرُ عن وجهي. يعود شعري أشقر. أعود عفويًّا لا أُحاسَب. أعودُ أقصر. يَحْضنني كمال الناطور. الحبّ كلّ الحبّ. أنزلُ إلى البيت. يعود إلى مصر...

ـ ٥ ـ

يتوقف جورج عن المشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة الصغيرة، وينْظر إلى ضحكة ياسر وعينيه المغمضتيْن، فتمرّ صُوَرُ حسين أمامه.

«كل شيءٍ جميلٍ يذكّرني بحسين،» يقول جورج لنفسه. ويسهو نظرُه صوب النافذة، والسيجارةُ في يده لا تُطفأ.

يسكت ياسر قليلاً وتَشْرد أفكارُه. يَقْطع سكوتُ ياسر حبلَ أفكارِ جورج، فينظر صوبه ليراه يداعب بسبّابته شفتيْه لتتّسعَ ابتسامتُه رويدًا رويدًا.

«ماذا يفكر يا ترى؟» يسأل جورج نفسَه فرحًا بابتسامة ياسر.

يعود ياسر إلى الغناء بصوتٍ أعلى، وإلى الرقص بشكلٍ أعنف. يصرخ مارك بهستيرية، والزبدُ يتطاير من فمه:

ـ إنّو مِنْ كِلْ عَقْلَكْ عَمْ ترقص وتغنّي؟ شو بلا إحساس؟ مش حاسِسْ إنّو أعصابنا اهترت؟ خلِّصْنا بَقا!

ـ مارك رُوقْ، يَنْهره عامر بصوته الوقور.

ـ ما بدي روق.. ما عاد فيّي إتحمّل.. خلّيهم يجوا ويخلّصونا!

ـ روق، يصرخ عامر بمارك، بحزمٍ أكبر وصوتٍ أعلى.

ـ ولْكُم، شويّ شويّ على الولد، إيش مالكُم؟ تصرخ سنا. تحتضن مارك، فيرتجف بين أحضانها. تنظر إلى ياسر الذي انكمش على الحائط المواجِه للنافذة كأنّها تَطْلب منه المغفرةَ لمارك. فيهزّ لها رأسَه مسامِحًا. يلتصق مربّعُ النور بالحائط عند أقدام ياسر. صمتٌ آخر.

تُقبّل سنا شعرَ مارك الطويل. يَحُوك الغضبُ جدائلَ أعصابها فتشدّ أسنانَها بعضَها على بعض. تتذكّر:

قصصتُ ارتباطي بالعادات والتقاليد حين قصصتُ شعري. كان ذلك في أيلول الماضي.

كم أكره أيلول. لا أذكر مرّةً مرّ فيها أيلولُ مسالمًا، حتى من قَبْلِ ولادتي التي جاءت في ذلك الشهر نفسه. يومَها لَطَمتْ أمي وجهَها وصَرَختْ بالقابلة ونساءِ مخيّم صبرا، حتى قبل خروج خلاصي:

ـ يا ويلي، أُجْتُلوها، طُمُّوها، وَدْروها. ما تخلُّوش أبو محمّد يدْري إنّو خَلْفي بنات... عم بَأْلْكُم ودْروها ليش عم تعطوني ياها؟ ودروها. بدِّيش أنْظُرها.

أسمعُ تلك القصةَ مرارًا وتكرارًا حين تتندّر زائراتُ منزلنا بها، فأهْرب الى المقابر القريبة خوفًا من أمي، وأدرِّب نفسي على أن أكون أقوى منها إذا هي حاولتْ قتلي. لعلها ستسمّم أكلي، أو تذبحني كما ذُبح أخي الوحيدُ في أيلول ١٩٨٢ خلال مجازر صبرا وشاتيلا أمام عينيها. ومن يومها فُرِضَ عليّ أن أكون الذَّكَرَ البديلَ.

تغزوني هذه المخاوفُ مع بدايةِ كلّ أيلول، مع بداية البرد ومشاكل المطر المتسلِّل من شقوق حائط منزلنا، مع بدايةِ همِّ المدرسة، وثِقَلِ اختفاء الضوء السريع في عزّ النهار. ويكثر الحديثُ عن أحداث الأردن عامَ ١٩٧٠ والهجرةِ على الأقدام إلى لبنان.

في أيلول تخنقني ثيابي السوداءُ في ذكرى استشهاد أخي، ويَكْبر خوفي من أمي.

يأتي عيدُ مولدي الذي يمرّ حزينًا كلَّ عام، وأمي لم تقتلني بعد.

في ذلك اليوم من أيلول، تَطْلب مني أمي أن أُبرز نفسي للعريس القادم من مخيَّم البدّاوي خصيِّصًا للتعرف إليَّ، بعد أن اقنعتْه خالتي المتزوجة هناك بأنه لن يجد عروسًا مطيعةً ومهذبةً مثلي. لم تجرؤ خالتي أن تقول له عني إنني جميلة أو ناعمة. تَغْمز لي أمي لأصفِّف شعري العبثيّ وأَلْبسَ ما يَليق بفتاةٍ في عمري، فأواجهها بكل الغضب التي أخفيتُه سنوات: «لماذا تريدونني أن أكون فتاةً الآن؟ هل تعبتم من كوني صبيَّ البيت؟»

يرنّ صوتُ أمي الغاضبُ في رأسي.

ـ سنا، أُسكُتي.

صوت أمي المذهول لا يُمَيَّز بين أصوات تكسير الأثاث والأواني.

ـ شو مالِك، ولِي سنا. عم تِتْخَوَتّي؟

تتفجّر موجةُ غضبي الدفين. أنا لم أُخرجْ آدم من الجنة. لماذا تريدني أمي الآن أن أكون المرأة؟ ينتشر الخوفُ في عقلي كالسرطان. أعْرف أنّني مختلفة، ولا أمتّ إلى مَنْ أعيش معهم بِصِلة. لن أسكتَ بعد اليوم!

يستمرّ طوفانُ غضبي مدمِّرًا في المنزل.

ـ إيش عم تِعملي ولِي... جَنَّيتي؟

أردّ على جملة أمي تلك برمي إناءٍ على مرآة الردهة فتنكسر. أَهربُ إلى الحمّام، حيث أستلّ مقصّاً وأجتزّ من رأسي كلَّ ما يعتقدونه جميلاً، وأُكمِل على ما تبقّى بشفرة. أجلس على أرض الحمّام فوق شعري، وأُزيح ما بقي منه عن وجهي بتعب. أَنْهض على مهلٍ لأغسل وجهي وأتأمله. أخرج الى الصالون وأمي تُرغي وتُزْبد. تراني. تَسْكت وتُصعق. لا تكلمني.

لن تزوِّجني الآن. عليها الانتظارُ على الأقل حتى يطولَ شعري مجددًا... شعري الذي أُبقيه قصيرًا بشفرة!

ـ ٦ ـ

تحتضن سنا مارك، فيرتجف بين أحضانها، ويشتاق إلى الحنان في حضن امه.

ـ لماذا تبكي كلّما احتضنتْكَ أمّك؟

تسألني نادية ببساطة، ونحن نأكل الدجاج عند «بربر.»

تنظر إليّ بهبل وتنتظر جوابي. لا أجاوبها. تَشْعر بالإحراج الذي سبّبتْه، فتغادر بهدوء. ولكنّ حياتي لا تعود ذاتَها؛ فقد كنتُ أعتقد أنّ كلّ الناس تحتضنهم والداتُهم فيبكون. ولكنّ سؤالها أشعرني بغرابةِ ما أُحسّ به تجاه أمي. توقفتُ عن السماح لأمي بعناقي بعد تلك الحادثة، وابتعدتُ عنها رويدًا رويدًا. استغربتْ تصرفاتي تلك وراحت تَنْظر إليّ بعيونٍ حزينةٍ كأنّها تسألني إنْ كنتُ لا أزال أحبّها وأحتاج إليها في حياتي.

أخجل. نعم أخجل. لذلك أبكي كلما احتضنتني.

أمي تحبّني. هي الوحيدة التي تحبّني من دون مقابل. لا تسأل لماذا لا أتصل أو لماذا لا أُفرغ لها وقتي كلّه. هي الوحيدة التي تَدْفعني عنها لأكبرَ وأصيرَ طبيبًا «قدّ الدني.»

يومَ فشلي في امتحان الدخول إلى الجامعة الأميركية في بيروت انهارت وهي تَلُومني على تخييبِ أملها: «واحد فاشل. صايع ضايع. لأ... الحق مش عليك، أنا الفاشلة!»

لم يؤلمني فشلي بقدْرِ ما آلمني ما سبّبتُه لها من ألم. يومَها، وقفتُ مكسورًا أمامها أقاوم ابتسامةً تكاد أن تَظْهر. غمرتني سعادةٌ عميقةٌ؛ فأنا أخاف من الدم ولا أحتمل رؤيةَ مريض.

عندما أخبرتُ أمي بأنّي دخلتُ كليّة الآداب، قسمَ الأدب العربي، زمّتْ شفتيْها بحقد ولم تكلّمني، بل حَبستْ نفسَها كلَّ النهار في غرفتها. لم تتغير كثيرًا معي من يومها، ولكنّي أصبحتُ أبكي كلّما احتضنتني؛ فأنا لا أحتمل أن تعاني أمي القهرَ نفسَه عندما تَعْلم أنّي مثليّ، فأقفَ أمامها مكسورًا أقاومُ الابتسام.

أتخيّلها الآن تنتظر رجوعي، محاولةً أن تُلْهي نفسَها بأعمال المنزل، علّها تنسى قلقَها الذي يَزْحف إليها مع كلّ دقيقة أتأخّرها. تَحْمل كتابًا لتقرأه وهي تتمدد على الكنبة؛ هكذا تفعل فاتن حمامة في فيلم «إمبرطورية ميم» وهي تنتظر ولدها، وحين يعود تكلّمه بكل رقيّ. لكنّ أمي تكره القراءةَ، فتضع الكتابَ جانبًا، وتُشْعل التلفاز. تقلّب قليلاً بين المحطّات وتفتّش عن فيلم مصريّ يسلّيها. تخرج إلى الشرفة، وهي تَفْرك يديْها بعصبية؛ فليس من عادتي التأخّرُ إلى هذا الوقت. تمدّ رقبتَها وتميل بجسدها القصير فوق حافة الشرفة لترى أولَ الشارع، علّها تسرق من فكّ الزمن لحظاتٍ من راحة البال. عبثًا.

تدخل إلى الصالون وتَرْكع أمام تمثال العذراء. تَحْمل مسبحتَها، وتصلّي الورديةَ بصوت مسموع: «أبانا الذي في السموات، فليتقدّسِ اسمُكَ وليأتِ ملكوتُكَ، ولتكنْ مشيئتُكَ كما في السماء كذلك على الأرض...» تكمل صلاتَها في نفسها.

يصلها خبرُ القبض عليّ. تنهار باكيةً بين يديْ نادية، غيرَ مصدِّقة. تَلْعن العارَ، وتَلْعن الزمنَ، وتَلْعنني. تبكي خوفًا عليّ، وخوفًا من مواجهة أبي وإخوتي بقصتي. تنظر صوب العذراء وهي تبكي وتلومها: «هيك بلي بيوصّيكي بولادوا؟»

فجأةً يسيطر عليها الغضبُ عندما تتخيّلني أُستباح على أيدي رجال، فتقوم منْ على الأرض وهي تعضّ اللحمَ بين رسغها وإبهامها كالمجانين، وتركض صوب صورةِ تخرُّجي وتَبْصق عليها: «ولَك تفه... تفه عليك يا بلا شرف.» ثم تَحْملها وتقرِّبها إلى صدرها، وتمسحها وترفعها إلى وجهها، وتقبّلها بغصةٍ باكية، وتقول بحنان: «واحد فاشل... صايع ضايع!»

ـ ٧ ـ

ـ ناولْني سيجارة.

يطلب عامر سيجارةً من جورج الذي لم يكفّ عن الذهاب والإياب على أرض الغرفة الصغيرة، والسيجارةُ في يده لا تطفأ.

ـ ولااااي ذَبحتوا عِنيّنا بهالدخّان.

يبدأ مربّعُ النورِ بتسلّق الحائط.

أَحَبَّ جورج فرحَ بيروت حتى الجنون، ورَفَضَ عشرات العروض للعمل في الخارج، ليكون قريبًا من بيروت في فترة نقاهتها، ولكي يَرْسم خطوطَها الجديدة، ماحيًا آثارَ الحرب عن واجهاتها.

حبُّه لبيروت لا يعادله إلاّ حبُّه لحسين.

يتذكّر جورج أولَ لقاء له بحسين منذ ثلاث عشرة سنة، حين كان جورج في الخامسة والعشرين وحسين لم يتجاوز العشرين من عمره. كان ذلك يومَ خرجتْ عينُ الرمّانة لملاقاة الشيّاح، بعد حربٍ ضروسٍ أبعدتِ الأهلَ والأصدقاءَ بعضَهم عن بعض أكثر من خمسة عشر

عامًا. في ذلك اليوم، في سوق الجمّال، في الشياح:

ـ ولِك هيدي إنتِ يا إمّ علي.... عطيني راسِكْ بوسو.

ـ يا شحّاري... إمّ جورج! ولك إيه إيه، هيدي أني.

ترتفع زلغوطةُ أمّ علي، في وسط السوق، وهي تقبّل أُمَّ جورج وتبكي.

ـ هيدا جورج يا إمّ علي.. بعدِكْ فايقتيلو؟ هيدا جورج.

تقرِّبني أمي من أمّ علي وهي تصرخ وتبكي: «هيدا جورج!» تُمْسك أُمُّ علي وجهي وتَمْسح دموعَها به وهي تقبّلني وتعدِّل حجابَها:

ـ لَوْ علي بعدو عايش كان صار بعمرك. يا تِقْبِرْني يا جورج، رضّعْتكم سوا.

ـ طوّلي بالك يا إمّ علي.. هالحرب كانت وسخة عَلْ الكل. علي وأبو جورج وخيّي ميشال هِنّي يلّي طِلْعِتْ براسهم. راحوا رخيص.

ـ هيدا حسين. قرِّبْ يا إمي، سَلِّمْ.

ـ يخزي العين! حسين هيك صار!؟ كِنِتْ بعدكْ بتعملها بتيابك لَمّا عِلْقِتِ الحرب!

ـ أنا جورج.

ـ حسين.

ـ تشرّفْنا.

ـ ونحن كمان.

يثير اسمُ جورج حشريةَ حسين؛ فهو لم يَعْتَدْ سماعَه. وتلفت انتباهَه سلسلةٌ ذهبيةٌ تدلّت من رقبةِ جورج، وتنتهي بصليبٍ يستقرّ على صدره. ترتجف يدُ حسين في يد جورج.

إنّه الأحد، الأول من كانون الأول. تنقطع طريقُ بيروت ـ الأرز بسبب تراكم الثلوج، فيضطرّ الاثنان إلى تقاسمِ غرفةٍ ذي سريرٍ واحد في أحد الشاليهات.

إنها الواحدة بعد منتصف الليل. يستيقظ جورج على صوت حسين يصارع لأخذ أنفاسه. أهي نوبةُ ربو؟!

يأخذ حسين دواءه من يد جورج، فيلْمس اهتمامًا زاد قليلاً عن اهتمام شابٍّ بأحد أصحابه. يستغرب حسين تصرُّفَ جورج. يضغط جورج على يد حسين مشجِّعًا، فتسري رعشةٌ غريبةٌ في يد الأول لتنتقل خجلاً إلى عيني الثاني.

في لحظات الصمت والرهبة تلك، يعود الاثنان إلى حقيقتهما، إلى مشاعرَ مقفَلٍ عليها في سراديبَ عميقةٍ داخلهما.

ثلاثَ عشرةَ سنةً مرّت برمشة عين. سكنا معًا، وسافرا معًا، وكبرا معًا.

يستفيق جورج من أحلامه ليتذكر أنّه ترك حسين في البيت وحيدًا، متذرِّعًا بزيارة أحد الأقارب، ليشارك في تلك المظاهرة التي باتتْ أوّلَ ظهورٍ علنيّ للمثليين في لبنان. لم يُخْبر جورج شريكَ حياته بانتمائه إلى تلك المجموعة تفاديًا لقلق حسين عليه، وخوفًا من تأزم حالة الربو لديه.

ـ آلو.

ـ جورج، حبيبي، وَيْنك؟ عملْتِلْك الپاستا وناطْرَكْ. ما تتأخّر. وليْك، جيبْ معك قنينة نبيذ لأنّو ما عادْ في عنّا. ودِقّ لمارك ذَكّرو بالعشا لأنّو أكيدْ بيكون ناسي. وكمان جيبْ معك....

ـ حسين، اسمعْني.

ـ شو!

ـ ضبّ اغراضَكْ وِطْلاعْ لعند أهلَكْ عالجنوب!

- ٨ -

يُشْعل عامر السيجارةَ ولا يغيِّر جلستَه؛ فهو ما زال على الكرسيِّ نفسِه يداعب شعرَ ذقنه الأبيض بأصابعَ ثلاث، ويراقب مربَّعَ النور الذي بدأ في تسلّق الحائط.

أَسَّسَ الطبيبُ النسائيّ عامر جابر هذه المجموعةَ التي تُدافع عن حقوق المثليين في لبنان منذ ثلاث سنوات، مع عدد من الشباب الذين ضاقوا ذرعًا بما يواجهه المثليون في لبنان.

في البدء ساعدتْه زوجتُه، وسائدَهُ ولداهُ؛ وجميعُهم يَعْرفون عن ميوله المثلية. وكان عامر يتندّر أمامهم قائلاً: «مجتمع المثليين في لبنان عاقر، عمرو ما رح يِحْبَلْ بالحرية.» ولكنّه مع الوقت اكتشف أنّ مجتمعه ليس عنِّينًا، وقد يَنْجح في إخصاب هذه الجمعية. صحيح أنّ هذا المجتمع ما زال مراهقًا، غير أنّه لم يعد يكتفي برعشات الحرية المسموحِ بها في النوادي الليلية والشواطئ والشوارعِ الخلفية لبيروت، بل إنّه مستعدٌّ إلى حدٍّ ما للمطالبة بحياةٍ أكثرَ إنسانيةٍ.

عملت المجموعةُ على نشر التوعية حول الأمراضِ المنقولةِ جنسيّاً ومرضِ السيدا، واكتسبتْ ثقةَ العديد من اللبنانيين وخاصةً المثليون الذين تكاتفوا حول تلك المجموعة.

ولكنّ تلك المظاهرة التي شارك فيها الستةُ، ممثِّلين مجتمعَ المثليين، ضد الحرب على العراق كانت خطوةً جريئةً عليهم تحمُّلُ عواقبها.

يَغْرق عامر في بحر فرضيّاته؛ فقد فَتَحتْ تلك الخطوةُ الجريئةُ أبوابًا على المجهول:

هل سيأتي الدركُ للقبض علينا مثلما أخبرني أحدُ رجال الشرطة المثليين، وهو يَخْدم في مخفر [...] بعد أن اتصل بي سرّاً؟ أمْ أنّ الدولة ستتغاضى عن هذا العمل الهزيل، كتغاضيها عن نوادي المثليين الليلية في بيروت؟ أيكون قرارُ بقائهم هنا، طعْمًا سهلاً لرجال الشرطة، قرارًا صائبًا؟ هل ستنتشر قصةُ القبض عليهم بين المثليين كالنار في الهشيم، فينتظمون عفويّاً في مظاهرةٍ ثانيةٍ للضغط على الدولة من أجل إطلاق سراحهم؟ هل ستعي الحكومةُ اللبنانية أنها تحرِّض على العنف ضد نسبةٍ من اللبنانيين قدَّرها البعضُ بـ ٢٣٪، عبر التسامح مع العنف الناجم عن رُهاب المثلية الجنسية؟ أوَيدري المشرِّعون أنّ إدانة الميول الجنسية المثلية، وإطلاقَ سراح المعتدين على المثليين من دون عقاب، ليسا إلا رخصةً شرعيةً للتعذيب؟ وهل ستتحرك منظمةُ العفو الدولية وجمعياتُ حقوق المثليين في العالم والمجتمعُ الدولي لنجدتهم، أمْ ستتغاضى هذه جميعُها عن خَرْقٍ آخرَ لحقوق الإنسان تعوَّدوا تكرارَه في لبنان؟

- ٩ -

تَقْطع حركةٌ مبهمةٌ أفكارَ عامر المتزاحمة.

يرتفع صوتٌ غريب أمام المبنى. يرفع عامر رأسَه، وتتسع عيناه رعبًا، ويدور نظرُه بين الخمسة مستفسرًا ومحاولاً التأكُّدَ من أنّ ما يسمعه ليس مِنْ نسج خياله وحده. يَسُود صمتُ المقابر من الجُحْرِ. تَطْرق خطواتٌ حذرةٌ بلاطَ الدرج. تضع سنا يدها على ركبة مارك وتشدّ كأنّها تشجِّع نفسَها، وتشرَئبُّ رقبتُها لتسمع بشكلٍ أوضح.

يَشْعر مارك بفرح غريب يداهمه: أَتُراه سيصبح «مخلِّصَ» المثليين، فيَفْتَح لهم بابَ النور، ويقول لهم: «احملوا صلبانَكم واتبعوني،» مفتخرًا بالمجد الذيّ ستصنعه نقاطُ الدم من إكليل الشوك الذي وضعه المجتمعُ على رأسه؟

يقف جورج في وسط الغرفة ويدير رأسَه صوب الباب، والسيجارةُ في يده تشتعل رعبًا. يَهْمس سلمان من دون أن يبتسم.

ـ شكلُنْ وِصْلوا. زلغطوا!

تزيد سنا من احتضان ياسر، الذي يكابر على نفسه كي لا يبكي، فتبكي سنا. يمرّ شريطُ صورٍ سريعٌ في رأس ياسر:

لقد كبرتُ، وكان عليّ أن أغدو رجلاً. لكنّ أنوثتي كبرتْ معي. رَفَضَ صوتي العبورَ إلى عالم الرجال. يصفعني أبي على وجهي:

ـ بدك يقولوا عن إبني خنثي؟

ويأتي ذلك اليوم. يضع أبي المسدسَ في رأسي:

ـ اعطيني رقمو لأخو الشرموطة يلّي كِنْت عَمْ تِحْكي معو، أو بقَوْصَكْ وبِخْلَصْ منّك ومن وسخك!

أحاول التملّصَ من قبضةِ أبي الحديدية على شعري. يرميني أرضًا ويركلني. أَنْظر بحنانٍ صوب الأرض التي تبتعد عني مسافةَ ثلاثةِ طوابق.

ـ مش رح خلّيكن تقتلوني. أنا رح زِتْ حالي.

ـ ياسر، كَبِّرْ عَقْلَكْ، نزالْ. ما عنّا غيرك، نزالْ.

ـ حلّي عني. لو كنتِ أمي عن جَدّ، ما كِنتْ خلّيْتيه يَعْمِلْ فيِّ هيك.

صفرة طويلة.

ـ شو يا قَشْطة. بتنتاك؟

ألتفتُ صوبَ ذلك الشابّ في شارع الحمرا، وأبْصقُ على وجهه. أتلقّى لكمةً على معدتي. أتقيّأ. يهرب.

ـ ياسر، اسمعْني. بحبك، وكلّ شي، بس ما فيّ يشوفوني العالم معك. شو بيقولوا عني؟

يُكتَب لي أن أرْقصَ مرتين.

يرتفع صوتُ التصفيق الحادّ، ليصمّ الآذانَ في أرجاء المسرح الكبير. الأرض لا تسعني. يرشقون الورودَ عند أقدامي، ويطالبون بالمزيد. أنتشي، وأرقصُ لهم كما لم أرقصْ من قبل.

ـ ١٠ ـ

يعلو صوتُ حوارٍ هامسٍ أمام باب الغرفة الصغيرة. يَنْظر سلمان إلى مربّع النور الذي صُلِبَ على الحائط، ويَغْرق في تأملٍ كأنّه يصلّي للضوء.

يُطْرَق البابُ بدقاتٍ محمومة. صوتُ مَلاكِ الموت يأمرهم بالخروج. يتململون.

فجأةً يُخلَع الباب، ويَدْخل عشرةٌ من رجال الشرطة إلى الغرفة الصغيرة شاهرين مدافعَهم الرشّاشةَ في وجوه الستة. تقف سنا لتحمي مارك وياسر، فتتلقّى الضربةَ الأولى من كعب بندقية أحدهم على وجهها، فتقع أرضًا، لينهال عليها ثلاثةُ رجالٍ بالركل والشتائم. يصرخ ياسر ويقفز صوب النافذة. يمسك به أحدُهم من رقبته:

ـ حاج تصرّخْ أحسن ما قَوْصَكْ، وإخْلص منّك ومنْ وسخك.

يُفْلت ياسر من قبضته ويقفز من النافذة، لاحقًا بمربّعِ النور الذي غادر الغرفةَ الصغيرة. يسود الظلامُ.

أصْدر قاضي التحقيق في بيروت قرارًا ظنياً بحقّ كلٍّ من الطبيب عامر ج. (٤٤ عامًا) والمهندس جورج ف. (٣٨ عامًا) ومارك ح. (٢٧ عامًا) وسلمان أ.ش. (٢٥ عامًا) وسنا أ. من التابعية الفلسطينية (٢٤ عامًا)، وذلك لإقدامهم في تاريخ كذا وكذا على ممارسة اللواط والدعارة. كما لَقِي المدعوُّ ياسر ك. (١٨ عامًا) حتفَه حين رمى نفسَه من الطابق الثالث منتحرًا خلال عملية المداهمة. هذا وقد طلب قاضي التحقيق إنزالَ عقوبة الحبس لمدة سنة لكلٍّ منهم، وذلك عملاً بالمادة ٥٣٤ من قانون العقوبات اللبناني.

يستفيق سلمان من تخيُّله لنهايتهم على صوتِ الطرقةِ الأخيرة على الباب.

ـ رحْ إفتحْ... إنتبهوا.

يقول عامر وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ويَنْهض ليفتح الباب. يَفْتح الباب. تقف امرأةٌ أربعينيةٌ تحمل ولدًا على يدها، وتُمْسك بآخر. تُطلّ من خلفها وجوهُ أربع بنات تتراوح أعمارُهنّ بين الحادية عشرة والعشرين. تضع الفتياتُ مناديلَ بيضاء لا تُظْهر إلاّ عيونَهنّ الكحيلة. تتزاحم الفتياتُ الأربع وهنّ ينظرن إلى الداخل. يتهامسن ويضحكن ويتزاحمن لرؤية الرعب في عيون الستة من خلف أمّهنّ. تعدّل المرأةُ الأربعينية منديلَها الأبيضَ الذي يخفي رأسَها ونصفَ وجهها:

ـ قِلِّي، كَسَنَدِي، بيت أبو قاسم عبد الباقي بأيّ طابق؟

ـ عَلّ الأول.

ـ يسلِّم ديِّاتكْ.

يبتسم الطفلُ ذو العينيْن الزرقاويْن لعامر، ويمدّ يديْه صوبه كأنه يريد مغادرةَ حضن أمه لكي يَحْمِلَه عامر.

يُغْلق عامر الباب.

ـ قوموا روحوا ع بيوتكن. ما عاد إلها مَعْنى نضَلّنا هوْن.

ـ قَوْلَكْ مِشْ رَحْ يجوا؟

ـ عل القليلة مش اليوم.

بيروت

في العدد القادم:

- ملف: الشباب والسياسة (١): المغرب
- قصص: فدوى القاسم، ايّاد البرغوثي...
- قصائد: ميلود لقاح، محسن أخريف،...

يوميّاتٌ عَجْلى لعاشقٍ منفيّ

أحمد علُبي


تصوير: عادل عيتاني

ولد الدكتور أحمد علُبي في بيروت عام ١٩٣٦. من كُتُبه: ثورة الزّنج وقائدها عليّ بن محمد (١٩٦١)، الإسلام والمنهج التاريخي (١٩٧٥)، ثورة العبيد في الإسلام (١٩٨٥). وله في الحقل الأدبي: تحت وسادتي، مقالات واعترافات وذكريات (١٩٨٦)، في حنايا الوطن الملهم، نزهات وحكايات (٢٠٠١)؛ كما صدر له كتاب يوميات مجنون ليلى (٢٠٠٣)، وهو معالجة عصرية للسيرة الغرامية الشهيرة. وله كتابان عن طه حسين: طه حسين، رجل وفكر وعصر (١٩٨٥)، طه حسين، سيرة مكافح عنيد (١٩٩٠). عمل أستاذًا للأدب العربي الحديث ولمنهجية البحث في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية. كما شارك في التأليف لدى المركز التربوي للبحوث والإنماء.

١ ـ الشاهد الصامت (الأحد ٤ تموز ٢٠٠٤)

تحضنُني الجبالُ الحانيات، لكنّ حِضنَكِ أَحَنُّ عليّ، يا سُليمى. هذي الجبال، بسلاسلها المتراميات المتقاطعات، كانت جنّتي وولوعي؛ فغدت، الآن، جنّتي ومنفاي! أتأمّلها، صباحًا ومساءً، هذي الجبال التي تمتدّ شامخةً من البيدر إلى الدير، قصدتُ من «ضهر البيدر» إلى «دير القمر» ـ وهل للبيدر ضهر يستند إليه، وهل للقمر دير يأوي إليه؟

بيْد أنّ الطبيعة، على روعتها وجلالها، تتلقّاكَ، تضمّكَ بين حناياها، تُصغي لنشيجك الغائر، تشنّف قلبَكَ وأُذنيْكَ بأعذب الخرير والألحان. لكنّها شاهدٌ يَسْتعصم بالصمت؛ لكانّه صمتُ الأديرة، حيث يخيّم الهدوءُ المريب في كلّ زاوية، وحيث تنبعث من الجدران، الراشحةِ بالخشوع، عتاقةُ الزمان. الطبيعة شاهد يَزُمُّ شفتيه صامتًا، حياديًا.

٢ ـ فيضان النعمة (الاثنين ٥ تموز)

مشتاقٌ أنا، في منفايَ السعيد، لبُحّة صوتِكِ، لأناملك التي لا تَملُّ الداعبةَ ومعاودتَها والجريَ على باطن كفّي لسًا ونقرًا، لكأنّها كتابةٌ مسمارية تتقنينها وتُغرمين بها. مجْبورٌ أنا في حياتي، ولربّما أنا موضعُ حسدٍ وغيرة. فلا أرتاب في أنّ كثيرين تطلّعوا، ولو لنوالِ نظرةٍ حانيةٍ من نبع ناظريْكِ؛ ولكنّهم آبوا محمَّلين بالخيبة والحسرة. فكيف لا أَسْتشعر، مغتبطًا، أنّ القَدَر، إذ منحني حبّكِ، فقد أفاض عليّ نعمةً لا حدود لفيضانها.

وقد تقولين لي عاتبةً: أتقول: منفاك السعيد؟! لئن قلتُ غيرَ هذا لقد وقعتُ في الكَذِب والمراوغة. فالجبل، حيث أصطاف، هو جنّة أَقرُّ دائمًا بفضلها عليّ. فأشهُرُ الصيف مرهِقة في بيروت، تستحيل معها القراءةُ والكتابة. وأنا لم أُحبب يومًا كلَّ ما هو اصطناعيّ، سواء أكان زهرةً أَمْ عاطفةً أَمْ هواءً. أمّا في ربوع جبلنا، فهناك النسيمُ بلطافته، والمناظرُ الطبيعيّة بروعتها؛ وهناك هذه الفرصة المتاحة لأنْ أبثّكِ أشواقَ عاشقٍ منفيّ!

٣ ـ داءٌ لا شفاء منه (الثلاثاء ٦ تموز)

أكتب إليكِ، الآن، يا سُليمى، وبائعٌ ينادي على بِضاعته. هو آتٍ وقد حَمَّلَ «ڤانه» القادمَ من «البقاع» أو من إحدى القرى المنتثرة هنا وهناك، في حنايا جبلنا المعطاء؛ حمّله بخيرات لا أَلَذّ منها طعمًا ولا أطيب فَوحًا: خوخ أحمر، يذوب في الفم؛ درّاق نَضِر، حلو المذاق؛ بندورة جبليّة، كبيرة الحجم، والتهامُها هوايتي الدائمة؛ بصل أبيض، حلو الطعم، صغير الحجم مستطيله، كأصابع البوبو...

وقد تقولين لي عاتبةً: حنانَيْكَ، يا حبيبي، وهل صارت هذه الخيرات تشغَلُكَ عنّي، فتغرق في وصفها وكأنّها موضعُ شَغَفِكَ، ومحطُّ غرامك، وسجلُّ غزلك؟ بتُّ في حَيْرةٍ من أمري، يا سُليمى؛ فأيّ كلامٍ إيجابيّ ودود، ينعقد حول امرأةٍ ما، يرميكِ في غِيْرةٍ واضطراب. ثمّ تهدئين وتعتذرين، لأنّ الطيبة أوطدُ عندكِ، وهي دائمًا غلاّبة، برغم عاصفة الغضب والحَنَق. فهل أصبحت الفواكهُ أيضًا، يا عزيزتي؛ هل أصبح البصلُ من «بْريحْ»، والبندورةُ من «رويسة البلّوط»، والدرّاقُ من «الفريديس»، والخَوخُ من «المشرفه»، وكلُّها طيّبةٌ وشهيّة، كما أعرف وتعرفين؛ هل أصبحوا غُرماءَ لكِ ومنافسين؟! حقًّا، الغيْرة صعبة، وعلاجُها أصعب، بل قُلْ: مستحيل.

٤ ـ رسالة بالألمانية (الأربعاء ٧ تموز)

أكتب إليكِ وعنكِ، دائمًا، قبل الظهر؛ عندما يكون البالُ صافيًا، وأكون قد شربتُ الماء البارد، وارتشفتُ القهوة الساخنة، وقلتُ

في نفسي: ما أجمل الحياة وما أرقّها! «ارتشفتُ» هذا الفعل يحلو لكِ، كما أخبرتني ضاحكةً؛ فأنتِ تكتشفين العربيةَ معي، وتقفين عند بعض أفعالها ومفرداتها طَرُوبًا جَذْلى. وعندما تهاجمين العربية، لانصرافك إلى الفرنسية، ثقافةً وتعليمًا، أُعاتبكِ، لأنّ في الأمر تنديدًا ضمنيًا بي؛ فأنا ابنُها لحًّا. وهذا يحتاج إلى شرح، إذ نقول: هذا ابن عمّي لحًّا، أي القريبُ اللزم. ثم إنّ النفور من العربية مردّهُ، ببساطة، الجهلُ بها. والموضوع طويل، وليس الآن مجاله. ومرحى، في المناسبة، بالأفلام المكسيكية وأمثالها؛ لأنّ الدبلجة باتت موفَّقة في لبنان؛ ثم هذه الأفلام ـ وهذا بيتُ القصيد ـ تعلّم العربيةَ الفصحى على نحوٍ مقبول وجميل.

أستمع، بانشراح، إلى سوناتة «فُورْ إلِيز» لبيتهوفن. هذا الجرماني الكبير كم هو مبدع في أعماله السيمفونية الصخّابة، وكم هو مبدع أيضًا في سوناتاته الرقيقة كجداول متراكضة. وأقول في طويّتي: لعلّ سُليمى تُصغي، الآن، إلى ما أُصغي إليه. فقبل صعودي إلى الجبل أخبرتُكِ أنّي خَطَطْتُ لكِ رسالةً بالألمانية، وعندما التقيتُكِ أهديتُكِ تسجيلاً لطيفًا لسوناتة بيتهوفن «فُورْ إلِيز» وكتبتُ على إتيكت، فوق غلاف النيلون الخارجي، الرسالة التالية: فُورْ سُليمى (für Sulaima)! وقلتُ لكِ إنّي أُحبّ الإيجاز، فهو عُنْوان البلاغة عندنا. وضحكنا، وقلتِ لي، ما تردّدينه دائمًا، مازحةً، على مسمعي: «محتال، مقطَّع موصَّل!» أنا أحتال لأبثّ البهجةَ في روحكِ، يا حبيبتي، ولأُشاهد البسمة الجميلة تشعّ من فمكِ وعينيك. لكِ حبّي واشتياقي.

٥ ـ هاتفٌ يرنّ (الجمعة ٩ تموز)

لا يُمْكن، بأيّ حال، أن أنسى ما أَخْبرتِني به البارحة، ونحن نُمضي اليوم في السباحة والتشمّس. لقد قلتُ أنا كلامًا كثيرًا؛ فقد فاض بي الشوق، وكان في فمي حديثٌ ومحطّاتُ قولٍ وطُرَفٌ وتعليقاتٌ وغَمَزاتٌ؛ فأنا هابطٌ بيروتَ من منفاي الجبلي، وبودّي أن أُفرغ مخزونَ لوعتي واشتياقي. لكنّ كلّ ما نطقتُ به، على مدار الساعات الستّ التي انقضت، ولم نشعر البتّةَ بجَرَيانها؛ لا يوازي جملةً فاتنةً نطقتِ بها، يا عزيزتي، في هدوءٍ وغِبْطة: «كلَّ مساءٍ في الوقتِ الذي من عادتنا أن نتهاتف فيه، اتصلُ بكَ، في بيروت، وأنا عارفةٌ تمامًا أنْ لا أحد سيجيبني! جرس الهاتف يرنّ، وأنا أُصغي إليه في هدأة الليل!!»

رائعةٌ أنتِ، يا سُليمى، لا نظير لكِ في رقّتك ورهافة عواطفك وبراءة أحاسيسك. أنتِ من النوع الذي يُعطي بكلّيته، لا يفكّر بمصلحةٍ أو عاقبةٍ أو مكسب. أنتِ روحٌ بلّورية، شفّافة، صافية. وحتى في هنيهات غضبك المكظوم أو حَرَدك الأنثوي، تتبدّين طيّبة، غيرَ عدائية، مشبّعةً بالغُنْج التصالحي وبالمودّة العميقة. أتمنّى، من صميم قلبي، أن أكون جديرًا بحبّك، بلهفتك، بمبادراتك الدالّة على المراهقة، وقد تخطّيْنا هذه السنّ منذ زمن بعيد؛ ولكنّها، ههنا، مراهقةٌ نابعةٌ من السخاء الكلّي لامرأة، حبُّها سوناتةٌ حالمة، وصداقتُها وفاءٌ واندفاعٌ وشميمُ حَبَق وبهاءُ قَرْطاسية!!

٦ ـ زيارةٌ لبيت شوپان (السبت ١٧ تموز)

لجّ بي الشوقُ، وقرعتُ صدري؛ ليس كهؤلاء الذين يَقْرعونه حزنًا وأسفًا على الماضين، وإنّما لأنّي متبرّح ملتاع. وخلال هذا القرع بحثتُ عن قلبيَ الذي يقع بين الرئتين، ويميل نحو اليسار؛ وهو ميل قديم عندي، متأصّل في الفكر والوِجْدان، ولا رجعة عنه. ولم أَعْثُرْ على قلبي حيث ينبغي أن يكون؛ فقد تركتُه في بيروت. أخذتْه سُلَيْمى واستأثرتْ به وَحَنَتْ عليه. فأنا جسد قد ضَيَّع مهجتَه، يمشي في الجبل سَبَهْللاً بين الحقول، ينظر في الأفق كمَنْ يتذكّر أمرًا مبهمًا ولا يقع على حيثيّاته، ويُغِذُّ في السير كمَنْ يلاحق فكرةً عنّت على خاطره ويأملُ في التقاطها قبل أن تتبدّد.

من حسن الحظّ أنّ شوپان، بموسيقاه الحالمة المنسابة، التي يَنْقر عازفُها بخفّةٍ وسيولةِ أصابع البيانو؛ شوپان البولوني، المحتقن حُبًّا وهُيامًا، يخفّف وَحْشتي الجبلية. ليتكِ كنتِ معي عندما زرتُ، ذاتَ عامٍ سالفٍ غابر، وكنتُ عهدذاك لم أبلغ العِشْرين بعدُ؛ زرتُ بيتَه وأَجَلْتُ البصرَ في البيانو الذي استخرج منه أعذبَ الألحان، وهوّمتُ أتفحّص أثاث منزله وجدرانه وسجاجيده، وكأنّي في غمرة حُلْم زاهٍ. ولكنْ أنّى لكِ أن تكوني معي في ذاك الزمان؛ وكنتِ طفلة، تُدرج مزهوّةً بجمالها ولُعَبها وفساتينها؟ ودار الدولاب وانطوت العقود، ثم التقينا؛ وانقدح الخَفَقان، وماجت العواطفُ، والتهبت الأحاسيس. وكما يقول إمرسون، في أطيب القول: «مَنْ يُحبُّ لا يَهْرم.»

٧ ـ أأنا حزين أم القمر؟ (الثلاثاء ٢٠ تموز)

أنا، في منفايَ الاختياري، أتلوّى على نار الشوق والحنين. غابت سُلَيْمى عن أفق حياتي؛ فلم تعد البيوتُ الجميلة بحجرها المقصّب، وقرْميدها الأحمر، وقناطرها المزوّقة، تُغويني. لم تعد الأجمات الخُضْر، والفُسُحات الصُّفْر، والدروبُ المتعرّجة، تستوقف ناظري وتناديني. وهذه الجبال، قريبها والبعيد، مَهيبها والمتواضع، مكسوّها والأجرد؛ غدت مجرّدَ سلاسلَ، تسدّ المدى الشرقي، فكأنّها ستائرُ عملاقة، تخفي عني ما قد يكون وراءها من سرّ ونُضار. وبات القمر، الذي يعلوها، في الليالي الساجية، أوانَ اكتماله وزَهْوه، وجهًا شاحبًا، ممتقعًا، يطلُع من وراء هذه الجبال، ويتسلّق مرتفعًا في أعالي السماء. تُرى ماذا حلّ به، وعلامَ هذا الاصفرار في وجنتيه؟ وعهدي به، من قبلُ، مفترّ الثغر، بسّام الوجه، حلو القَسَمات. أدَهَمه حزنٌ، أم أنّ الحزن يستوطن في مُقْلتيّ؟

وهو منفًى، كما أسلفتُ، اختياريٌّ، أمْلَته عليّ الحاجةُ الماسّة إلى مكانٍ ينتفي فيه عَرَقٌ يتصبّب من الجبين، وينساب غزيرًا من مسامّ الجسم؛ خلال قيظٍ بيروتي مقيت، بحيث تستحيل القراءةُ والكتابة ـ وأيُّ معنًى لحياتي من دونهما؟ ولو أنّ الحال لأيام معدودات، لهان الأمرُ، ولانتفت الحاجةُ إلى هذا المنفى؛ ولكنّه فصلٌ بأكمله، إذا لم تَعْمد إلى هذا الحلّ، لتلافي عقابيله، قتلتَ أسابيعَ الصيف ضجرًا وتململاً وتسكُّعًا على أرصفة المقاهي. ومؤخّرًا التقيتُ الصديق الشاعر جودت فخرالدين، وتعانقنا بعد

طول غيابٍ عن بعضنا: ونهضتُ بجسمي لأصل إلى خدّيه؛ فهو من بقايا رماح قبيلة سَمْهَر! وسألني ما بالي غائبًا متواريًا؛ فأجبتُه أنّك تواظب على دوام يومي في مقهًى بالحمرا، في حين أنّي لا أغشى البتّة هذه المقاهي الرجاليّة.

٨ ـ أيُّ سرٍّ فيكِ؟ (السبت ٢٤ تموز)

أأَقول إنّها امرأة من ذهب، سُليمى هي؟ هذه الإنسانة، المترعة عِشقًا ولهفةً وغَيْرية، تُحيِّر لُبِّي، وترميني في دُوار من العجب والإعجاب. نحن، عمومًا، في عصر الأنانية وحبّ الذات والناس الساعين لتأمين أغراضهم ومصالحهم، وبعدهم فليكن الطوفان. وحكايةُ أنّي استفتحتُ، فلتذهبْ إلى دكان جاري؛ هذه من مآثر الزمن العتيق الذي لن يعود. وتعال أُزوِّجْكَ أختي أو بنتي، هذه براءة قضت عليها الحياةُ الاصطناعية الحديثة! وعندما تَعْثر، اليومَ، على امرئٍ صَدُوق، ذي لفتة، ينضح بالودّ، ويغمر مَنْ حوله بالرقة والدماثة؛ تخال أنّك وقعتَ على كَنْزٍ إنسانيٍّ نفيس. فكيف إذا كان هذا المرء امرأة تتحلّى بتلك الشمائل، وينضاف إليها ما تتفرّد به حواء من دفءٍ وتلقائية وحرارة؟! وسليمى عجينة من هذا الذي تقدّم كلِّه؛ قد رقّقتْها الأيامُ فجعلتها تذوب ودادًا وإخلاصًا، وحنكتْها التجاريبُ، لكنّ الطبع الذي فُطرتْ عليه غلاّبٌ عندها ماثل، فهي تمدّ يدَ العون لكلّ طالب، فكيف إذا كان له في قلبها موضعٌ يتربّع فيه ويسلْطِن؟!

قبل البارحة، وككلّ خميس، فقد أمضيناه في البحر نتقلّب بين طيّات الماء المالح، والشمسُ تلسع وجهيْنا وكتفيْنا، ونستغرق في ضَحِكٍ وكلام حلوٍ ونكات قارصة وتعليقاتٍ طيّارة. ثم أوصلتني سليمى بسيارتها إلى منطقة المتحف، عند الخامسة مساء؛ حيث آخذ الڤان الذي يقلّني إلى «عاليه،» ومن هناك آخذُ ڤانًا آخرَ يضعني في البلدة الجبلية التي أصرف الصيفَ، هانئًا، في ربوعها. وودّعتُها وركبتُ أحدَ الڤانات المصطفّة، منتظرًا إقلاعَهُ. ولكنّي لمحتُ سيارتها مجددًا تحاذي صف الڤانات، ثم أبصرتُها ثالثةً وهي تبحث عنّي لتطمئنّ إلى أنّي أمّنتُ مقعدًا في ڤانٍ يَحْملني إلى الجبل! لوّحتُ لها وقلتُ في نفسي: هذه امرأة لا مثيل لطيبتها ولعواطفها الجيّاشة. وهي تفعل كلّ ذلك باندفاعٍ طبيعي عفوي؛ كما يَدْفع النهرُ مياهه، كما تنشر الوردةُ أريجَها، كما يُتحفنا الحسّونُ، ذو الألوان الجميلة، بتغريده الرخيم. أيّ قوة محرّكة بهية تدفعكِ، يا سُلَيْمى، إلى إتيان هذه المواقف؟ أيُّ سرٍّ انطوى فيكِ واختبأ؟

٩ ـ «من غير ليه» (السبت ٣١ تموز)

كانت الليلة، البارحةُ، قمراءَ. فهو قمرُ أربعتعشر، رغيفٌ دسم، منقورٌ عند طرفه الأيسر. شاهدناه أبيضَ فوق السلسلة الغربية، ونحن نخرج، حوالى الثامنة مساءً، من النادي في «شانَيْه،» حيث «أيمن» يتقبّل التهاني بزواجه الجديد. فهو متأهّل منذ خمسةَ عشرَ عامًا، ولكنّه لم يُرزق بمولود؛ وعندما تزوّج أخوه الأصغر وجاءه صبي، دبّت الحميةُ في روح أيمن وتعطّش للذرية. ناس لا يدرون ماذا يفعلون بأولادٍ متدفّقين، ويسعَوْن إلى الموانع والروابط ؛ وناس يتحرّقون إلى طلعة ولدٍ زاعق، ويحارون كيف يحقّقون مبتغاهم العزيز.

ولكنّ القمر البهيّ صار قُرْصَ عسلٍ فوق رؤوسنا في «صَوْفَرْ،» ونحن نسمُرُ مبتهجين بالليل الطريّ، والرفقةِ الطيِّبة، والمأكلِ اللذيذ، وبضيافة «حسّان» السمحة ولطافة «سمر» السخيّة؛ وقبلَ ذلك كلّه نسعَدُ بالعود، عود الصديق عبدالحفيظ، عمرُه نِصْفُ قرن، أي العود؛ أما العوّاد فخبير زراعي، يذهب في آذار إلى أعالي بلاد جبيل، يتفحّص التفاح والكرز، ويُصغي لتفجّر الماء في «أفقا»؛ ولكنّه، فضلاً عن ذلك، خبير بالألحان والموشّحات والأدوار، حيث «العِصْمة لا تكون إلاّ لنبي.» وعبد الحفيظ يحتضن عوده ويحنو على أوتاره، ويشدو: «عندما يأتي المسا ونجومُ الليل تُنثر،» «جفنُه علَّم الغزل»... مختتمًا السهرةَ، عند الواحدة والنصف ما بعد منتصف الليل، برائعة عبد الوهاب «من غير ليه» الوداعية: «خايف طيور الحب تهجر عشّها، عشّها، وترحل بعيدْ!»

وتلفّتُ أبحث عنكِ، يا سليمى. أعرف أنّ المأكل كان سيسرُّكِ؛ وأعرف أنّ العزف والغناء كانا سيَدخلان قلبَكِ، يبثّانه الفرحَ والمتعة؛ وأعرف أنّ وجهك الصبُوح كان سيتلألأ انطلاقًا وابتهاجًا، وستهتزّ الرِّجْلُ منك جَذْلى. كانت تَفْصلني عنك بعضُ الأودية: فأنا في «صوفر»؛ وأنتِ، مع الوالدة، تُمضيان، نهايةَ الأسبوع، في «بكفيا.» غير أنّ هذه الأودية ما كان لها أن تَحْجب، عن ناظري وخافقي، بسمتكِ الساحرة؛ فهي تختزل ما في روحك من صفاءٍ وبراءة، ومن استعدادٍ فطريٍّ للعون والتضحية. ابتسامتكِ عنوانٌ لك، رسالةُ ودٍّ، نداء يَرْشح باللُّطف والظَّرْف.

١٠ ـ «ورانا إيه؟» (الثلاثاء ٣ آب ٢٠٠٤)

البارحةَ، مساءً، طفح الوادي، الفاصلُ بيننا وبين السلسلة الغربية، بضباب أبيضَ كثيف. لكأنّه مساء خريفيّ نموذجيّ. غير أنّنا ما زلنا في فواتح آب، هي سانحة مزاجيّة للطبيعة، في نظركَ المتأدّب؛ ولكنّها، في نظر العارفين، سانحة لا بدّ منها لنُضْج التين والعنب. وهل نسينا المَثَل الشائع: «آب طبّاخ العنب والتين»؟ واختفت عن ناظري أضواءُ «مجدلبعنا» تمامًا. ما همَّ، ليس لي فيها نديم ولا حبيب. على أنّها باتت تعني لي شيئًا؛ فإنّ بعض فتيان وفتيات «شانَيْه،» الذين نالوا شهادةَ البريفه، هذا العام، سييمّمون شطرَ مجدلبعنا لولوج ثانويّتها الرسمية، بعد أن فرغوا من التعليم المتوسّط في مدرسة البلدة، ذاتَ الاسم الذي يبتدئ ولا ينتهي، لذا اختصرناه، ذات كتابةٍ سالفة، على الطريقة الفرنسية: مَشْممر (مدرسة شانَيْه المتوسطة المختلطة الرسمية). وأخبرني «نضال» ـ ذو العينين المتسائلتين على خَفَرٍ وتهذيب، وقد جلب ليَ البارحة إلى البيت بعضَ الأغراض التي ابتعتها من عند فارس؛ فكيف لي، في هذا العمر، أن أحمل بطيخة خضراء كبرى مخطّطة كجلد الحمار الوحشي، ولو أنّ امرأ القيس ذبحها لمعشوقاته، لتغنّى بحلاوتها وعرّج على ذكر وزنها الثقيل ـ أخبرني نضال، ووالدُه طرّاش، أنّه ذاهب إلى مجدلبعنا لمواصلة

الدراسة؛ وأنّه ينتوي، بعد الثانوية، التخرّج في المدرسة الحربية. فقلت في نفسي: عساه يدخل في بلد الطوائف والكوتات.

وقد تقولين، يا سليمى، بعد مطالعة ما تقدّم، عبارتكِ الإنكليزية التي ترددّينها: «so what?» أو قد تتغنّين بعبارةٍ من أغنية داليدا الفاتنة، التي تأتي فيها على ذكر سوهاج وكوبري عبّاس: ورانا إيه؟ ورانا إيه؟ أنتِ حبِّي، والناس أحبابي، والطبيعة مَهْوايَ وراوية عن عِشْقي لها، بروح وامقة لا ينطفئ لها غليل. كنتُ البارحةَ شاخصًا، طوال هزيعٍ من الليل، إلى الضباب المتكاثف، متدثّرًا بالثياب، وقد شفّني الشوق وبرّح بي الحنين إليكِ. وإذا كانت مجدلبعنا متوارية، لكأنّها غير موجودة في دنيانا؛ فأنتِ في خاطري تملئين عينيَ وتتخطّرين في وجْداني، وقد ملكتِ مَحْيايَ وقيادي. بلى، أنا عاشق منفيّ؛ ولكنّي أَنْعم بخيالٍ خصبٍ أستحضر، بواسطته، ثغركِ الضاحك، ووجهَكِ المضيء، وثناياكِ العذبة. وأطللتُ من الشرفة، بعد أن خططتُ هذا الكلام، فطالعتُ في الشارع امرأة تحمل مظلّة مزركشة تغلب عليها الزُّرقة، مع أنّ الغيم يخيّم على الجو، فقلتُ متسائلاً: أبها من حاجةٍ لمظلّة صغيرة، وهناك في كبد السماء مظلّة غيمٍ عظيمة الحجم، فاترة اللحظ؟

١١ ـ صورة (السبت ٧ آب)

ما لي أُبصبص؛ وهل من رجلٍ لا يفعل ذلك، إنْ سنحتْ له الفرصة؟ فقد زوّدتني سُليمى، قبل صعوديَ إلى الجبل، صورةً لها، كبيرة الحجم نسبيًا، وفيها تبتسم ابتسامة مقتضَبة، تشفّ عن حلاوة واعتداد؛ وتبدو أسنانها البيضاء اللؤلؤية؛ وشامة على الجانب الأيسر من ذقنها، دعك من أخرى أكبر حجمًا في أعلى جبينها؛ وفي الأُذُنين قُرْطان مختلفان، على مألوف عادتها، أحدُهما، في الأذن اليُمنى، حلقة دائرية، وفي اليُسْرى فيروزةٌ زرقاء سماوية، تلتصق بشَحْمَتها. وشعرها الأسود، الذي تهزّ رأسها لتسويته، وتتخلّله أصابعها، يتوّج هامتها؛ على أنّ شُعَيْرات فضيّة قليلة بدأت تَخِطُهُ. ترتدي جاكتة زرقاء، مزركشة بخطوطٍ عَرْضية طحينية اللون، وهي من نوع قماش الجينز؛ جاكتة زرقاء وراءها خلفية خضراء. وهناك وشاح نبيذي يلتفّ حول رَقَبتها، ويهبُطُ معقودًا على صدرها؛ من غير أن يحجب أعلاه عند الرقبة، حيث البشرة مدعوكة بالطيب مدلّكة بالورد، تزيّنها قِلادة ذهبية صفراء لأسدٍ، ذي لُبَدٍ ذهبيّ أبيض، وعينٍ ياقوتية حمراء.. وتضحك سليمى وتقول مصحّحة: عين محمرّة! وهي قِلادة تتدلّى من عِقْدٍ أصفر، يلتفّ حول الرَّقبة. لستُ آثمًا إنْ هويتُ هذه البقعة، وتلهّفتُ إليها شمّاً وضمّاً. ما لي تحدّثتُ عن أشياءَ، وتجاوزتُ العينين، وهما أحد مكامن الجمال عند سليمى. واحتانِ من العسل، تَرْشحان حنانًا، وتفيضان حبًا دافئًا ووعدًا حارّاً باللُّقيا. لهفي إليهما. لهذا أجدني مدفوعًا، وقد وضعتُ صورتها، التي أهدتني إيّاها، في آخر الملفّ الذي يشتمل على هذه اليوميات، إلى أن أُبصبص لأستعيدها في عينيّ المتلهفتين. والكلمة «أبصبص» عامية، ولكنّها غدت شائعة معبّرة. وربّ مفردةٍ عامية تنوب، أحيانًا، عن قِنْطار كلامٍ فصيح.

الجوّ من حولي يغشاه غيمٌ رقيق، يحجب الشمس من حين إلى حين، وينْشر برودة خفيفة يَلَذُّ للمرء الانتعاشُ بها. فنحن في آب اللهّاب في بيروت، ولكنّي أعرف، يا سليمى، أنّكِ تركت العاصمة، كما تفعلين خلال الويك أند من كلّ أسبوعٍ طوال هذا الشهر، وتذهبين إلى أحد المصايف في المتن الشماليّ، في حين أنا حالٌّ في أحد مصايف المتن الجنوبي. أحمّل هذا الغيم تحياتي وقبلاتي، لعلّه في زحفه وتنقّله، عَبْرَ الأودية، يحطّ عندكم، فِعْلَ الحمام الزاجل في سالفات الأيام. عساه فاعلاً، وعساني مغتبطًا بهذا محبورًا.

١٢ ـ كشاعرٍ باحثٍ عن مطلعٍ (السبت ١٤ آب)

نفسي مترعةٌ بجَيَشان عواطفها والأفكار. من أين أدخل يوميّتي هذه؟ في الصباح الباكر، وأنا أتدثّر بروب دو شمبر شتوي، صُنْع الشقيقة، شاهدتُ ورقَ العريش وهو يهتزّ، مع الهواء البارد المنعش، كفراخٍ مذعورة. الزنجية المليحة تسقي بِمِرَشّتها مساكب النعنع والبقدونس. الزُّنْج يلاحقونني. ومع أنّني كنتُ مخطِّطًا، اليومَ، للعمل في إنهاء الطبعة الثالثة المَزيْدة والمجدَّدة من كتابيَ القديم **ثورة الزَّنْج، وقائدها عليّ بن محمّد**؛ إلاّ أنّ داء الكتابة الأدبية لا فكاك منه، وهكذا نحّيتُ الكتاب وانغمست في هذه اليومية. ومع هذا فها أنا أتحدَّث عن الصبيّة الزنجيّة، والغالبُ أنّها سودانية. كم هم جميلون ودَمِثون ولُطفاء إخواننا وأخواتنا في السودان العريق. وأخبرني الصديق «كامل،» الذي يعيش مع زوجته «براعم» التي تعمل هناك، وهو الآن بات يمشي الهوينا، إثر ضربة شمسٍ حصدها تحت سماء السودان؛ أخبرني كامل أنّه لم يبقَ في السودان إلاّ الأطلال، مع أنّ هذا البلد العربي هو من الغنى الطبيعي العجيب، بحيث يقولون إنّ عمود الكهرباء الخشبي هناك، يفرّخ، بفعل الرطوبة، غصنًا أخضر! لقد أتى على السودان العسكرُ، فِعْلَ الجراد في حقل مزهر. وذكّرني هذا بمسرحية **الخال ڤانيا** للكاتب الروسي الرائع، أنطون تشيخوف ـ وهي عمل ترجمتُه، غِبَّ تخرّجي في الجامعة، وبقي مطويًا بين أوراقي ـ فإنّ الطبيب «أستروف» يتقدّم، في الفصل الرابع والأخير من المسرحية، من خارطة لأفريقيا معلّقة على الحائط، ويقول بشكل رمزيّ لمّاح: «ينبغي أن يكون الطقس حارّاً، خلال هذا الوقت، في أفريقيا هذه، على نحوٍ يقطع الأنفاس!» إنّه أيضًا نصيبنا التَّعِس، مع عسكرنا المشرقي، الذي أكل لحم أوطاننا ورمانا عظمًا في العراء، ولا مَنْ يحمينا ولا مَنْ يسأل عن ويلاتنا.

جارتنا، ذات الشعر الأشقر، وقميص النوم الوردي، تنشر الملوخية، عند حافة شرفتها، وتقلّبها بين أصابعها، بغرض التجفيف. لعلّها تهيّئ المؤونة. وحسنًا تفعل، فهل هناك مذاق أطيب من مذاقها ـ أقصد الملوخية ـ وخصوصًا عندما يُضاف إليها رذاذٌ من حرٍّ ناعم أحمر؟ لقد التهمتُها البارحة عند الغداء، وما زالت في حلقي وشهيّتي من طيبتها طُيُوف. دَرْفة النافذة، قُبالتنا، ذات الخشب المطليّ بالدهان الأحمر، يفتحها الهواء، ثم لا

يلبث بعد قليلٍ أن يُغْلقها، فتبدو كنَفْسٍ حَيْرى. أما أنا فأشبهُ بمَتاعٍ معلّقٍ فوق مِشْجبٍ، يكاد يسقط أرضًا. أفتقد سليمى، فقد باتت جُزْءًا صميمًا من معاشي وتفكيري. شوقي إليها كشوق الأرض العطشى إلى الريّ، كلهفة الزهرة إلى أن تكون مندّاة، كتطلّع المقرور إلى الدفء والحنان، كشاعرٍ باحثٍ عن مطلعٍ يجيء ولا يجيء. هذه امرأة تحبِّب إليك الحياة، وتَحْملك على أن تَلِجَ خُرُومها مغتبطًا نشوانَ. يا امرأةً جمّلتِ مجرى حياتي، وسكبتِ فيه الكثير من حَدْبكِ وحلاوة ضحكتكِ ونضارة لَفَتاتكِ، بتُّ أسير حبكِ الجميل. والروعة فيه أنّه حُبٌ متبادَل على خطّين؛ ولو أنّه على خطٍّ، ومن طرفٍ، لفقد وهجه واضمحلّ عند أوّل عَطَبٍ.

١٣ ـ الفَرَجُ آتٍ (الاثنين ٢٣ آب)

أَعود إليكِ، يا يوميّاتي، صَدْيانَ ملهوفًا. لم أهجرك، وإنّما الظروف، ظروفُ الانهماك في طبعة ثانية منقّحة ومَزِيْدة لكتابي **العهد السرّيّ للدعوة العباسية**، وطبعة ثالثة مَزيدة ومجدَّدة لكتابيَ القديم، الذي عرفني به الكثيرون، **ثورة الزَّنْج، وقائدها عليّ بن محمد**؛ هي التي صرفتني عَنْوةً، عن الوصال مع سليمى، عَبْرَ هذه اليوميات، التي غدت وتيرتها أسبوعيّات! ولكنّي، اليومَ، وجدتُني عاصيًا، متمرّدًا على كُتُب التراث والتاريخ؛ فساكنها، أنا، منفيّ مرتيْن: الأولى، لاستغراقي في الماضي وحيثيّاته وإشكالاته؛ والثانية، لأنّي بعيد عن سليمى، أقتاتُ الحسرة وأُكابدُ الشوق. ثم أُعزّي النفس أنّ زمن المنفى لم يعد طويلاً؛ فها أنّ آب يكاد ينقضي، وأيلول على الأبواب؛ وما هي إلاّ غمضةُ عينٍ، ونزولٌ إلى بيروت وطلوع، حتى يحلّ تشرينُ بمباهجه، ويلتئم الشملُ مجدّدًا، ويقرع جرسُ الحبور والأفراح. فنعاود الجلوسَ في الأمكنة الأثيرة، ونغشى صالات السينما، حيث نهتزّ مع أبطال طَرْوادة المحاصرة الصامدة، ومع حكاية الحصان الشهير الذي جلب الهولَ لها والاستباحةَ والتقتيلَ والنهب. وهي بروفة قديمة لفصلٍ تتكرّر مشاهدُه، في زمننا الراهن، مع الحروب الأهلية، ومع الخَتْل الإمبريالي، الأميركي بامتياز. والملك آرثر ما برح ينتظرنا، لنشاهد مآثره الحربية وغرامه العنيف.

تذكرين، يا سليمى، الفيلمَ المنعقد حول التعذيب في الأرجنتين، في عهد الجنرالات؛ وقد شاهدناه في الأول من حزيران المنصرم. وخرجنا من الصالة نتلوّى من الإعجاب بالعمل الفني وبالمضمون الشائق؛ وإنْ كان ليس جديدًا علينا، فتاريخُنا العربي المعاصر صفحةٌ تَقْطر دمًا ويعلو منها النشيج والصراخ. خرج الاستعمارُ، وحظينا بالانقلابات والسجون وفنون التعذيب والاضطهاد، حتى صار لنا أدبٌ شبهُ جديد هو أدب السجون، وروايةُ **شرق المتوسط** لعبدالرحمن منيف قَطْرةٌ في جدولٍ دفّاق. نوشك، من فرط الغيظ والذهول والمهانة، نحنّ إلى أيام الاستعمار؛ لأنّ ظلم العسكر من العشيرة والأهل أشدّ مضاضةً من جلافة السنغاليين والأوستراليين. ويستحقّ الكواكبي، هذا الحلبي الأشمّ، أن نُطلق اسمَه على شارعٍ في كلّ مدينة عربية، لأنّه تنبّه للاستبداد ومفاعيله على جميع الصُّعُد، منذ عام ١٩٠٠. وهو العام الذي بارحتْ عائلتي، عُلَبي، دمشقَ لتستوطن بيروتَ. وفي هذه المدينة، المتفرّدة في طول الوطن العربي وعرضه، وُلدتُ في الأول من حزيران ١٩٣٦؛ وصِرْتُ لبنانيًا عربيًا أُمميًا. والسعي الدؤوب، اليومَ، هو لتحويل هذه المدينة المتفرّدة، بيروت، إلى ما هي عليها سائرُ المُدُن العربية: سجون وأصفاد وعَسَس وديموقراطيةٌ تدوسها الأحذيةُ الثقيلة (البوطات). في أوروبا يوجد مواطنون، وفي الوطن العربي يوجد رعايا. ورحم اللّه خالد محمّد خالد الذي أصدر، في مارس ١٩٥١، كتابه الوجْداني الاحتجاجي الغاضب: **مواطنون لا رعايا**.

١٤ ـ وداعًا أيُّها المنفى (الأربعاء ١ أيلول ٢٠٠٤)

نحّيتُ، اليومَ، أوراق البحث جانبًا، فإنّ أيام المنفى طالتْ واستطالت، ولم يعد الكلام مع سليمى، بواسطة الهاتف، لذي استهلاكية مالك، بين حين وحين، يَشْفي الغليل ويروي ظمأ المشتاق. أنا لا أقتني هاتفًا حيث أصطاف، وذلك عمدًا وعن سابق تصوّر. يكفيني رنين الهاتف في بيروت. أصطاف لأغيِّر نمط عيشي، ولأكون بمَنْجاةٍ من انشغال البال أحيانًا بتوافه الحياة. ههنا أنا سيِّد وقتي: أقرأ، أكتب، أتنزّه، أتأمّل؛ أُحصي الصنوبرات المتفرّقة عند تلّةٍ في طرف الوادي، وأعيد الكرّة، خوفًا عليها من النقصان. أستقبل، عصرًا، بعض الزائرين من الأهل والخِلاّن؛ ونتسامر في الليالي المنعشة الرِّطاب. وسمعتُ في الراديو، الذي يظلّ شغّالاً طوال الليل، قرب أُذُنيّ، سواءٌ أكنت مستيقظًا أم غافيًا؛ سمعتُ مقابلة مع صحافيٍّ مرموق، وفيها يذكر أنّه يهوى المبيت في الصحراء، حيث السكينة المطلقة، وحيث لا رنين لهاتفٍ. وكان بودّي أن أسأله، ونحن نحيا ثورة الاتصالات، إذا ما كان تاركًا هاتفَهُ النقّال، في شقّته، عمدًا وعن سابق تصميم.

نحن، يا سليمى، في الفاتح من أيلول، وما هي إلاّ ثلاثة أسابيع حتى نعاود معانقة بيروت وأحبابنا هناك. أتلفّع بالشوق، وأتيمّم بالحنين. ولكنّ الفَرَج آتٍ. قلبيَ ينابيع تائهة، أشجار متسائلة، وحقولُ قمحٍ تحمل حنطة واعدة. قلبيَ أجراس تفتقد الرنين، أعياد تبحثُ عن لُهاثٍ ومواعيد، وأنهار أضاعت تختها ومجراها. قلبيَ نيزك، حِبْرُ شَهَواتٍ، وهديل. أنا قادم إليكِ، يا عزيزتي، لأنهل من رُضابك عسلاً شهيًا، محلولاً يُطيل العمر ويؤرّج الأيام ويكسبها طعمًا ولونًا وصوتًا. أنا قادم لأستحمّ بغُنْجكِ، وألتقط عصافير قهقهاتِكِ، وأجلس مغتبطًا بحضوركِ السنيّ. وداعًا أيُّها الجبل الملهم، وداعًا أيَّتُها البلدة الوادعة، المطلّة على سلاسل الجبال، الحاضنة للقرى الخضراء المتناثرة. وداعًا لطاولة السنديان المربّعة، الواقعة في زاوية الصالون، والتي جلستُ إليها، طوال ثلاثةِ أشهرٍ، أُحبّر أبحاثيَ وهمومي، أشواقيَ ودراساتي. وداعًا للمنفى السعيد!

بحمدون/شانَيْه ـ صيف ٢٠٠٤

في نقـد النقـد: من الضبابية إلى تلمّس النصّ

فاروق مواسي*

ظهرتْ خلال القرن الماضي اتجاهاتٌ نقديةٌ متعددة، حاولتْ أن تستثير في المتلقي مشاعرَه أو فكرَه لتجعل منه مشاركًا ـ وكان في ذلك ثراء نقدي وثقافي لا غنى عنه. ولكنْ عَرَفَ النقد العربي آنذاك أيضًا «آفاتٍ» أدبيةً أو أساليب يكتنفها كثيرٌ من التساؤل حول ماهيتها وفحواها. فمن هذه الأساليب أسلوبٌ أدعوه بـ «الفضفاضي،» ويتبدّى في رصف الكلمات والعبارات دون رصيد ملموس، أو دقةٍ تؤدّيها ترجمة للغةٍ ما، أو توضيحٌ لها. ومن هذا ما يقوله أحمد حسن الزيّات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) في تقويم شعر امرئ القيس: «... كان جزلَ الألفاظ، كثيرَ الغريب، جيّدَ السبك، سريعَ الخاطر، بديعَ الخيال، صادقَ التشبيه...»[١] وقد سخر محمد النويهي (١٩١٧ ـ ١٩٨٣) في كتابه **ثقافة الناقد الأدبي** من مثل هذه التشبيهات التي وردتْ في كتب تاريخ الأدب على اختلافها، إذ يقول: «وعبثٌ أن تحاول أن تسألهم ما معنى هذا كله؟ ما معنى 'تجهّم المعاني'؟ وكيف تتجهّم المعاني؟ وما هي الديباجة التي يصفونها بالحُسْن تارةً وبالصفاء أخرى؟ وما معنى 'نبالة المقصد' في معلّقة عمرو بن كلثوم أو 'نباهة غرضه'؟ وكيف يكون الغرضُ نبيهًا؟ وكيف يكون المعنى أنيقًا؟ وكيف امتاز بحُسْن النظم؟ وما هذا بالضبط؟»[٢] ونكتشف نحن فضفاضيةَ العبارات أو اتساعَها إذا حاولنا شرحَ ما يقال إلى متلقٍ يبحث عن فحوى ليدركه حقًا؛ فعندها ندرك أنّ العبارات فيها إنشاءٌ واستعراضٌ وتعميم. ولا إخال الباحث في كتابات إيليا حاوي التحليلية يتردد في العثور هنا أيضًا على نماذج كثيرة من هذا القبيل.[٣] بل ثمة نماذج أخرى كثيرة في كتابات العقّاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤)[٤] وطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) النقدية.[٥]

وقريبٌ من هذا الأسلوب ما أدعوه بـ «الشاعري،» الذي يَصْلح لأن يكون نصًا أدبيًا آخر أكثرَ من كونه نقدًا. ولأَسُقْ مثلاً من كتاب **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر** للدكتور محمد فتوح أحمد. فهو يقول: «وقد تَركتْ خُطى البارودي على رمال الشعر العربي آثارًا ترسّمَها مَنْ تلاه من الشعراء. ولم يفْلت منها شوقي، الذي جَمَعَ إلى فحولة المَلَكة الشعرية حساسيةً مذهلةً بأسرار النغم الموسيقي، وتحكمًا أصيلاً في ناحية الأسلوب الشعري، ولكنْ في معظم تجاربه ظلّ يغترف من تلك الدّنان التي اغترف منها البارودي.»[٦] إنّ هذه الاستعارات والمجازات اللغوية في النص السابق كانت تزيينًا وتدبيجًا أكثرَ من كونها لغةً علميةً محددة.

أما الأسلوب الذي أدعوه بـ «الغيبي» فهو الناشئ عن ضبابية واضطراب وافتعال، والنائي عن جوهر التجربة والمعرفة الحقيقية. ويُذكر عن بوالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١) الفرنسي في هذا الصدد قولُه: «إنّ ما يدركُ جيدًا يُعبَّر عنه جيدًا، وبوضوح»؛ فإذا انعدم التصورُ الحسي للمميّزات المادية، وانعدم التنظيمُ الشكلي للتصور، انعدم بالضرورة التعبيرُ البيّن. ولأَسُق مثلاً على هذه الضبابية ما كتبتْه د. خالدة سعيد في كتابها **حركية الإبداع**: «....إذا كان نجيب محفوظ قد كتب ملحمةَ التحول، وبرهن على أنه يتحسس تراجيديةَ البعد الاجتماعي، فإنه لم يبلغ اللحظةَ التراجيدية، لأنّه لم يفارقْ موضوعيتَه، ولا اهتزّتْ عنده مسافةُ الشهادة. ففي كل موقف تراجيدي لا بدّ من توتر

---

* ـ شاعر وناقد ومحاضر فلسطيني من باقة الغربية في فلسطين المحتلّة عام ٤٨.

١ ـ أحمد الزيات، **تاريخ الأدب العربي** (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٥)، ص ٥٦.

٢ ـ محمد النويهي، **ثقافة الناقد الأدبي** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٩)، ص ٢٢.

٣ ـ نحو: «أمّا طبائع ألفاظهم فتَظْهر في اللغة الصريحة، المباشرة الفصيحة في موضعها، لا تتقلقل فيه ولا تتعثر، وإنْ كان يُعْوزها الجرْسُ الخافت، أحيانًا، في مواضع الرقة واللين...» إيليا حاوي، **فن الخطابة** (بيروت: دار الثقافة، د. ت)، ص ٦٢.

٤ ـ إليك نموذجًا اخترتُه عرضًا: «وإذا بلغ من تهافت النفس على التهام الأشكال المختلفة هذا المبلغ، فلا جَرم أن تترك فيها أثرًا قويًا من حسنها وقبحها ومما توحيه من بواعث الفرح والنشاط أو بواعث الفزع والوجوم. فأما الحسن في تلك الأشكال فيزدهيها ويُطْربها ويحثّ آمالَها وتأنس منه البشرى الجميلةَ والفألَ السعيد...» عبّاس محمود العقاد، **مراجعات في الآداب والفنون** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٦)، ص ١٥٠.

٥ ـ من كتابات طه حسين مثلاً: «ومن طبيعة الأدب الرفيع والفن الجميل أن يمتاز ويأبى الفناءَ في أية قوة مهما تكن. فسيُمتحن الأدباءُ فيما يحرصون عليه من الامتياز، وسيتعرّضون إمّا للعزلة المؤذية أو الخلطة التي تدعو إلى الابتذال... وسيكون أدبُهم الرفيع الممتاز مرآةً صافيةً صقيلةً رائعةً لحياة هذا الشعب، يرى فيها الشعبُ نفسَه فيحبّ ما يحبّ ويُبغض منها ما يُبغض، ويدفعه حبُّه إلى التماس الكمال، ويدفعه بغضُه إلى التماس الإصلاح...» طه حسين، **ألوان** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨)، ص ٣٢.

٦ ـ محمد فتوح أحمد، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨)، ص ١٤٨.

معين، من زمن مباغت يسقط منظار الرصد ويعدم المسافة بين الشاهد والموضوع.»[١] وعلى الذي يكابر ويَدْفع قولَنا أن يترجم هذا النصَّ إلى لغة الفهم والإدراك.

وثمة الأسلوب «الانطباعي التعميمي» الذي لا ينطلق من تحديدٍ للمفردة، وضبطٍ للمعنى من خلال دراسة علمية أو منهجية متساوقة. ولنَسُقْ مثلاً من أدونيس: «نتاج شعرائنا في الأرض المحتلة... شعرٌ تظاهرة. يَعْتبر الثورة حدثًا خارجيًا، يتّخذها موضوعًا، فيصِفُها ويَهْتف لها ويغنّيها. هذا الشعر حماسةٌ لا تُكْمل شيئًا، لا تفعل شيئًا. صحيح أنّها تُضْمر الرغبةَ في العمل، والاتفاقَ حول الأهداف. غير أنّ صخبها يخفي عجزًا. فكأنّها تستبدل العمل باللعب...»[٢]

وهناك الأسلوب البنيوي المتكلّف، فهو يكاد يكون آفةً بارزةً أصابت النقدَ في القرن الماضي ـ وخاصةً ذلك النوع من البنيوية الذي لا يؤدّي إلى مؤدّى ولا يتساوق بمنطقية، وإنما ثمة أسهمٌ ودوائرُ ومربّعاتٌ وإشاراتٌ ومجردُ كلمات وإحصائيات «تدوِّخنا.» ولا بأس من مثال اجتزئه عَرَضًا من كتاب شربل داغر، **الشعرية العربية الحديثة**: «التشبيه يستمر بين الأرض والمتكلم، مشيرًا هذه المرةَ إلى الازدواجية المماثلة بين الطرفين، التي يمكن أن نَرْمز إليها بالصورة التالية: المتكلم الأرض اليأس الرجاء الخريف الربيع أريد ولا أريد. والازدواجية هذه تتأكد في السطر الأخير، لا بل يعلن المتكلمُ عنها بوضوح.»[٣] إنّ المشكلة مع كثير من هذه الكتابات هي أنّ المؤلِّف يحاول أن يُثْبت بطريقته أنّ أ = أ، ولكنّه غالبًا لا يقول لنا ما بعد ذلك، وما علاقة ذلك بالمحتوى والمضمون، وما هو الجديد في قوله، وأين الدقة التي لا تحتمل عكسَ ما ذهب إليه؟

يضاف إلى ذلك ما أخذه الناقد فخري صالح على بعض تيارات أخرى تميل إلى «النزوع إلى النقل والتقميش والقصّ واللصق والترداد الببغاوي للأفكار والتصورات الغامضة بنوع من النشوة الغريبة في اللعب بالكلام. وهو ما يتسبب في مراكمة نصوص نقدية تفتقر إلى الإبداع والإنجاز المتفرد، وتَصْرِف النقّادَ العرب عن قراءة النصوص والظواهر المتفردة في الأدب والحياة.»[٤]

❖ ❖ ❖

لا شك في أنّ المدارس التي ذكرتُها في بداية المقال ستواصل طريقَها بصورة مشابهة أو مغايرة في المستقبل المنظور. ذلك أنّه ما من اتجاه أدبي مستجدّ إلاّ كان إلى جواره أساليبُ أخرى بقيتْ وبقي لها أنصارُها: فقصيدة النثر مثلاً لم تَحُلْ دون استمرار جميع الألوان الشعرية على اختلاف أشكالها؛ و«ما بعد الحداثة» على اختلاف تعريفاتها لم يُلْغِ الحداثةَ على ضروب تأويلاتها. فهذه المدارس «السياقية»[٥] تَدْرس النصوصَ الأدبيةَ في ظروف نشأتها والسياقات الخارجية لها، والتأثيرات التي يُتوقَّع للنصّ أن يؤثّر في ما يحيط به ـ أيْ أنها تتوسل بوسائل خارجية ليست من داخل النص نفسه. أما تلك التي دعوتُها بـ «الآفات» فهي التي ستتناقص تدريجيًا (وقد بدأتْ بهذا الانحسار في السنوات الأخيرة من القرن الماضي) إذ إنّ العصر العلمي ـ عصرَ الحاسوب والاختزال والوضوح والدقة ـ لن يَفْسح مجالاً لأقوالٍ بدون رصيد، ولألفاظٍ دون تحديد، ولمعانٍ دون تلمّسها.

وثمة رؤية مستقبلية في مطالع القرن الحادي والعشرين في ما يتعلّق بنقدنا العربي على وجهٍ ما، تتمثّل في الاستمرار بل التوسع في وظيفة النقد الذي سيتركّز في معالجة النص الواحد من جهة، وفي «النقد البحثي» ـ أيْ إجراء البحوث العلمية لدراسة ظواهر وموضوعات وخطابات مختلفة ـ من جهة ثانية.

أما «نقد النص» فمن المؤمَّل أن يكون هو الأبرزَ على الساحة النقدية، لأنّ فيه مدعاةً لتذوق المتلقّي لهذا النص أوّلاً، بعد أن تذوَّقه الناقدُ. الناقد هنا يحاور النصَّ منه وفيه، فتتساوق مع الوقوف على لغة النص معرفةٌ سيكولوجيةٌ أو اجتماعيةٌ أو بيوغرافية.. إلخ. ولا غرو أن تكون كلُّ المنجزات في المستقبل مهيَّأةً لأن تكون في خدمة كلّ نص، فيعلِّم الناقدُ عبر النص ولغته كيف بُني هذا النص، وماذا يخفي في نسيجه، وكيف يراوح في تضاعيفه معارفَ ذات أثرٍ في ذاكرة المتلقي. كما يضيء في النص بما يدعو للإمتاع والإقناع والبحث والاكتشاف، في هذا المجال أو ذاك. الناقد هنا هو القارئ «الأعلى» الذي يقول للقارئ «المنتظر» ما يُثْري لا ما يُرْبك، وما يعلِّم لا ما يُبْهِم. والنص يرتسم على الذاكرة، ويسعى إلى تحقيق هدفه المتمثل ـ على حد تعبير رولان بارت[٦] ـ بـ «جَعْلِ القارئ منتِجًا للنص لا مستهلِكًا له.» يتعامل النقد مع العمل الأدبي على أنه مشروع لإبداع مستجدٍّ، فلا يكتسب أهميتَه من اكتشافه لعلاقات العمل الفني فقط، وإنما «تَكْون للنص النقدي [أيضًا] إشعاعاتٌ ذاتيةٌ تنبثق بما يَحْمله من حنين إلى طرح الأسئلة الجوهرية المرتبطة بالوجود وبحياة الإنسان ومصيره.»[١] إنّ قراءة النص ـ أيّ نص ـ

---

١ ـ خالدة سعيد، **حركية الإبداع** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٩)، ص ٢١٠.

٢ ـ أدونيس، **زمن الشعر** (بيروت: دار العودة، ط ٢، ١٩٧٨)، ص ١٠٥.

٣ ـ شربل داغر، **الشعرية العربية الحديثة** (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨)، ص ٨٥.

٤ ـ فخري صالح، **عين الطائر** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢)، ص ١٢٧. وهذا الكلام، على صدقه، بحاجة إلى توضيح من خلال نماذج يسيرة.

٥ ـ انظر مقالة مرشد الزبيدي، «المناهج النقدية،» مجلة **الأقلام**، العدد ١ ـ ٤ / ١٩٩٧، ص ٣٦. وهو يستقي المصطلح من الناقد جيوم ستوليتر «contextual» الذي يتناول الظروف والسياقات الخارجية عن النص.

٦ ـ Roland Barthes, **S/Z** (NY: Hill & Wang, 1970), p. 4.

تحتاج إلى ما أسمته اعتدال عثمان «قراءة استنطاقية» تُسهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يَحْملها أو يتحمّلها الخطابُ. ويتطلب ذلك شحذًا لإرادة القارئ ولقدرته على البناء. ومن خلال عملية تحليل الأفكار وتركيبها يبدأ القارئ في فعل الاختيار، فتتقدم أفكارٌ وتتراجع أخرى، وتَبْرز جوانبُ وتَخْفُت غيرُها، بما يَؤُول في التالي إلى بناءٍ جديدٍ لأفكار النص ولطريقة التعبير عن أفكاره؛ «ويتفاوت البناء في تماسكه وقدرته على الكشف كما تتفاوت كيفيةُ البناء في كل قراءة جديدة.»[٢] ولا ضرورة لأن يَلْتزم الناقدُ منحًى أو منهجًا ثابتًا، وإنما يصبح نقدُ النص ـ في هذه الرؤية التي أطرحها ـ حوارًا جدليًا بين الناقد والنص، يقول الواحدُ للآخر ما يثري تجربةَ المتلقي وما يُوضح أمامه معالمَ الطريق. وقد يكون النقد خدمةً قرائيةً من خلال التفسير، أو من خلال تنبيهِ المتلقي إلى نقطة الإثارة أو المفاجأة، أو من خلال الإشارة إلى بؤرة النص أو ذروته. ولكلّ نص مفتاحُه. من هنا، فإنّ تصوُّرَ التحليل النصي ينحو إلى أن يكون فعلَ قراءةٍ وإدراكًا جماليًا لا يَلْتزم بمقصد الشاعر عند كتابة نصه.[٣] و«لموجات القراءة،» كما يقول حاتم الصكر، أثرٌ في تحليل النص مادام متصلاً بعوامل أخرى ذات علاقة بهيئته: بدءًا من العنوان، وانتهاءً بالظروف التي تتعلّق به، وتتضمن حتى النقاطَ والفواصلَ وما إلى ذلك. وإذا تابعنا هذا التصورَ القرائي فإنّ الناقد «يضع يديْه على بؤرة مولِّدة للنص تشعّ في مركزه المتخيّل وتنتشر إلى أطرافه وزواياه... وفي هذا المجال يَجْدر أن نفرِّق بين الجوانب الفنية والجمالية: فالفنية تتصل بالمزايا الداخلية للنصّ وطرائقِ تنظيمه وعلاقاتِ عناصره؛ أما الجمالية فتتعلق بقراءته وإظهارِ معانيه وأبنيته، إلى جانب معرفة القارئ وما اكتسب من مهارةٍ ونقد.» وانفتاح النص يعني لديه تعقُّبَ ما يحتويه من استعانة بالسرد، أو الوسائل الفنية المستعارة من ميادين أخرى كالموسيقا والسينما، لما لها من أهمية في تشكيل وعي الأديب والمتلقي معًا.[٤]

إنّ النص الأدبي سيظل موضوعًا أساسًا في النشاط النقدي. وهذا النص، كما يرى عبد الملك مرتاض: «... مطروح أمامنا في صورته النهائية بكل أبعاده الفنية والجمالية والإيديولوجية. ومن العبث تناولُ الإيديولوجيا وحدها، أو المنحى الجمالي وحده، أو الجانب التقني وحده... فلتكن نظرتُنا إلى النص الأدبي نظرةً شمولية.»[٥]

أما «النقد البحثي» فهو الذي يَدْرس موضوعةً أو جزئيةً ما دراسةً أكاديميةً محايدةً، تحلِّل وتعلِّل من غير تدخّل مباشر للباحث. ويبدو أنّ شبكة الإنترنت ستقدِّم خدمتَها وتوجيهَها بصورة أكبر وأوسع. فعندما يُقْبل الباحثُ على نقطة بحثه يستقصي المقالاتِ الواردةَ في الشبكة المتعلقة بما يبحثه، ويَعْرف من خلال ذلك أنّ عليه أن يأتي بالجديد، لا أن يطحن الطِّحن، وأنّ عليه أن يقول مقولتَه واضحةً وذاتَ رسالةٍ بيِّنة، يعبِّر عنها بأسلوب منظّم ومتساوق، بحيث تُمْسك العبارةُ بيدِ أختها لتسيرا بيُسْرٍ إلى محطة الوصول، أيْ غاية الكتابة، ويكون ذلك بأداءٍ منظَّم مؤدٍّ إلى معنى يمكن أن يَعْتمد عليه متلقٍّ آخرُ في معالجة نقطةٍ أخرى. يختار الناقد الباحث موضوعَه الذي له علاقة به ـ أعني أن تكون له خلفيةٌ ما عنه. ومن الطبيعي أن يَذْكر استعراضًا لما كان قد تناوله السابقون في الميدان الذي يخوضه[٦] ـ فالأمانة تقتضي أن يعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه من الذكر والإشارة. ومن شأن الناقد في «النقد البحثي» أن يميِّز بين الجوهري والهامشي في المصادر والمراجع التي أفاد منها، ثم يختصر ويلخِّص، ويبني نظامًا لحجّته وكيف يؤديها خطوةً خطوةً. بل يطوّر قدرةً ومهارةً في تنظيم مادته وإدماج مادة بأخرى تبعًا لنشدته. ولا بدّ، أولاً وأخرًا، أن يَعْمد إلى الدقة والمراجعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

هذان التوجهان النقديان هما من طبيعة عصرنا العتيد الذي يستلزم الدقة والمعنى الموجَّه والموجِّه، وهما يقدِّمان المتعة والفائدة المعرفية معًا. وبالتالي يَخْرج الخطابُ النقدي إلى فضاء الثقافة والفكر والمجتمع، ويشارك في توليد المعاني المحتملة المشروطة بالقرائن والإشارات المبثوثة في النص. إنّهما لا يلغيان المدارس الألسنية أو سواها مما هو قائم في النقد عامةً في الغرب ومتابعةً له لدى نقادنا العرب. كما لا يلغيان التفاعلات التناصية والتعالقات هنا وهناك. فمثل هذه تُثْري تجربةَ النص إذا استُخدمتْ بتوظيفٍ مبرِّرٍ وأكّدتْ دورَ المتلقي العادي ـ الذي يبحث عن وعي من خلال قراءته، ويبحث عن سبب لاكتساب رؤية للعالم لا تنفصل عن العصر، بل تعبِّر عنه بصور باهرة غير مطروقة.

❖ ❖ ❖

وبعد، فهذا تصوُّرٌ ذاتي لما نحن مقبلون عليه، لا يدّعي أنّه الأوحد. إنّه قراءة لسيرة النقد، ونقدٌ لبعض اتجاهاته الغائمة والمبهمة، ودعوةٌ إلى أن نتلمّس النصّ، نحسّه أو ندركه أو نتذوّقه، أو كما قال البحتري بعد أن اغتلى ارتيابُه أمام التصوير في الإيوان: «.... تتقرّاهمُ يداي بلَمْسِ.»

باقة الغربية (فلسطين)

---

١ ـ Edward Said, **The World, the Text, the Critic** (Cambridge, Mass: Harvard Univ. Press, 1983), p 122.

٢ ـ اعتدال عثمان، **إضاءة النص** (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٨)، ص ١٠٨.

٣ ـ ٤ ـ حاتم الصكر، **ترويض النص** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

٥ ـ عبد الملك مرتاض، «المبادئ العشرة لقراءة النص،» صحيفة **الرياض**، ١٨/٣/ ٢٠٠٤.

٦ ـ فاروق مواسي، **أدبيات ـ مواقف نقدية** (القدس، ١٩٩١)، ص ١٧.

الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٥)

نتابع الحلقة الخامسة من هذه السلسلة بعد إسهامات: سلامة كيلة، وياسين الحاج صالح، وعبد الغفار شكر، وأحمد بهاء الدين شعبان. وسيليها في العددين القادمين إسهاما: رفعت السعيد، ومصطفى مجدي الجمّال.

الآداب

نايف سلّوم*

نشأة الحركة الشيوعية العربية: عيبان

ترافقتْ نشأةُ الأحزاب الشيوعية العربية مع عيبيْن لازما تطوُّرَها بدرجات متفاوتة، وحسبَ مسار كلّ حزبٍ قُطْري. وكانت نشأةُ الحركة الشيوعية في فلسطين بدايةَ عشرينيات القرن العشرين هي المهيمنةَ على هذه المستوى، وأثّرت بشكل لافت في مجمل الحركة الشيوعية العربية في المشرق العربي بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا.

العيب الأول مرتبطٌ بنشاط الأممية الشيوعية في ما يخصّ المسألةَ الكولونياليةَ والقوميةَ في فلسطين، والسيطرة اللاحقة للبيروقراطية الستالينية على الأممية الشيوعية وتحويل هذه الأخيرة إلى جهاز بيروقراطي للسيطرة على الأحزاب الشيوعية القومية وإلحاقها بـ «المركز» الروسي.

أما العيب الثاني فمرتبط بالنشاط الصهيوني العمّالي في فلسطين، والقادم من النشاط الصهيوني في روسيا بداية القرن العشرين. ذلك أنّ جذور الحركة العمّالية اليهودية في فلسطين تَرْجِع، بشكل أساسي، إلى الجناح الصهيوني العمّالي (بوعالي تسيون) داخل الحركة العمّالية اليهودية في روسيا القيصرية. فهذا الجناح كان ينطلق من إمكانية الجمع بين الصهيونية والاشتراكية، ويدعو العمّالَ اليهودَ إلى الهجرة إلى فلسطين وتصدُّرِ النضالِ من أجل «ضمان الاستقلال الإقليمي للشعب اليهودي في فلسطين» وإيجاد حلّ «اشتراكي» للمسألة اليهودية. وعلى هذا الأساس قرَّرتْ مجموعةٌ من أنصار ذلك الجناح الروسي في مطلع القرن العشرين الانتقالَ إلى فلسطين للمساهمة في عملية «التجميع الإقليمي للشعب اليهودي،» والنضالِ من أجل ضمان نجاح الحلّ «الاشتراكي» للمسألة اليهودية.[١]

يقول ماهر الشريف: «لم تنشأ الحركة الشيوعية الفلسطينية في مطلع العشرينيات بين صفوف السكّان العرب الفلسطينيين، وإنما نشأتْ بين صفوف الأقلية الاستيطانية اليهودية المرتبطة بالمشروع الصهيوني، على أثر الانشقاق الذي وقع، في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتصارِ ثورة أكتوبر الاشتراكية، داخل صفوف الحركة العمّالية اليهوديّة في فلسطين.»[٢] فقد اعتبر الشيوعيون الفلسطينيون «أنّ الطبقة العاملة الفلسطينية، من خلال جبهتها الأممية الموحَّدة اليهودية ـ العربية، هي القوةُ الوحيدةُ القادرة على تجاوز 'التناقض القومي' في البلاد والسعي من أجل حلّ معضلات المسألة القومية الكولونيالية في فلسطين.»[٣] لم يلاحظ الشيوعيون اليهودُ أنّ التناقض على أرض فلسطين لا يُمْكن حلُّه عبر جبهة عمّالية متحدة مزعومة بين مهاجرين يهود مستوطنين وبين سكّان فلسطين من الفلاّحين والحِرَفيين التقليديين وبعضِ عمّال المشاغل. ولم تَفْشل الجبهةُ العمّاليةُ المتحدة نتيجةَ تدنّي الوعي الطبقي عند العمّال العرب كما يزعم ماهر الشريف، بل جاء الفشلُ الذريعُ من الطابع القومي ـ الصهيوني للحركة العمّالية اليهودية كما يقول هو ذاته. بل الحقّ أنّ الجبهة العمّالية والطبقوية في فلسطين كانت تصبّ الماءَ في طاحونة الإستراتيجية الصهيونية، أي في الهجرة اليهودية وتثبيتها. «فالهجرة اليهودية إلى فلسطين جَلَبَتْ معها هذا التناقضَ المستحيلَ الحلِّ على أرض فلسطين. وقد حاول الحزبُ الشيوعي الفلسطيني تفسيرَ ظاهرة هيمنة النزعة القومية على الحركة العمّالية اليهودية بالرجوع إلى ظروف تشكّل الطبقة العاملة اليهودية في فلسطين،»[٤] متناسيًا أنّ الهجرة اليهودية هي السرّ وراء هذه النزعة ووراء التناقض المستعصي. فقبل «انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وقبل صدور وعد بلفور، كان الخطر الرئيسي من النزعات القومية الانفصالية

---

* ـ كاتب سوري.

١ ـ ٤ ـ د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩ ـ ١٩٤٨، الوطني والطبقي في الثورة التحررية المناهضة للإمبريالية والصهيونية** (مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ١٧، ٣٥، ٣٧، ٤٠.

بين أوساط العمّال اليهود في روسيا يتجسّد في الأفكار التي كان يُشيعها 'البوند،' حيث كان تأثيرُ هذا الحزب في صفوف البروليتاريا اليهودية يزيد عن تأثير مختلف المجموعات الصهيونية الاشتراكية مجتمعةً.»(١)

وطوال العشرينيات من القرن العشرين بقيتْ مسيرةُ الحركة الشيوعية في فلسطين محكومةً بخصوصية النشأة هذه. «فمع أنّ الحزب الشيوعي [في فلسطين] استطاع استقطابَ وتنظيمَ عددٍ من العمّال العرب، اعتبارًا من عام ١٩٢٤ بعد تبنّيه شعارَ 'التعريب،' كما ساهم في النضالات المعادية للإمبريالية والصهيونية، والتي كانت تخوضها الجماهيرُ العربية، وسعى إلى إقامة جبهة متّحدة معادية للإمبريالية مع قيادة الحركة الوطنية العربية، إلاّ أنّه بقي طوال تلك المرحلة... حزبًا 'يهوديًا' في تركيبه وتوجُّهه.»(٢)

لدخول الأممية الشيوعية اشتَرَطتْ هذه الأخيرةُ على الحزب الشيوعي في فلسطين تشكيلَ جبهة متّحدة مع الحركة القومية العربية الفلسطينية، و«تعريبَ» الحزب عبر استقطاب وتنظيم عمّالٍ عرب في صفوفه. واعترفت اللجنةُ التنفيذيةُ للأممية الشيوعية، في فبراير ١٩٢٤، بالحزب الشيوعي الفلسطيني، ووافقتْ رسميًا على قبوله في صفوف الحركة الشيوعية العالمية بعد أن اشترطتْ على قيادته التقيُّدَ بالشرطيْن التالييْن: الأول هو السعي من أجل إقامة أوثق الصلات مع أوسع الجماهير العربية، بغيةَ تحويل الحزب من منظمة مقتصرة على الثوريين اليهود إلى حزب قُطْري حقيقي يمثّل طليعةَ العمّال العرب واليهود في فلسطين. أما الثاني فهو تقديم كافة أشكال الدعم لحركة التحرر الوطني للسكّان العرب، في نضالها ضد الاحتلال البريطاني ـ الصهيوني.(٣) غير أنّ هذيْن الشرطيْن كانا في الحقيقة يَعْملان على خدمة الهدف الصهيوني الاستيطاني، إذ كانا يعطيان شرعيةً للهجرة اليهودية ويثبِّتانها حين لم تأْخذ الأمميةُ الشيوعيةُ في حسابها خصوصيةَ المسألة القومية والكولونيالية في فلسطين.

الاختراقات الصهيونية للشيوعية

كان النشاط الصهيوني واضحًا عبر اختراقاته للأممية الشيوعية في ما يخصّ جامعة كادحي الشرق، وعبر المندوبين الذين كانت تُرسلهم للمساعدة في تأسيس أحزاب شيوعية جديدة. يَكْتب رفعت السعيد في هذا الصدد أنّ الكومنتيرن كان يقدِّم نوعًا من العون السياسي والتنظيمي للأحزاب الحديثة التأسيس. ومن هؤلاء المبعوثين إلى المنطقة العربية: «أبو زيام (حيدر)، اسمُه الحقيقي وولف أورباخ، يهودي روسي، أحد خبراء ومبعوثي الكومنتيرن إلى البلاد العربية. أُرسل إلى فلسطين عام ١٩٢٢ وساهم في تأسيس وقيادة الحركة الشيوعية هناك ما بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٩. شمل نشاطه الحزبَ الشيوعي في سوريا ولبنان.»(٤)

ومنهم أيضًا: «بييرجيه (ي. بيرغر). اسمُه الحقيقي جوزيف ميكائيل زيلسنيك. يهودي بولوني، معروف باسم بارزيلي من خبراء الكومنتيرن ومبعوثيه إلى فلسطين عام ١٩٢٠، ومن ثم إلى سوريا ولبنان. عاد إلى موسكو ١٩٣٢. فيما بعد صار رئيسًا لقسم الشرق الأوسط في معهد فارغا للشؤون الاقتصادية والسياسية والعالمية... تحوّل إلى صهيوني.»(٥)

وهناك «يعقوب تيبر (شامي): خبير في شؤون البلاد العربية لدى الكومنتيرن، ومبعوثٌ من قبله إلى فلسطين. ساهم في تأسيس وقيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني. شمل نشاطُه الحزبَ الشيوعي في سوريا ولبنان. وُلد في روسيا ثم هاجر إلى بلجيكا حيث التحق بالحزب الصهيوني العمالي (بوعالي تسيون) ثم التحق بالشيوعية وأُرسل من قبل الكومنتيرن إلى فلسطين ثم سوريا.»(٦)

ومن المبعوثين أيضًا: «أفيجدور (بهيل كوسي)، وُلد في أكرانيا عام ١٨٩٢ والتحق بالحركة الثورية في وقت مبكّر وهاجر إلى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية الأولى. التحق في أميركا بالفيلق اليهودي Jewish Legion الذي كان قيدَ التأليف وقتئذ، ثم ذهب إلى فلسطين لوقت قصير عام ١٩١٨، وأقام في مصر عامًا ونصف العام، ثم عاد إلى روسيا. أُرسل إلى مصر مرتين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ لينظِّم أو، بعبارة أدقّ، ليبلشف الحزب الشيوعي المحلي.. وقد صار معروفًا كثقة في شؤون مصر. ثم أُرسل عام ١٩٣٢ ليتجول في الشرق الأوسط ويفتِّش على الأحزاب المحلية.»(٧)

ونَذْكر من المؤسسين للحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) أو الميلاد الثاني للحركة الشيوعية في مصر: هنري كوريل، ومارسيل إسرائيل، و هليل شوارتز، وهي شخصيات يهودية بورجوازية عاشت

---

١ ـ د. ماهر الشريف، **الأممية الشيوعية وفلسطين ١٩١٩ـ ١٩٢٨** (بيروت: دار ابن خلدون ١٩٨٠)، ص ١٠٧.

٢ ـ ٣ ـ د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية**، مرجع مذكور، ص ١٧، ٢٥.

٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ فؤاد الشمالي، **كتابات مجهولة**، تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب (دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٠، الطبعة الثانية ٢٠٠١)، ملحق (١): تعريف موجز ببعض الشخصيات الوارد ذكرها في كتاب [فؤاد الشمالي]: أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية، ص ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠.

٧ ـ د. رفعت السعيد، **اليسار المصري ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٧٢)، ص ١٢١.

في مصر بين الحربين.[١] وقد ساهم هؤلاء بتأسيس الفرع السوداني للحركة، والذي سيشكّل أساس الحزب الشيوعي السوداني.

إنّ النزعة البيروقراطية للأممية الشيوعية بعد سيطرة ستالين عليها، وبعد سيطرةِ مصلحة الدولة السوفييتية الجديدة على مصالح الحركة الشيوعية في العالم، وعَمَى الأممية عن رؤية خصوصية المسألتين الكولونيالية والقومية في فلسطين، كل ذلك جعل تَسرُّبَ عناصر ملوَّثة صهيونيًا إلى الأممية الشيوعية ـ ومن ثم قدومهم إلى المشرق العربي ليُشْرفوا على تأسيس أحزاب شيوعية محلية ـ أمرًا غايةً في الخطورة والالتباس التاريخي. كما أدّى تشجيعُ النزعة الطبقوية والنقابية إلى نوع من العدمية القومية العربية، وإلى دعم خفيّ وأمميّ للمشروع الصهيوني، وإلى نفور الحركة القومية العربية من تلك النزعة ومن التعاون النقابي اليهودي ـ العربي. وبهذا الشكل تم التأسيسُ لأحد إشكالات الحركة الشيوعية العربية في المشرق العربي، وهي الانفصالُ بين الشيوعية والحركة القومية العربية، وتخفيضُ البرنامج السياسي للحركة الشيوعية العربية إلى برنامج مطلبي نقابي، وأخطاء كارثيةٌ أخرى في التعاطي مع قضية فلسطين كمشروع التقسيم وغيره.

يقول د. ماهر الشريف: «كانت الأمميةُ الشيوعيةُ تجابهُ في فلسطين مسألةً كولونياليةً ذاتَ خصوصيات معينة. فالقضية الفلسطينية، كمسألة كولونيالية، لم تكن نتيجةَ الصراع الدائر بين الإمبريالية وحركة التحرُّر الوطني للشعب العربي فحسب، وإنما نَتَجتْ [أيضًا] عن تصارع ثلاثِ قوى فوق الأرض الفلسطينية، وهي: الإمبريالية الانكليزية والحركة الصهيونية من جهة، والحركة القومية العربية الفلسطينية من جهة أخرى. وهكذا، كان ينبغي على الأممية الشيوعية أن تحدِّد موقفها تجاه كل من هذه القوى المتصارعة.»

وفي فترة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للأممية الشيوعية، انعقد في موسكو، بين ٣ و١٩ تموز ١٩٢١، المؤتمرُ العالمي الأول للنقابات الثورية، حيث تم تأسيسُ الأممية النقابية الحمراء تحت اسم «البروفينترن» ـ وهذه ثغرة أخرى سوف تستغلها الصهيونيةُ العالمية، حيث التآخي النقابيُّ العماليُّ بعيدًا عن التمايزات القومية.

وفي المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية أعْرب لينين عن اعتقاده بأنّ الرأسمالية العالمية قد دَخَلتْ في مرحلة الاستقرار الموقت «وأنّ على روسيا السوفيتية أن تتعايش، ولفترة من الزمن، مع بلدان أوروبا الغربية في محيط رأسمالي. وقد دعا لينين الحركةَ العمالية الثوريةَ إلى أن تسعى بنشاط في سبيل تحضير شروط انتصار الثورة الاشتراكية ودراسة مراحل تطورها بشكل دقيق وملموس في البلدان الرأسمالية المتقدمة.»[٣] وقد أكّد المؤتمر أنّ الأداة الثورية الكفيلة بإنجاز هذه المهام تتمثّل في الجبهة العمّالية المتحدة القائمة على أساس وحدة العمل والنضال بين جميع العمّال، بغضّ النظر عن انتماءاتهم السياسية وعن قناعاتهم الإيديولوجية. وقد طالب المؤتمرُ جميعَ الأحزاب الشيوعية بالسعي إلى إقامة مثل هذه الجبهة،[٤] بغضّ النظر عن الخصوصية الكولونيالية والقومية لبلد من البلدان. وهذه نقطة أخرى سوف تَخْدم المشروعَ الصهيوني بطريقة آلية، ولن تخلق جبهةً متحدةً، بل المزيدَ من العداء بين العرب والمهاجرين اليهود، وتخلق المزيدَ من التباعد بين الحركة القومية العربية في فلسطين وغيرها وبين الحركات الشيوعية في المشرق العربي.

لقد كانت التصريحاتُ الثورية التي تقول إنّ على البروليتاريا الثورية أن تَدْعم النضالَ المعادي للإمبريالية الذي تخوضه حركةُ التحرر القومي في البلدان المستعمرة والتابعة، ولكنْ بشرط النضال «ضد النزعة القومية العمياء،» والدعوةُ إلى إحلال روح الحقد الطبقي محلَّ روح الحقد العنصري... أقول كانت مثل هذه التصريحات تصبّ الماءَ في طاحونة المشروع الصهيوني عبر الدعوة إلى التعاون العربي اليهودي العمّالي. لقد كانت الحركة البروليتارية الصرفة الموجَّهة مباشرةً ضد المستثمرين الوطنيين والأجانب تلعب الدور الرجعي عينَه في ما يخصّ المسألة الكولونيالية والقومية في فلسطين. وهذا ما دعا المندوبَ السوفييتي مانويلسكي، رئيسَ اللجنة الخاصة المكلَّفة بصياغة تقرير عن المسألة القومية والكولونيالية، في المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية عام ١٩٢٤، إلى انتقاد الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة والتابعة، واتهمها بأنها قد جابهتْ باستحياءٍ بالغٍ خلال الفترة السابقة المسألةَ القوميةَ والكولونياليةَ. وأكّد أنّ نقص الاهتمام الذي أولاه الشيوعيون لهذه المسألة قد أدّى إلى ترك قيادة الحركة التحررية المعادية للإمبريالية تُفْلت من أيدي الشيوعيين، وتعود إلى أيدي العناصر البورجوازية القومية. كما انتقد مانويلسكي نقصَ الاهتمام الذي تُوليه الأحزابُ الشيوعيةُ الأوربية للمسألة القومية والكولونيالية، وحذّرها من خطر «وجود بقايا اتجاهات اشتراكية ـ إمبريالية بين صفوفها.»

والحال أنّ مسارَ الحركة الشيوعية في فلسطين قد أثّر في كافة الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي، إذ حُرِمت الحركةُ الشيوعيةُ من قيادة الحركة القومية العربية بسبب بيروقراطية الأممية الشيوعية وسيادة النزعتين النقابية والطبقوية في الحركة الشيوعية العالمية، نتيجةً لتأثير المركز الروسي في الأحزاب الشيوعية والقومية.

دمشق

---

١ ـ راجع: **أوراق هنري كوريل والحركة الشيوعية المصرية**، دراسة بقلم د. رؤوف عباس، ترجمة عزة رياض (سينا للنشر الطبعة الأولى ١٩٨٨).

٢ ـ ٤ ـ د. ماهر الشريف، **الأممية الشيوعية وفلسطين ١٩١٩ ـ ١٩٢٨**، مرجع مذكور، ص ١٢، ٣٧، ٣٨، ٤٢.

الذاكرة المفقودة: من اختراع «فلسطين» إلى اكتشاف «لبنان» ——— هشام البستاني*

لم يستفزّني شيء منذ زمن، بقدْر ما استفزّتْني ندوةُ «مستقبل العلاقات السورية ـ اللبنانية» المنشورةُ في العدد الماضي من الآداب. ولأنّ المشاركين في الندوة سوريون ومثقفون تحديدًا، فقد هالني ما وَرَدَ من معلومات خاطئة وتركيب تحليلاتٍ سياسية بناءً عليها، وكأنّ اتخاذَ موقفٍ معارضٍ ضد نظامٍ ما (هو هنا النظام السوري) يستدعي أوتوماتيكيًا تبنّي مقولة «عدوُّ عدوّي صديقي» في سياقٍ إطلاقيّ.

وفوق كل ذلك، يصبح «عدوُّ العدوّ» هذا نازلاً من المرّيخ ومفصولاً عن التاريخ، بلا ماض ولا تنطبق عليه قوانينُ النشوء والتطور. بل ويصبح ضروريًا على «السوري» أن يأخذَ صكَّ براءةٍ من «سوريته» وأن يزاودَ على المزاودين حتى لا «يطلّع برّه» ـ لا خارج «لبنان» فقط (فهذا حاصلٌ لا محالةَ) ولكنْ خارج «الوعي اللبناني» أو «الوعي بلبنان» الذي هو بالضرورة انعكاسٌ للوعي بـ «سورية» والوعي بـ «فلسطين» والوعي بـ «الأردن»، أي الوعي المزوّر بالقُطْر كمشروع وطني منفصل السياق عن التاريخ والجغرافيا وحتى المصلحة. وهكذا تتموضع هذه «المنظوماتُ» لا بصفتها امتدادًا بعضها لبعض بل بوصفها وحداتٍ منفصلةً، دولَ جوارٍ، مثلّها مثل «إسرائيل.»

إنّه وعيُ القُطْر ومشروعُ القُطْر، الذي تَحوَّل الآن ليصبح شعارَ المرحلة وبرنامجَها. وهو المدخل الأساسي لإعادة تشكيل الجغرافيا، التي هلّل لها كولن پاول قبل الغزو الأميركي للعراق: تفكيك «وعي الوطن» إلى «وعي الكانتون والطائفة،» وتفكيك الإقليم إلى أطراف، وتقسيم هذه الأخيرة الى هوامش، وتركيبها جميعًا على المركز الوحيد: «إسرائيل.»

❖ ❖ ❖

الفيلم: تذكار (Memento).[1] يبدأ هذا الفيلم، بخلاف المعتاد في الأفلام، من النهاية، وينتهي عند البداية. بطل الفيلم مصابٌ بمرض نادر: إذ لا تَحْتفظ ذاكرتُه بأيّ شيء إلا لدقائق، ثم تختفي الأحداثُ والأشخاصُ إلى الأبد. ولذلك فهو يَعْمد إلى تسجيل الأشياء الهامة على قصاصات ورقية، ويصوِّر كلَّ شخص يلتقيه بكاميرا الپولورويد، مسجِّلاً على وجهها الآخر اسمَ الشخص وانطباعَه عنه. أما الحقائق «المُطْلقة» في نظره، فيسجِّلها بالوشم على جسده. فلنبدأْ، من البداية، إذن.

«البلدان الجاران،» يا جماعة الخير، ليسا «بلديْن» أصلاً! وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى البلديْن الجاريْن الآخريْن اللذيْن يقعان جنوبَ «البلديْن الجاريْن.» أيَتْذكّر أحدٌ منكم شيئًا اسمُه: سورية؟ أمْ أنّ عقلنا القُطْري لم يعد يستوعب من هذه الكلمة سوى القُطْرِ الذي يَحْمل هذا الاسمَ نفسَه؟

❖ ❖ ❖

فلاش باك ١: اتفاقية سايكس ـ بيكو، ٩ أيار (مايو) ١٩١٦:

المادة الأولى: إنّ فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدّتان لأن تعترفا وتحميا دولةً عربيةً برئاسة رئيس عربيٍ في المنطقتين «أ» (داخلية سوريا) و«ب» (داخلية العراق)... يكون لفرنسا في منطقة (أ) ولإنكلترا في منطقة (ب) حقُّ الأولويةُ في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظّفين الأجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يُباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية) [أيْ ما يسمّى الآن لبنان]، ولإنكلترا في المنطقة الحمراء (منطقة البصرة)، إنشاءُ ما ترغبان به من شكل الحكم، مباشرةً أو بالواسطة، أو ما ترغبان به من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة: تُنشأ إدارةٌ دوليةٌ في المنطقة السمراء (فلسطين)، يعيَّن شكلُها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بقيّة الحلفاء وممثّلي شريف مكة.

المادة التاسعة: من المتَّفق عليه أنّ الحكومة الفرنسية لا تُجري مفاوضةً في أيّ وقت للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء [لبنان] لدولةٍ أخرى سوى للدولة أو لحلف الدول العربية، بدون أن توافق على ذلك مقدَّمًا حكومةُ جلالة الملك التي تتعهد بمثل ذلك للحكومة الفرنسية في المنطقة الحمراء.[2]

سوريا الساحلية؟

يا الله ما أبعدَ عامَ ١٩١٦ عنّا! ربما يذكّرنا المعلِّم أبو سليمان، جدُّ نزيه أبو عفش، بأنّه لم يكن يذهب إلى «لبنان،» بل كان يذهب «قِبلي.»[3] وربما يذكّرنا جدّي صبحي عبد القادر البستاني عندما

* ـ كاتب وطبيب أسنان من الأردن، وناشط ضد التطبيع والعولمة الرأسمالية.

١ ـ Memento، إخراج: كريستوفر نولان، بطولة: غاي پيرس وكاري آن موس وجو بانتوليانو، إنتاج سنة ٢٠٠٠.

٢ ـ نقلاً عن: ثائر دوري، «إعادة تشكيل المشرق العربي،» **كنعان** (النشرة الإلكترونية)، العدد ٦١٣، ٤ أيار ٢٠٠٥ www.kanaanonline.org/articles/00613.pdf

٣ ـ نزيه أبو عفش، «١١ سبتمبر الثاني: يوميات العار،» الآداب، العدد ٣ ـ ٥، ٢٠٠٥، ص ١٠.

هَرَبَ من دمشق إلى عمّان عامَ ١٩١٦، إنقاذًا لرأسه من الإعدام عبر ميناءَيْ بيروت وحيفا، بأنّ أحدًا لم يستوقفْه ليقول له «وين رايح،» ولم يُطْلب منه أيُّ شاويشٍ حدوديّ إبرازَ جوازِ سفر وتأشيرة! وربّما نتذكّر أنّ ثمة عائلةً كبيرةً تَسْكن سهولَ حورانَ هي عائلة «الزعبي،» قَسَّمَها المدعوّان سايكس وبيكو إلى قسمين: أحدُهما جاء حظُّه أسفلَ الخطِّ وتحوّل تلقائيًا إلى «أردني» (يتمركز أفرادُه حاليًا في مدينة الرمثا)، والقسم الآخر فوق الخط تحوّل مباشرةً إلى «سوري» (يتمركز أفرادُه في مدينة درعا)... مع أنّ القسميْن عائلة واحدة!

تُرى هل زار أحدُكم الجامعَ الازهر؟ فهناك غرفٌ مخصّصة لطالبي العلم أيامَ كان الجامع جامعًا، والطلبةُ يتوزّعون فيها بحسب منطقتهم الجغرافية. سألتُ الدليل السياحي: «أين كان يَدْرس الطلبةُ الأردنيون؟» فأجاب: «هناك في تلك الغرفة، إلى اليسار من باحة الجامع.» و«السوريون؟» سألتُ. «في نفس الغرفة،» أجاب. ازدادت دهشتي: «واللبنانيون والفلسطينيون؟». أجاب دون أن يرفّ له جفن: «في الغرفة ذاتها. إنّها غرفة الشوام!»

❖ ❖ ❖

فلاش باك ٢: مقطع من تقرير لجنة كِنْج ـ كراين ١٩١٩/٨/٢٨:

اتّضح لهذه اللجنة أنّ الشعور العدائي نحو الصهيونية ليس قاصرًا على فلسطين فحسب بل يَشْمل سكّانَ سوريا بوجه عامّ؛ ذلك أنّ ٧٢ في المائة من مجموع العرائض التي تناولتها اللجنةُ في سوريا مضادّةٌ للصهيونية، ولم يَنَلْ مطلبٌ نسبةً أعلى من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال.[١]

الفيلم: «سِجِلّ شعب.»[٢] يَظْهر فيه محمد عزّة دروزة ليذكّرنا بأنّ المقرَّر الأول للمؤتمر العربي الأول في مواجهة وعد بلفور وقراراتِ التقسيم كان أنّ فلسطين هي جزء لا يتجزّأ من سورية، وأنّ المؤتمر يطالب باستقلال سورية ككل وكوحدة واحدة.

الآن لا أحد يتذكر. لا أحد **يريد** أن يتذكر. وثمة أجيالٌ تربّتْ على فكرة صهيونية تقول إنّ «فلسطين» أرضٌ «متميزة» عمّا حولها ومنذ الأزل، وإنْ لا امتدادَ بين هذه الأرض وما حولها من مناطق. تُرى لمصلحةِ مَنْ فصلُ جنوب سوريا عن وطنها الأم وإعلانُها كيانًا عابرًا للتاريخ والجغرافيا؟

❖ ❖ ❖

فلاش باك ٣: من مقرَّرات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، القدس (١٩١٩/١/٢٧ ـ ١٩١٩/٢/١٠):

إنّ فلسطين هي جزء من سوريا العربية، وهي لم تنفصلْ عنها في أيّ وقت من الأوقات، ونحن مرتبطون بها بروابطَ قوميةٍ ودينيةٍ ولغويةٍ وطبيعيةٍ واقتصاديةٍ وجغرافية. إنّ مقاطعة جنوب سوريا [أي فلسطين] يجب ألاّ تنفصل عن الحكومة العربية السورية المستقلة، ويجب أن تكون حرةً من الحماية والهيمنة الاجنبية.[٣]

نَغْرق في التفاصيل، وفي الأعلام الوطنية الكذّابة. لِمَ «نَنْعمي» حين تضيق العبارةُ وتتّسع الرؤية (لعلّها الرؤيا)؟ «راجع، راجع يتعمّر، راجع لبنان»؟؟ أتعتقدون أنّ ذلك سيتحقّق بمجرّد أن يحطَّ عون على أرض بيروت قادمًا من بلاد مستعمريه السابقين ليتبجّح بأنّ «التحرير» قد تحقّق في الكونغرس الأميركي ومجلس الأمن بقانون محاسبة سورية والقرار ١٥٥٩، وبأنّ مقتلَ الحريري لم يفعلْ شيئًا سوى أنّه «سَرَّعَ» هذا التحرير؟![٤] ها هو عون بإشارة مباشرة يدلّنا على المستفيد الأول، وربما على الفاعل. وها هي جثّةُ الحريري تتحول إلى مطيّةٍ لحلفاء ـ فرقاء: طائفيين وفاشيين واشتراكيين وديموقراطيين ورأسماليين وحلفاء لإسرائيل وحلفاء لأميركا وحلفاء لفرنسا، كلُّ ما يَجْمعهم هو عداؤهم للذاكرة، ذاكرةِ الحرب، ذاكرةِ تحالفاتهم السابقة والحالية، ذاكرةِ الدماء التي ما زالت ساخنةً على أنصال الفؤوس والسكاكين، وذاكرةِ الوطن ... لا القُطْر.

«لكيْ لا ننسى»؟؟ والأرقام تتوالى على شاشة تلفزيون «المستقبل،» لأنّه في اللحظة التي ستتوقف فيها هذه الأرقامُ خمسَ دقائق متوالية، سيَفْقد البطلُ الذاكرةَ، وسينسى كيف يقوم حزبُ البيك «الاشتراكي» بالسعي إلى الإفراج عن سمير جعجع، وإلى التحالف مع تيّاره. وسينسى كيف أنّ أصحابَ قناة المستقبل وتيّارهم يتحالفون هم أيضًا مع الفاشية الطائفية. وسننسى مَنْ وقف أمام الكونغرس ليستقوي بالغريب ويتمِّمَ زواجَ الاستبضاع. وسننسى معتقلَ الخيام وصيحاتِ الألم التي كانت تؤرّق أهالي الضِّيَع المجاورة. وسننسى قانا. وسننسى صبرا وشاتيلا. وسنسوِّي وسطَ بيروت بالأرض، لتَنْهض ذاكرةٌ جديدةٌ باريسيةٌ. وسننسى حجّةَ البطريرك إلى واشنطن. وسننسى عُمّالاً مساكين رُمُوا إلى حتفهم من فوق بنايات شَيّدُوها بعرقهم.

نسي حسين العودات كلَّ ذلك، وأصبح تحالفُ الرأسمال مع الطائفية والفاشية «حركةَ احتجاج ديموقراطيةً أصيلة.»[٥] ونسي ميشيل كيلو كلَّ ذلك، مصرِّحًا بـ «أنّ الكلام الذي قيل بلسان المعارضة اللبنانية أكّد أنّها لا ترى نفسَها في السياق الأميركي،»[٦] وبأنّ «أميركا ليست وراء الديموقراطية الفلسطينية واللبنانية»[٧] (أية ديموقراطية؟ ديموقراطية الطوائف والميليشيات والاحتلال؟!)

«السوري» حسين العودات يصف ما يجري بأنّه «عودةُ لبنان إلى لبنان،»[٨] بينما «السوري» ميشيل كيلو يصبح أكثر تشاؤمًا بعد مظاهرة تأييد المقاومة (٨ آذار) لأنّه استنتج أنّ الجيش السوري سينسحب حقًا «لكنّ سوريا لن تنسحب.» هكذا إذًا: لا يُعْجبكم انسحابُ الطبقةِ الحاكمة القُطْرية وأدواتِها الأمنية، بل تريدون انفكاكًا شاملاً شعبيًا/مجتمعيًا/اقتصاديًا، وانسحاب سوريا من سوريا وعودة لبنان إلى ذاكرةٍ مخترَعة؟ والمعلِّم أبو سليمان، جدُّ نزيه أبو عفش؟ ربما آن أوانُ إلقائه من فوق إحدى بنايات السوليدير إلى حتفه الجميل.

---

١ ـ مكتب السجلاّت العامة ـ لندن، واردة في سجلاّت «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات http://nakba.sis.gov.ps/index.html

٢ ـ «سجلّ شعب،» سيناريو وإخراج قيس الزبيدي، إنتاج منظمة التحرير الفلسطينية.

٣ ـ http://www.aqsa.org.uk/chapterContents.aspx?id=44 نقلاً عن: A.W. Kayyali, **Patestine - A Modern History**, pp.60 - 3

٤ ـ **المستقبل**، الأحد ٨ أيار ٢٠٠٥.

٥ ـ ٨ ـ ندوة «مستقبل العلاقات السورية ـ اللبنانية،» الآداب ٣ ـ ٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

في مثل هذه الأيام من القرن الماضي، كانت الدولةُ القوميةُ قيدَ التشكّل، لا بفعل السياسة والمشاعر والشعارات، بل بالمفهوم المادي، وأعني: تشكُّل السوق القومية. وكانت عائلاتُ التّجّار الدمشقيين تتمدّد إلى خارج المركز الشامي لتستقرَّ في الأطراف، ولتفتحَ آفاقَ التجارة معها، فيتبلورَ أحدُ أهمّ أركان نشوء الدول القومية. وحتى هذه اللحظة تستطيع أن تجد أحفادَ هؤلاء التجّار في بيروت وإربد وجرش والكرك ونابلس، وصولاً إلى معانْ التي تنقسم حتى اليوم إلى حارتيْن: الحارة الشامية والحارة الحجازية. وتتكامل شبكةُ التجارة بين عرب الشام وعرب الحجاز إلى الجنوب والعراق إلى الشرق. ونحن الآن، بعد قرن من الهزائم والإحباطات، أصبحنا نتحدث عن انسحاب سوريا من سوريا وعودة لبنان الى لبنان، ويقارن عمر أميرلاي سوريةَ بالانتداب الفرنسي ويقول إنّ حزب الله هو «وكيلُ الانتداب السوري [!]»[1]

أين هي ماركسيتُكُم أيُّها اليساريون الديموقراطيون؟ لكنّ «حركة اليسار الديموقراطي» في لبنان تصرّح: «إنّنا ماضون في معركة انتزاع القرار الوطني اللبناني المستقلّ. وسننجح في ذلك، كما نجحتْ من قَبْلنا القيادةُ الوطنيةُ الفلسطينية، وعلى رأسها ياسر عرفات، في رفض مقولة 'فلسطين جنوب سوريا'، ومَضَتْ في معركتها لاسترجاع فلسطين [!]»[2]

❖ ❖ ❖

فلاش باك ٤: «فلسطين» في المفهوم الشعبي العربي قبل اختراعها:

• من قرارات المؤتمر السوري العامّ (١٩١٩/٧/٢): «نحن الموقِّعين أدناه، أعضاءَ المؤتمر السوري العامّ المجتمعين في دمشق في الثاني من تموز عام ١٩١٩، والمؤلَّفين من مندوبي مناطق سوريا الثلاث وهي المناطق الجنوبية والشرقية والغربية... أولاً: إنّنا نطالب بالاستقلال السياسي الكامل والمُطْلق لسوريا ضمن الحدود التالية: من الشمال، سلسلة جبال طوروس. من الجنوب، الخط الواصل من رفح إلى الجوف، متتبِّعًا الحدودَ السورية الحجازية أسفلَ العقبة. من الشرق، الحدُّ المشكّل من نهري الفرات والخابور، والخط الممتد من مسافة شرق أبو كمال الى مسافة شرق الجوف. ومن الغرب، البحر الابيض المتوسط ... سابعًا: إنّنا نَرْفض الادّعاءاتِ الصهيونيةَ لتأسيس دولة يهودية في ذلك القسم من جنوب سوريا المسمّى فلسطين، ونحن نعارض أيَّ هجرة يهودية إلى أيّ جزء من أجزاء البلاد. ثامنًا: إنّنا نطالب بأنْ لا يكون هناك أيُّ تقسيم لسوريا، أو أيُّ فصل لفلسطين أو المناطق الساحلية الغربية أو لبنان عن الدولة الأمّ، ونطالب بالحفاظ على وحدة البلاد تحت كل الظروف.»[3]

•• من قرارات المؤتمر الثاني للوطنيين العرب في فلسطين (١٩٢٠/٢/٢٧): «إنّ أهالي سوريا الشمالية والساحلية يَعْتبرون سوريا الجنوبية [فلسطين] قطعةً متمِّمةً لسوريا.»[4]

••• من مذكّرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في يافا (١٩١٩): «وأعجبُ من هذا أنّ فلسطين المسكينةَ التعسةَ المنكودةَ الحظّ صارت ألعوبةً بيد السياسيين تتناولها كما شاءت أهواؤهم. فإنّهم لم يكتفوا بتصريحاتهم بوجوب إعطاء فلسطين لليهود، بل جعلوا يقترحون اقتراحاتٍ لتبرهن لنا على [سلخ] الشعب العربي الموجود في فلسطين عن سورية وجعلها وحدةً سياسيةً منفصلة ـ ولعمري لا ندري ما هي الوحدة المنفصلة ـ تحت إشراف إنجلترا. فيكونون باقتراحاتهم هذه أولاً: قد أعطوا فلسطين لليهود. ثانيًا: جزّأوها وسلخوها عن سورية، وبانسلاخها قلَّ عددُها وكثُرَ عددُ اليهود وأصبحت لهم الأكثريةُ في كل شيء.»[5]

•••• من مذكّرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية (١٩١٩/٨/٢٠): «في مكاتباتنا السابقة طَلَبْنا عدمَ فصلِ فلسطين عن سورية، واحتجَجْنا على ما يُنوَى من تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود. وعندما زارت اللجنةُ الأميركية هذا البلدَ تأكّد لديها أنّ جميع سكان سورية، من الجنوب إلى الشمال، يَرْفضون بالإجماع قبولَ الحركة الصهيونية... ونَطْلب عدمَ فصل فلسطين عن سورية بحال من الأحوال.»[6]

لأنّنا ننسى، ولأنّ الفيلم يريد أن يذكّرنا بأنّ «البداية» هي الأساس، وبأنّنا لسنا بلا تاريخ، فإنّ علينا أن نسجِّل كلَّ ما ورد أعلاه بالوشم على أجسادنا، علّنا نتذكر يومًا بأنّنا لم نأتِ على ظهر صحنٍ طائر، ولم نتخلّقْ داخل أنبوبةٍ مخبريةٍ في ثقبٍ أسود. مَنْ هو، إذن، الذي يهوِّم خارج التاريخ؟ ومَنْ هو اللاواقعي؟ ومَنْ هو الذي «يناضل» من أجل محو ذاكرته ليولَدَ من جديد متطهِّرًا من آثام العروبة والجغرافيا... والتاريخ؟ أنحن حمقى إلى هذه الدرجة؟

«النَّوَرُ السوريون» هم نحن جميعًا يا صديقي نزيه أبو عفش... نحن جميعًا.

عمّان

---

١ ـ ندوة «مستقبل العلاقات السورية ـ اللبنانية،» الآداب ٣ ـ ٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

٢ ـ وارد في: سماح إدريس، «كي لا يكون الآتي أعظم،» المصدر السابق، ص ٣٧.

٣ ـ من قرارات المؤتمر السوري العام، ١٩١٩/٧/٢، وهو البرلمان السوري المنعقد أثناء إدارة الأمير فيصل، http://www.aqsa.org.uk/chapterContents.aspx?id=46 نقلاً عن: George Antonius, **The Arab Awakening**, pp. 440-2.

٤ ـ من قرارات المؤتمر الثاني للوطنيين العرب من فلسطين، والمنعقد في دمشق في ١٩٢٠/٢/٢٧، نقلاً عن: عيسى السفري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، ص ٣٤، واردة في سجلّات «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات http://nakba.sis.gov.ps/index.html

٥ ـ من مذكّرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في يافا إلى الجنرال وطسن، المديرِ العامّ للبلاد، حول الهجرة والنوايا الصهيونية في فلسطين، يافا ١٩١٩. مكتب السجلّات العامة ـ لندن، واردة في سجلّات «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات.

٦ ـ من مذكرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية إلى الحاكم العسكري البريطاني بالقدس برفض فكرة الوطن اليهودي وفصل فلسطين عن سورية، القدس ـ ١٩١٩/٨/٢٠، نقلاً عن **يقظة العرب** لجورج أنطونيوس، نقلاً عن كتاب **مارك سايكس: حياته ورسائله** لشن لزلي، واردة في سجلّات «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات.

مقتل فرج الله الحلو: لمصلحةِ مَنْ فتحُ الجراح؟ — رجاء الناصر*

مِنْ حقّ رفاق فرج الله الحلو أن يُحيُوا ذكراه في كلّ مناسبة، وأن يرفعوه إلى مرتبة القداسة، وأن يتحدّثوا عن مزاياه ومناقبه، وعن معاناته وتضحيته بحياته من أجلِ ما يؤمن به. وهذا الحقّ لا يقتصر على رفاق الحلو وأعضاء حزبه، وإنّما يَشْمل جميعَ القوى والتيارات السياسية التي قدّمتْ ضحايا وشهداءَ، وتعرّضتْ للتنكيل والاضطهاد من قِبل الآخرين: فالتيّار الأصولي الإسلامي تعرّض أعضاؤه وقادتُه للتعذيب والقتل على أيدي خصومهم؛ والسوريون القوميون الاجتماعيون أُعدم قائدُهم أنطون سعادة وتعرّضوا لمحاولات التصفية السياسية والجسدية؛ والناصريون تعرّضوا لعمليات تعذيب وقتل وإعدام على امتداد الوطن العربي.

ولكنْ حتى يستقيمَ النقدُ ويعطيَ ثمارَه، فإنّ علينا ألاّ نمارسَ الانتقائيةَ في النقد أو في نقد النقد، وإنّما يجب أن تتسع دائرةُ نظرنا لتَشْمل العملَ السياسي برمّته، لا أن تقف عند زاوية معيَّنة. ذلك أنّ أجزاء الحقيقة لا يُمْكن أن تكون حقيقةً في مطلق الأحوال، بل يُمْكن أن تكون تشويهًا للحقيقة.

وفي محاولة البحث عن الحقيقة الضائعة في مقتل فرج الله الحلو أَحْسب أنّه من الضروري أن نتوقف عند مجموعة من المسائل:

أولُها: هل قُتِلَ فرج الله الحلو، وبعده سيِّد قطب، وكثيرٌ من النشطاء القوميين والوطنيين والإسلاميين واليساريين في مرحلة الصراعات السياسية خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وتحديدًا في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، من أجل الديموقراطية وفي مقاومة الاستبداد؟

علينا أن نعترف جميعًا أنّ جميع الأنظمة والمنظّمات السياسية التي نشطتْ في تلك المرحلة لم تكن تُولي مسألةَ الديموقراطية اهتمامًا جديّاً، بل كانت جميعُها شموليةً في الفكر والممارسة ـ وفي المقدمة منها الأحزابُ الشيوعية، والقوى الأصوليةُ الإسلامية، والأحزابُ القومية الثورية.

فالشيوعيون تمثّلتْ عقيدتُهم بـ «دكتاتورية البروليتاريا»، بكلّ ما تَحْمله من إلغاءٍ للآخر، بعيدًا عن كون الآخر يمثّل الأغلبيةَ. والتيار الإسلامي قالت معظمُ قياداته بتكفير المجتمع والحكم بارتداده، بما يَحْمله هذا الارتدادُ من عقوبات القتل والإبادة. والأحزاب القومية الثورية قالت بالحرية للشعب، وبأنْ لا حرية لأعداء الشعب الذين يمثّلهم «تحالفُ الإقطاع مع الرأسمال المستغِل، والذي انضمّت إليه قوًى تَعْمل لحساب الخارج.»

وفي الممارسة كان الاستبدادُ والإرهابُ والاضطهادُ عنوانَ تطبيق الأفكار، إذ تبادل المضطهَدون ومضطهِدوهم الأدوات: فالشيوعيون مارسوا أشنعَ التصفيات الجسدية ضدّ خصومهم في أوقات تحالفهم مع ديكتاتور العراق عبد الكريم قاسم؛ ويَشْهد قطارُ الموت الذي ساقوه إلى الموصل على شناعة ممارساتهم الإرهابية، من سحلٍ وتعليقٍ للجثث على أعمدة الكهرباء وغير ذلك. والأمر ذاتُه تكرّر عندما تمكّن الشيوعيون من حكم الشطر الجنوبي في اليمن؛ ويُسجِّل التاريخُ عملياتِ القتل والإعدام الوحشي التي طاولتْ خصومَهم من الناصريين والقوميين، كما طاولتْ رفاقَهم في لحظات الصراع الدموي على السلطة. والأصوليون الإسلاميون مارسوا القتلَ والتعذيبَ عندما أمسكوا بالسلطة في السودان وإيران، وقَبْلَ ممارستهم للسلطة في مصر والجزائر واليمن وسورية. وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى البعثيين في العراق وسورية. وفي مصر مورستْ أساليبُ القمع، بما فيها في العهد الناصري، فاعتُقل خصوم وعُذِّبوا وأُعدم البعض. ولا أريد أن أُجري مقارنةً بين حجم القمع من قِبل الجميع ولا مبرِّراته؛ ذلك لأنّنا جميعًا نَسْتنكر القمعَ مهما كانت مبرِّراتُه ومهما كان حجمُه، وهو استنكارٌ ناجمٌ عن وعيٍ اكتسبناه عبر التجربة والممارسة.

الخلاصة الأساسية هنا أنّ ما مارستْه القوى السياسيةُ لم يكن نضالاً ضدّ الاستبداد، **بل من أجل أفكار وسياسات مخالفة.** فقد ناضل الناصريون من أجل الوحدة، وناضل الماركسيون الشيوعيون من أجل إقامة نظام اشتراكي شيوعي، وناضل الإسلاميون من أجل ما يؤمنون أنّه دولة الإسلام. واستشهدوا أو قُتلوا وعُذّبوا في سبيل هذه المبادئ.

ثانيها: لماذا تُطرح اليومَ، وفي وسائل إعلامية مختلفة، قصةُ مقتل فرج الله الحلو؟ وهل طرحُ المسألة اليومَ، وبهذه الطريقة، محاولةٌ لتنظيم المقاومة ضدّ الاستبداد، أم هي إذكاءٌ للخلافات بين التيارات التي تقول بأنّها معادية للهجمة الأميركية ـ الصهيونية؟*

بإمكان الناصريين أن يَسْتعرضوا تضحيات شهدائهم الذين قُتلوا على يد الحزب الشيوعي في العراق وفي اليمن الجنوبي (وهم أكثر بكثير من ضحايا الأنظمة الوطنية، من شيوعيين وغيرهم...)، وبإمكانهم أن يَنْفخوا كثيرًا في إرهاب الحركة الشيوعية ولاديموقراطيتها وفي منهجها العنفي. كذلك يمكن أن تُفتح معاركُ مع الإسلاميين بسبب معاركهم مع التيار القومي، أو مع التيار الماركسي. ولكنْ ما هي النتيجة المستفادة من هذا السجال، سوى استحضار حروب داحس والغبراء، وليكون العدوُّ الخارجيُّ هو المستفيدَ الوحيد؟

لقد تطوّر الفكرُ الناصري، وتطوّرتْ أفكارُ الكثيرين من الشيوعيين والإسلاميين، باتجاه تعميق الديموقراطية ـ لا باعتبارها حقًا

❊ ـ كاتب سوري. ناشط في مجال المقاطعة، ومناهضة التطبيع، ودعم الانتفاضة والمقاومة العراقية.

* ـ تعليق الآداب: يَعْرف الأستاذ الصديق رجاء الناصر أنّ هدف الآداب كان، وسيبقى، محاولةَ إذكاء الحوار (لا الخلافات) بين التيارات الفكرية، ولاسيّما القومية والماركسية، بهدف إنعاش تصوّر خلاق لـ «عروبة جديدة» و«يسار عربي جديد.» والأستاذ جورج حدّاد، كاتبُ المقال الذي يردّ الأستاذ الناصر عليه (الآداب ٢٠٠٤/٨/٧)، هو من ضمن هذا التوجّه بالتأكيد.

للأغلبية فقط وإنّما باعتبارها حصناً للأقلية أيضًا. وتعزّزتْ قيمُ تقديس حقوق الإنسان لدى معظم هذه التيارات، وهو تطور إنساني خلّاق من المفيد أن نتعاون جميعًا على تعميقه. أما الحديث عن الشفافية والاعتراف بالأخطاء فهو ضروري، ولكنّه مطلوب من الجميع بعد كشف الحقائق المجرّدة؛ وإلاّ فإنّ الشفافية تصبح مجرد ستارة تخفي عقليةَ الثأر والانتقام والحقد ولا تتجاوزها.

ثالثها: ما هي الحقيقة وراء مقتل فرج الله الحلو؟

للحقيقة أوجهٌ مختلفة وسط روايات متعدِّدة يقوم معظمُها على التخمين والاستنتاج. فالحقائق المجرّدة تقول إنّ فرج الله الحلو اعتُقل في سورية، ولم يُختطفْ من لبنان؛ وإنّه كان يَحْمل اسمًا مستعارًا؛ وإنّه جاء إلى سورية من أجل الإشراف على تنظيم الحزب الشيوعي الذي خاض صراعًا ضدّ الوحدة؛ وإنّ أجهزة الأمن ألقت القبضَ عليه ضمن مداهماتها لمخابئ المتوارين من أعضاء الحزب؛ وإنّه أُجري التحقيقُ معه للكشف عن هويّته وعن بعض المطلوبين؛ وإنّه مات خلال التحقيق؛ وإنّ الذين أداروا التحقيقَ خافوا من تبعات موته فعملوا على إخفاء جثّته. طبعًا هذه الوقائع مؤلمة بحدّ ذاتها وغير مقبولة، ويمكن اعتبارُها أخطاءً من الأجهزة الأمنية تجب محاسبةُ القائمين عليها في حدودِ ما ارتكبوه. أمّا كلُّ ما أُضيفَ من روايات فهو مجرد أقاويل أو استنتاجات. فرواية فصائل الحزب الشيوعي، أو بعض رفاق فرج الله، من أنّه استُدْرج إلى دمشق، لا دليل عليها سوى تحليل سياسي يعبِّر عن وجهة نظر تيار سياسي؛ وقد نُسب الاستدراجُ [في مقالة جورج حداد في الآداب ٨/٧، ٢٠٠٤] إلى عنصر في الحزب الشيوعي شَكّ هو نفسُه في هذا الدور ونفاه، الأمرُ الذي جعله بغير دليل حقيقي.

أما الجزء الثاني من الرواية، وهو أنّ هناك قرارًا مسبَّقًا باعتقاله وتصفيته من قِبل النظام الناصري، ومن قِبل جمال عبد الناصر شخصيًا، فلم يوجدْ مَنْ يدعمه إلى الدرجة أنّ الراوي [كاتب المقال في الآداب] عاد ليضعها في باب الاحتمالات!

وأما الجزء الثالث، وهو أنّ المحقّقين استخدموا معه أسلوبَ التعذيب حتى الموت، فهو أيضًا استنتاج يتعلّق بالنوايا، مستفيدًا من حالة الوفاة ذاتها. ولكنْ ماذا أمام الرواية الأخرى التي تقول بأنّ فرج الله الحلو كان مصابًا بداء قلبيّ، وإنّ المحققين معه لم يكونوا يَعْرفون هذه الحقيقة، وإنّ المجموعة التي حَقّقتْ معه ومات أمامها ارتكبتْ لحدوث هذه الواقعة التي لم تعتدْ عليها، وإنّها عملتْ على طمسِ ما حدث بناءً على تعليمات قائدها المباشر، وإنّ هذا تمّ بدون معرفة القيادة؟ هذه الرواية جاءت خلال محاكمة تعرَّض لها العناصرُ الذين مات فرج الله الحلو بين أيديهم بعد الانقلاب على الوحدة ومن قبل خصومها، الأمرُ الذي يجعلها روايةً أكثرَ عرضةً للتصديق عند عرض الروايات المختلفة... رغم أنّني شخصيًا لا أنحاز إلى رواية معيّنة كما يفعل بعضُ رفاق فرج الله الحلو.

رابعها: المناخ الذي تمّ فيه اعتقالُ فرج الله الحلو، ومن ثم موتُه خلال الاعتقال.

يَعْترف كاتبُ المقال، وكثيرٌ من رفاق الحلو، أنّ الحملة التي تعرّض لها الحزبُ الشيوعيُّ السوري جاءت بسبب مواقف الحزب الشيوعي من الوحدة ورفضِه حلَّ الحزب. ويُعترف أيضًا بأنّ الاتحاد السوفياتي تحالَفَ مع الغرب ضدّ الوحدة العربية ودولةِ الجمهورية العربية المتحدة؛ وبأنّ الحزب الشيوعي السوري آنذاك كان مرتبطًا بالحركة الشيوعية العالمية؛ وبأنّ مواقفه الداخلية كانت متأثِّرة بالمواقف الرسمية السوفياتية.

إذًا، الشيوعيون السوريون في تلك الأيام وقفوا في صفٍ واحد مع أعداء الوحدة، الذين نفّذوا الكثيرَ من المؤامرات عليها منذ اللحظات الأولى لقيامها، وتحوّلتْ إذاعةُ بلغاريا إلى صوت لأعداء الوحدة (وسأسمح لنفسي بأن أَشْطب كل الانتقادات التي تتعلّق بالديموقراطية من الخطاب الشيوعي، لتناقضها التامّ مع الفكر الشيوعي في تلك المرحلة). وما يقال عن وجود تيارات معارضة للقيادة البكداشية والسوفياتية لم يكن يَحْمل مصداقية أو جدّية في ذلك الحين؛ ذلك أنّ الخلاف حول تلك المسائل كان سريّاً لا معلنًا (على افتراض وجوده) ـ وهو ما يَفْرضه الالتزامُ الحزبي في الأحزاب العقائدية المبنية على النظرية اللينينية للحزب. وهذه الخلافات لم تَظْهر إلاّ في مرحلة متأخِّرة، وتجلّت عبر انقسامات حادة في نهاية عقد الستينيات تطرّقتْ إلى مواقف الحزب من قضيتيْ فلسطين والوحدة العربية.

خامسها: مسؤولية النظام الناصري. امتاز الرئيس جمال عبد الناصر، ضمن ما امتاز به، بصفتيْن أساسيتيْن اختلف بهما عن معظم أقرانه. (أ) استعداده لتحمُّل المسؤولية، لا عن أعماله فحسب وإنّما عن مجمل النتائج المرتبطة بحكمه أيضًا. وكانت الصورةُ الأكثرُ دلالةً على تحمُّل المسؤولية هي موقفه الرسمي والمعلن من نتائج حرب حزيران ١٩٦٧، حين رَفض أن يحمّل المسؤوليةَ لغيره ممّن هم أدنى مرتبةً منه، أو حتى أن يشارك غيره بها. (ب) قدرتُه على الاستفادة من الأخطاء والعثرات وتحويلها إلى مواقف إيجابية، وممارستُه النقدَ الذاتيّ في محطات مختلفة من حياته. وهذه قدرة ساعدتْه على التجديد المستمرّ، والارتقاءِ بعمله السياسي والوطني، وعدم تحوّل ثورته إلى وضعية محافظة جامدة.

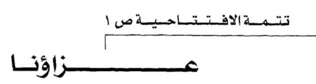
إنّ ذلك الاستعداد لتحمُّل المسؤولية والتعلم من التجربة عبر الممارسة ساعد على استمرار العلاقة بين القيادة الناصرية والشعب، وعلى التطوُّر وخصوصًا في مجال الديموقراطية. وهذا ما جعل عبدَ الناصر في وضع متقدِّم على جميع معاصريه، من قوًى وحركات وأحزاب. وقد أَسْهم ذلك لاحقًا في تمليك الناصريين وعيًا مسبقًا بأهمية الديموقراطية ومكانتها في النضال الوطني القومي، فاستطاعوا عبر هذا الوعي النقدي قراءةَ التجربة الناصرية وتطويرَها لتصبح الديموقراطيةُ وحقوقُ الإنسان جزءًا أساسيًا في الفكر الناصري.

إنّنا جميعًا نحتاج إلى إعادة قراءة التاريخ. ولكنّ القراءة المطلوبة ليست استنساخًا للماضي، ولاسيّما عبر تلك المفاهيم التي سيطرتْ علينا في مرحلة سابقة متأثّرين بالفكر الشمولي الاستئصالي. وإنّما المطلوب قراءة جديدة بعقليّتنا الراهنة التي يُفْترض أنها تملّكتْ وعيًا ديموقراطيًا تأسَّس على قناعةٍ بأنّ

الحرية مقدّسة ولا يجوز التنازلُ عنها أو تجاهلُها لأيّ سبب؛ وعيًا يقوم على أنّ الحقيقة في العالم الإنساني نسبيةٌ لا مطلقة. إنّ صُنْعَ مستقبلٍ أفضل لأمّتنا يقوم على قدرتنا على الوحدة بجميع تياراتنا ضدّ الهجمة الصهيونية ـ الأميركية، وعلى البحث عن كلّ ما يعزِّز عواملَ الوحدة ـ لا التنافر ـ بين تيارات الأمة الوطنية الديموقراطية.

دمشق

تتمة الافتتاحية ص ١



عزاؤنا

كان جورج حاوي أبًا لنا، نحن مَنْ بَدَأْنا خربشاتنا «السياسيةَ» في العشرينات من أعمارنا، عشّاقًا لفلسطين والكادحين. كانت خطبُه، وصورتُه، ونبرتُه العاليةُ، ورفرفةُ غُرّته عند إعلان «الموقف الصحيح،» وثقتُه التي تتفجّر بها عروقُ وجهه ورقبته، تُلْهِمُنا جميعًا، أثناءَ الاجتياح الإسرائيلي عامَ ١٩٨٢، في كلّ ما نَفْعله: قتالاً (رَحِم اللّه رفيقَنا «نعْمان»)، أو حراسةً، أو تدرُّبًا على حملِ السِّلاح، أو تحصينًا للمتاريس، أو إسعافًا للجَرْحى، أو توزيعًا للطعامِ والماءِ على مقاتلي القوات الفلسطينية ـ اللبنانية المشتركة (اللّه يا زمان!) عند كافّة «الثغور» المتقدّمة في مواجهةِ جيشِ شارون.

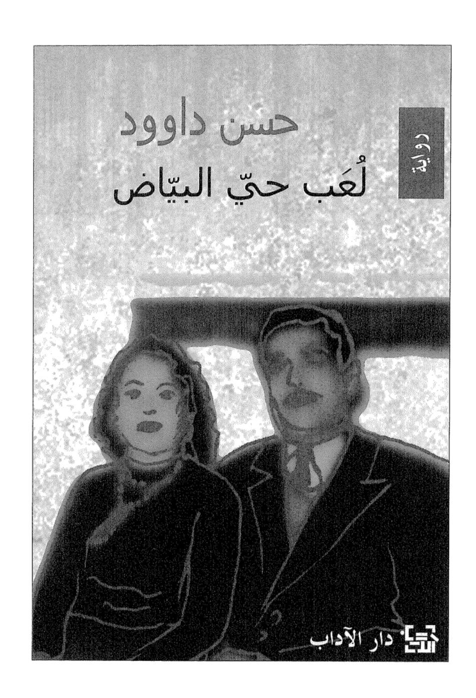
ومن خسارتنا في أيلول ١٩٨٢ استلَّ جورج حاوي سلاحَ النصر، فأَطْلق مع محسن إبراهيم (أمينِ عامِّ منظمةِ العمل الشيوعي) «جبهةَ المقاومة الوطنية اللبنانية» ضدّ الاحتلال الإسرائيلي لبيروت ولبنان عامةً. واليومَ، وبغضّ النظر عمَّن قتل الشهيد جورج حاوي، فإنّ أبا أنيس يبقى، دون أدنى رِيْب، أعظمَ شهداء المقاومة الوطنية اللبنانية التي تَكَلَّلَتْ بالنصر في ٢٥ أيّار ٢٠٠٠ ـ وإنْ بقيادة لبنانيةٍ وطنيةٍ أُخرى.

ولكنْ في خضمّ المقاومة، في الجنوب والجبل، وهنا وهناك، بدأ الاستياءُ يتسرَّب إلى نفوسنا. وكان أوّلَ ما أغاظنا مفهومُ «الطائفة الوطنية» الذي فَبْرَكه الشهيدُ جورج حاوي أثناء حربِ الجبل ضدّ «القوات اللبنانية» في أوائل الثمانينيات. طائفة... ووطنية، رُحْنا نتساءل، كيف ذلك؟ وبعد تنازُلِ حاوي عن قيادة الحزب الشيوعي، توالَت انفتاحاتُه المفاجئةُ والمتعدّدةُ الأبعاد على أطرافٍ وأنظمة عربيةٍ لم تحظَ يومًا بثقتنا. إلى أن صَعَقَنا بتقاربُه الأخيرِ مع «قرنة شهوان،» الطائفية التكوينِ والأهداف، بحجّة «المصالحة الوطنية» التي نَظَّرَ لها الشهيد جورج، وبالماركسيّة أحيانًا؛ في حين لم نَرَها إلاّ سعيًا إلى تجديد دماء الطبقة السياسية السائدة ببعض «المعارضين» على حساب الشباب الطامحِ إلى التغيير الجذري، ولم نعتبرْها إلاّ نفاقًا لكونها لم تَرْتكزْ إلى نقدٍ ذاتيّ حقيقيّ يبرِّر صدقيّةَ مختلف أطرافها المتحوِّلة! وكان آخرَ ما صَدَمنا من مواقف الشهيد حاوي، نحن الذين مازلنا متمسّكين بمفردات اللغة «الخشبية» مثل «فصلِ الدينِ عن الدولة،» ما خطَّه بيده عشيّةَ اغتياله ونَشَرَتْه الرأيُ العامُّ الكويتية، حين صَرَّحَ بالآتي: «عانى المسيحيون في لبنان منذ [مؤتمر] الطائف حالةَ تهميش، ومرحلةَ هيمنة فئويةٍ على حسابهم... لقد تمّ تنصيبُ ممثِّلين مزيَّفين عنهم في السلطة وفي المجلس النيابي، لولا قِلَّةٌ ممّن التقوْا في إطارِ قرنةِ شهوان يَسْتظلّون عمامةَ البطريرك [!] ويَسْتلهمونَ بياناتِ المطارنة [!]»

أيّاً يكن الأمر، فإنّ المقاومة العربية، باستشهاد قصير وحاوي، تُفْجَعُ اليومَ باثنيْن من مداميكها الأساسية. عزاؤنا أن نُكْمِلَ درب الحرية التي استُشهدا من أجلها، وأن نَرْحَلَ بفكرهما النقديّ إلى آفاقٍ أوْسَع وأكثرَ جذريةً. وعزاؤنا أيضًا أن نتذكَّر أنَّ استشهادَ المثقفين والمقاومين الأحرار لن يوقفَ المقاومةَ بمختلف أبعادها، وإلاّ لكانت توقّفتْ بعد اغتيال سعادة وغسان وكمال ناصر وكمال جنبلاط ورياض طه وماجد أبو شرار وحسين مروّة ومهدي عامل وصبحي الصالح وناجي العلي وفرج فودة والعشرات الآخرين. تُرى، ألا تكفي هذه الحقيقةُ، حقيقةُ مواصلة المثقفين والمقاومين لرسالتهم مهما غَلَتِ التضحيات، لكي يُفكِّر المجرمُ مرّتيْن قبل أن يَزْرع عبوّةً جديدةً في سيّارةِ مثقّفٍ أو مقاومٍ جديد؟

سماح إدريس

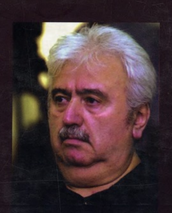
بيروت



«ربّنا، سبحانه وتعالى، أعطى لكلّ مخلوق شيئًا يحمي به نفسَه. أعطى البقرةَ قرنين لتنطحَ بهما كلَّ من يأتي ليؤذيها. وأعطى النحلة إبرتَها التي تؤلم حتى أكبرَ الأجسام. وأعطى القطّةَ مخالب، والجروةَ أنيابًا... اللّه سبحانه أعطى لكلّ مخلوق من مخلوقاته شيئًا يحمي به نفسه، إلاّ أنا، فقد خلقني هكذا بلا مخلب ولا إبرة ولا شوكة.»

حسن داوود روائي لبناني. صدرتْ له روايات عدّة كانت أولها بناية ماتيلد. كما أصدر مجموعتين قصصيتين. تُرجمتْ أعماله إلى لغات عدة. ويعمل الآن مديرًا لتحرير ملحق «نوافذ» الصادر عن صحيفة المستقبل.

شهيدان من أجل التحرُّر والحريّة





"... إنَّ أميركا وإسرائيل لا تريدان لبنانَ بلدًا موحَّدًا مستقلاً حرًا سيّدًا وديموقراطيًّا.
إنَّ أميركا وإسرائيل ستتابعان تنظيمَ الدسائس والمؤامرات لتفرقة شعبنا وتقسيمِ بلادنا وتجزئتِها، تأمينًا لسيطرةٍ مديدةٍ لهما على لبنان، وعبرَ لبنان على سائر الأقطارِ العربيةِ المجاورة..."

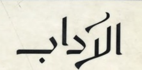
جورج حاوي ومحسن إبراهيم،
١٦ أيلول ١٩٨٢، غداة انطلاق
«جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية»
ضد الاحتلال الإسرائيلي



سمير قصير

"... يتوجّب على الداعين إلى إنهاء الوصايةِ السورية أن يتنبّهوا أكثرَ إلى بعضِ المفردات والمفاهيم. فحذارِ مثلاً تحريك العنصرية اللبنانية «العادية» حيال العمّال السوريين. وحذار التلذّذ بادّعاءات التفوُّق الحضاري، خصوصًا عندما تكون في بلدٍ صَنَعَ مجدَه الحضاري، أيْ الثقافي والفني والاقتصادي والمعرفي، سوريّون..."

سمير قصير، ٢٠٠٠،
ديموقراطية سوريا واستقلال لبنان، ص ١٠٩



مجلّة ثقافيّة عربيّة منذ ١٩٥٣
ص.ب.: ٤١٢٣ ـ ١١
بيروت ـ لبنان
الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٥٠
هاتف: (٠١)٧٩٥١٣٥ ـ (٠١)٨٦١٦٣٣
(٠٣)٣٨١٣٤٩
فاكس: ٨٦١٦٣٣ـ١ـ٠٠٩٦١

AL ADAB

Arabic Cultural Review Since 1953
P.O.Box 11- 4123
Beirut - Lebanon
Post Code 1107 2150
Tel/Fax: (01) 795135 - 861633
(03) 381349
d_aladab@cyberia.net.lb
www.adabmag.com





ب:٩٦/١٦٨
P:168/96